الزحف المقدس



شريف يونس

الزحف المقدس

مظاهرات التنحي وتشكل عبادة ناصر

شريف يونس

فهرس

"تعس ذلك البلد الذى

يحتاج إلى بطل"

(برتولد برخت، مسرحية جاليليو)

مقدمة

من مساء التاسع من يونيو ١٩٦٧ وحتى مساء العاشر منه، اندفع المصريون فى شوارع رئيسية كثيرة فى عاصمة البلاد وعديد من مدنها، وتجمعوا حتى فى القرى (وملأ العرب شوارع أخرى فى عدة مدن عربية). تجمعوا ولا هدف لهم سوى عودة رئيس مصرى ألحق بالبلاد أكبر هزيمة منذ معركة "التل الكبير" عام ١٨٨٢، وأعلن "تنحيه" عن السلطة – كتعبير شعرى عن الاستقالة؟- وتوريثها لزميل السلاح والسلطة زكريا محيى الدين. ثم عادوا إلى بيوتهم غانمين حين أعلن عبد الناصر، أو "ناصر" أو "الريس"، كما كانوا يسمونه، تراجعه و"قبوله" العودة إلى السلطة رئيسا لـ"الجمهورية العربية المتحدة"، التى هى مصر. والحدث فريد من نوعه فى تاريخ البلاد، وربما كان نادرا فى التاريخ كله.

وقد قيل أحيانا أن هذه المظاهرات الفريدة من نوعها قد دبرها الاتحاد الاشتراكى. وربما يؤيد هذه الدعوى أن الاتحاد الاشتراكى فى عهد على صبرى كان يحاول أن يبنى قوة سياسية فاعلة مستقلة، تجسد ح ما يكون فى تجربة

"الاستدعاء السياسى" التى تمت فى أوائل فبراير ١٩٦٧، أى قبل حدث التنحى بشهور، بمناسبة استقبال رئيس العراق عبد الرحمن عارف، حيث استطاع التنظيم أن يجمع عشرات الآلاف لاستقباله بغير الطريق الإدارى، وإنما باتصالاته الخاصة، وتبين بالتجارب أنه يمكن بهذه الوسيلة جمع ١٠٠ ألف خلال ١٠ ساعات، أو ٤٠ ألفا فى ثلاث ساعات فى القاهرة (حوار مع على صبرى، أبريل ١٩٦٧)، ليصبح الاتحاد بذلك قوة يحسب حسابها. وربما تشير الشعارات التى نشرها مؤرخ الثورة أحمد حمروش إلى تزاوج يجمع بين التلقائية والتنظيم تبرر القول بأن ثمة جهة قد دبرت المظاهرات، فكان منها على سبيل المثال "أرفض أرفض يازكريا [محيى الدين]/ عبد الناصر مية المية". "حنحارب، حنحارب"، "ما تقوليش ما تقوليش/ عبد الناصر غيره مافيش"؛ ولكن هناك أيضا:"مكتوب على سلاحنا/ عبد الناصر كفاحنا"؛ "يا أمريكا لمى فلوسك/ عبد الناصر جاى يدوسك"؛ "وحياة السد لأقول الجد/ بعد عبد الناصر ما فى حد"، فتبدو هذه الشعارات الأخيرة واضحة الافتعال، إذا نسبت لجمهور

غير منظم، خصوصا الشعار الأخير، فلم تكن ثمة صلة بين السد والهزيمة، وإنما هى محاولة للتذكير بالإنجازات.

وثمة أيضا شهادات فردية بأن بعض المواصلات العامة قد نقلت الناس إلى أماكن التجمع، كما نقلت وسائل أخرى جموعا من الريف والمدن الأخرى إلى القاهرة. وظهر بعض رجال الاتحاد الاشتراكى فى وسط التجمعات الجماهيرية فى الريف والمدينة، بحكم تواجدهم الطبيعى بين السكان.

ومع ذلك، والحدث ليس ببعيد، وعديد من شهوده أحياء، ثمة شهادات على أن الاتحاد الاشتراكى، الفقير الشعبية أصلا، كان مصابا بحالة من الشلل، فى البداية على الأقل، وثمة عديد من الأشخاص، منهم مثقفين وعلماء، شهدوا بأنهم اندفعوا إلى الشوارع بمجرد سماع نية عبد الناصر فى نقل السلطة، وحتى قبل انتهاء البيان. وشهد بعض أعضاء منظمة الشباب بأنهم أصيبوا بمفاجأة شلتهم، فكانوا لا يدرون ما عليهم عمله بوصفهم "قيادات سياسية"، حتى فى صبيحة اليوم التالى بعد أن ملأ البشر الشوارع. هذا فضلا عن أن البيان أذيع مساء، بينما الناس فى بيوتهم، وبعيدين عن أماكن تجمعهم الطبيعية حيث يسهل نسبيا تحريضهم وجمعهم،

وحتى عن أماكن لهوهم، حيث كانت تخيم عليهم أشباح كارثة يجهلون أبعادها.

وقبل هذا كله كان النظام الحاكم فى أضعف لحظاته، وقد نقل الناس فجأة من قمة النشوة بنصر كاسح منتظر وعد به الزعيم صراحة، على نحو ما سنرى، إلى دياجير كارثة مروعة. لم يكن مثل هذا الجو مناسبا ليطلب تنظيم مشكوك فى شعبيته من الناس أن يؤيدوه ونظامه، ولم يكن يملك مصداقية مطالبتهم بأن يصفحوا عن الهزيمة ببساطة. ولم يكن مناسبا استخدام الوسائل التى اعتادت عليها السلطة فى تدبير المظاهرات المؤيدة، من قبيل إعفائهم من العمل وقت المظاهرات، أو تدبير بدل نقدى، أو حتى التخويف الضمنى من عدم المشاركة، باعتباره إظهارا لدرجة من العداء للنظام لها عواقبها؛ لم يكن هذا كله قابلا للاستخدام فى هذه المناسبة الكارثية، ولا فى تلك اللحظة من ليل القاهرة.. حيث بدا كل شىء فى حالة انهيار.

هذا كله فضلا عن أن النظام، كنظام، لم يكن مهددا جديا.. فنقل السلطة إلى زكريا محيى الدين – وهو الذى تميز بأكبر تعلق شخصى بعبد الناصر بين أعضاء مجلس

قيادة الثورة – لا يعنى نقل السلطة إلى طرف معاد للمجموعة الحاكمة، ناهيك عن النظام ككل. فلم يكن ثمة دافع قوى لينتفض النظام من أعماقه ضد تهديد جذرى. وأقصى ما يمكن أن يقال أن نقل السلطة كان يمكن أن يغير بعض التوازنات داخل الجماعة الحاكمة وتياراتها.

وربما يقال هنا أن على صبرى، الذى تولى شئون الاتحاد الاشتراكى عام ١٩٦٥، والذى بدأ حياته السياسية سكرتيرا لعبد الناصر، ثم ممثلا له فى العديد من المناصب التالية، كان على الأرجح من أشد الأطراف حرصا على عدم الإخلال بالتوازنات القائمة، وكان يملك تجربة "الاستدعاء السياسى" لتدبير المظاهرات. ولكن فى ضوء الاعتبارات السابقة، كان أقصى ما يستطيعه أن يستخدم بعض الدوائر الضيقة الموثوق بها من الاتحاد الاشتراكى، أو المنظمات الأمنية شبه المدنية، كالدفاع المدنى، فى الإيحاء للتجمعات العفوية برفع شعارات مناسبة، أو تجهيز بعض اللافتات، أو توفير وسائل النقل، أو بتحريض التجمعات التى ظهرت بالفعل. وهذا كله، أيا كان حجمه – والأرجح أنه متواضع للغاية – لا ينفى عن

مظاهرات ٩ و١٠ يونيو عفويتها وتلقائيتها، بما فى ذلك اتجاهها العام لاستبقاء عبد الناصر فى السلطة.

لننظر فى فرادة الحدث، أو الظروف المساعدة. كانت الهزيمة على عمقها بعيدة عن أن تمس مباشرة وفورا حياة معظم المصريين؛ فبرغم أن البلاد قد فقدت مساحة معتبرة من رقعتها، فإن هذه الرقعة بالذات كانت قليلة السكان، وبعيدة عن مركز العمران الأساسى، الوادى والدلتا، وبعيدة عن القاهرة، مركز السلطة الذى لم يمس. ولم تبدأ حتى مدن القناة فى التعرض لمتاعب عظمى فى الأيام الأولى للحرب وحتى وقف إطلاق النار. وهكذا لم تعان القاهرة، ولا المدن الأخرى، ما عانته برلين فى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث احتلتها جيوش أمم أخرى. ومن جهة أخرى كانت الحرب قصيرة وخاطفة بما حال دون الشعور بآثارها فى الأيام القليلة الأولى. لم تكن ثمة خسائر متوالية لشهور وسنوات من القتلى والجرحى، ولا ضغوط اقتصادية عنيفة تصاحبها، على نمط الحربين العالميتين مثلا. ولم يبدأ الجنود المهزومون فى التدفق على البلاد إلا قبيل التنحى.

وهكذا كانت الهزيمة فكرة أكثر منها شيئا ملموسا معاشا أو خبرة تاريخية متراكمة، وفضلا عن ذلك لم تكن أبعادها معروفة آنذاك. كانت فى واقع الأمر بالنسبة لمعظم السكان خبرا عرفوه من الإذاعات الأجنبية، أو ألمحت إليه الصحف ووسائل الإعلام قبيل التنحى، لا حياة معاشة. ومع ذلك فقد كان خبر الهزيمة، التى تأكدت بالخطاب، ثقيلا مذلا مهينا، خاصة فى ضوء الأحلام العريضة التى روجها النظام وأجهزة دعايته، بما يصل إلى حد الزعم بالقدرة على دخول تل أبيب، عاصمة إسرائيل آنذاك.

ومن جهة أخرى لم تقم ثورة على النظام تعوض الهزيمة مثلما جرى فى باريس حين اقتربت الجيوش الألمانية منها بعد هزيمة سيدان عام ١٨٧٠، أو برلين بعد الحرب العالمية الأولى، حيث تحل سريعا حالة من النشوة محل حالة الإحباط العميق – فيما يقول دارس لـ"ثقافة الهزيمة" فى حروب أوربية مختلفة – بسبب سقوط نظام يعتبر مصدر أشكال مختلفة من المعاناة وعلى رأسها الهزيمة ذاتها، خاصة إذا شاركت جموع عريضة فى الثورة. وفى الواقع لم توجد أية قوى سياسية، أو حتى بذور معقولة لها، فى الساحة، ولا

معسكرات إيديولوجية متمايزة ومنظمة فى منظمات مستقلة من أى نوع تستطيع أن تستخلص شيئا مختلفا من الهزيمة وتتحرك للمطالبة بتغيير النظام القائم. وفى مجال المقارنة، فإن أقرب وضع لهزيمة ١٩٦٧ كان عودة نابليون مهزوما من روسيا عام ١٨١٢. غير أن هزيمة نابليون توجت سنوات طويلة من حروب مستمرة، عوضت مصاعبها انتصارات سابقة لا تحصى حققها القائد الفذ.

وهكذا يمكن أن نقرر بشكل آمن أن النظام على عمق الهزيمة لم يكن فى أساسه مهددا تهديدا سياسيا جديا من أى نوع. وحتى إسرائيل لم تكن تتوقع أن تتوج انتصارها بتغيير النظام، بل باستسلامه.

ومع ذلك يمكن القول بشكل مؤكد تقريبا أن النظام فى تلك اللحظة كانت له، بصرف النظر عن أطماع هذا الفريق أو ذاك، مصلحة مؤكدة فى استبقاء عبد الناصر، باعتباره الرمز الأقوى للنظام، وباعتبار أن شعبيته الواسعة النطاق تظل إحدى الأسلحة القليلة المتبقية له لكى لا يحكم بمجرد العنف البوليسى. ففوق غياب أية بدائل سياسية واقعية، كان بقاء عبد الناصر أنسب الخيارات لاستمرار النظام. ربما أفسحت

الهزيمة فرصة لانقلاب قصر، ولو حدث ذلك لتم منع عبد الناصر من إلقاء "خطاب التنحى"، مع تحميله المسئولية كاملة، باعتباره المسئول الحقيقى الوحيد عن قرارات تصعيد النزاع التى أدت للحرب. ولكن الذهول أحاط بالجميع: لم يحمل أحدا من كبار "المسئولين" المسئولية من قبل؛ كانوا جميعا مسئولين أمام الزعيم وحده. وبالاستقالة، أى التنحى، انقطعت الإمكانية أصلا.

أيا كان الأمر فإن كل الشواهد والملابسات المحيطة بهزيمة ١٩٦٧ وطبيعتها تفرض تناول حدث ٩ و١٠ يونيو كحدث أساسه إيديولوجى فى المقام الأول. فعفوية المظاهرات لا تعنى غياب فكرة ما، بل تعنى غياب التنظيم. ويمكن القول بأن عفوية الحركة كانت تصدر عن شعور ووعى متراكم عبر ١٥ سنة من حكم جماعة الضباط الأحرار، ومن أُلحق بهم من المدنيين والعسكريين الآخرين. والحال فإن الإيديولوجيا ليست على وجه العموم فكرا سياسيا أو نظرية، وإنما هى حالة من الوعى والشعور السياسى، فهى أفكار تبرر قبول أو رفض سياسات بعينها، وقيم تشكل معايير للقبول والرفض، وخطاب يتولى تحديد وضع متلقيه،

سواء بصفة مستمع أو مشارك أو مطالب بالطاعة أو بفعل معين، أو غير ذلك.

وهكذا فإن حدث ٩ و١٠ يونيو ربما ينبغى تفسيره، فى المقام الأول، لا بتحركات معينة لأجهزة السلطة، بل بأوضاع سياسية وإيديولوجية متراكمة، شكلت بالفعل، باستخدام تعبئة إيديولوجية متواصلة، أذهان الناس وعواطفهم وتوجهاتهم، بما يفسر تحركهم على هذا النحو الفريد فى تاريخ الهزائم الكبرى للدول. وبعبارة أخرى يقترح هذا الكتاب تفسير هذا الحدث الفريد كمحصلة لعمل أجهزة الدولة السياسية والإيديولوجية على مدى عقد ونصف عقد لا كمحصلة مؤامرة دبرتها أجهزة الاتحاد الاشتراكى فى بضع ساعات من يوم محدد. فهو على هذا النحو "**حدث عفوى**"، ولكنه فى نفس الوقت ابن "**التعبئة**". وإذا كان ثمة تدبير لعب دورا فى الحدث فهو خطاب التنحى نفسه، الذى لعب على هذا التراكم وأجاد توظيفه. وهكذا فإن هذا الكتاب بأكمله محاولة للحفر فى الأسس السياسية والإيديولوجية العميقة لهذا الحدث الذى كان المصريون فيه فاعلا مباشرا، ومفعولا به غير مباشر على مدى تاريخى.

غير أن هذا يتطلب أولا، تحديد السمات الإيديولوجية الأساسية للحدث التى يتعين بحث جذورها.

والسمة الأولى هى فكرة تحرك الجمهور العفوى بلا قيادات، بصفته، كما قيل لاحقا، "شعبا يرفض الهزيمة". وبرغم أن فكرة "الشعب" تبدو بديهية، إلا أنها فى واقع الأمر نتاج طبيعة سلطة، وإيديولوجية تم تسييدها، صورت الشعب ككتلة واحدة، ليست فى حاجة إلا لتنظيم سياسى واحد، لما لها، فيما افتُرض، من أهداف واحدة. وجوهر الفكرة هو تحويل الشعب إلى أفراد لا تجمعهم أية رابطة واسعة خارج سيطرة السلطة. والحدث من جهة أخرى يعتمد على جهود النظام لتعبئة أفراد هذا "الشعب"، سواء بالسيطرة على المجال الإيديولوجى أو بأفكاره عن المساواة والاشتراكية وسياسته الاجتماعية. وهو ثالثا نتيجة سيادة نمط معين من إيديولوجية التحرر الوطنى، له طابع شعبوى **populist**، يركز على فكرة "العزة والكرامة"، ويقوم على إخضاع السياسة الخارجية لمجال ابتزاز أخلاقى، بما أدى فى النهاية إلى تورط النظام فى الحرب لأسباب إيديولوجية أساسا.

وأخيرا فهو نتيجة تجسد الدولة، بل وهذا "الشعب الواحد"، فى شخص واحد، هو جمال عبد الناصر، الذى هتفت المظاهرات باسمه، معتبرة بقاءه على قمة السلطة، دون غيره من "رجال الثورة"، تجسيدا وحيدا وضروريا لوجودها نفسه. وعلى عكس الفكرة القائلة بأن الزعامة "طبيعة" تنبع من ذات الزعيم وقدراته وإخلاصه، ومختلف خصاله، ستبين الدراسة كيف أمكن تاريخيا تجسيد "الشعب الواحد" فى شخص.

واعتمادا على هذه العناصر ستحال الدراسة بقدر من التفصيل "خطاب التنحى"، وكيفية عمله على استثمار محصلة هذه الوجبة الإيديولوجية المتكاملة التى قُررت على المصريين على مدى خمسة عشر عاما، بما يتفق مع ظروف اللحظة التاريخية.

على هذا النحو فإن الدراسة تعد فى المقام الأول محاولة للحفر عن كيفية تشكيل الوعى العام فى تلك الفترة بأدوات السلطة وبأيدى رجالها، ومحتوى هذا الوعى. ومن هنا تعتمد الدراسة فى المقام الأول على مجموعة من النصوص التى رسمت حدود وطبيعة المجال الإيديولوجى فى تلك المرحلة، وعلى رأسها خطب الرئيس عبد الناصر، وزملائه من

أعضاء مجلس قيادة الثورة، وتصريحاتهم وأحاديثهم الصحفية. فضلا عن مقالات أعلام الصحافة فى ذلك الحين مثل مصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس ومحمد التابعى وغيرهم، لدورهم البارز فى تشكيل المجال الإيديولوجى للفترة، فضلا عن مانشيتات الصحف وما ورد بها من أخبار بشأن أدوات التعبئة الإيديولوجية المختلفة.

إلى جانب ذلك تعتمد الدراسة بصفة مكملة على مذكرات المشاركين فى تلك الفترة وكذا العديد من الدراسات التى كُتبت عن جوانب متعددة من تاريخها. وتتعرض بشكل مختصر للتحولات الاقتصادية/ الاجتماعية التى أجراها النظام فى تلك الفترة وآثارها الإيديولوجية. ومع ذلك يجب التنويه بصفة خاصة بدراسة الصديق عادل العمرى غير المنشورة "الناصرية فى الثورة المضادة"، التى اعتمدت عليها فيما أوردته من أرقام وتحليلات اقتصادية.

*

الزحف المقدس

أيا كانت الاختلافات فى تحليل طبيعة حكم "الضباط الأحرار"، فلا شك أنه حكم عسكرى. فالضباط لم يستولوا على السلطة بواسطة حزب سياسى أو أى تنظيم جماهيرى من أى نوع، وإنما اعتمدوا على وحدات من الجيش، حركوها واستولوا بها على أعصاب النظام القديم تحت جنح الظلام، قبل أن يبزغ فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢. ومع ذلك لقى الضباط ترحيبا جماهيريا بعملهم بفعل الانهيار الشامل والانقسامات السياسية، سواء داخل معسكر النظام القديم، أو معسكر أعدائه (منظمات الإنتليجنسيا[*] المتمردة على اختلاف توجهاتها: الإخوان، التنظيمات الشيوعية، مصر الفتاة، جناح فتحى رضوان من الحزب الوطنى).

([*]) نقصد بالإنتليجنسيا، دائما، العاملين بعمل ذهنى، أيا كان، من محاسبين وأطباء ومهندسين ومحامين، الخ، بما فيهم منتجى ومروجى الإيديولوجيا المعروفين بـ"المثقفين"، من كتاب وفنانين وأدباء وصحفيين وخطباء مساجد وكنائس وغيرهم. وهو تعريف أوسع من المتداول، وهو على وجه التقريب يجمع بين "الأفندية" ورجال الدين.

وأيا كان تقييم سياساتهم، فمن المؤكد أنها ارتبطت بفكرة "العدالة الاجتماعية"، أو ما سمى وقتها "مكاسب" الشعب، ثم الشعب العامل تخصيصا بعد التأميمات. فهى تندرج بشكل أو بآخر تحت مسمى السياسات الإصلاحية. فمنذ البداية ظهر الضباط كقوة إصلاحية غامضة، فلم يحتو بيانهم الأول سوى على شكوى من الفساد السياسى الذى طال الجيش، وتسبب، فيما قالوا، فى هزيمة ١٩٤٨. ثم أعلنوا لاحقا عن ستة أهداف إصلاحية، يمكن وصفها بالغموض لأنها لا تعبر عن برنامج بعينه، وهى: القضاء على الاستعمار وأعوانه والإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم، تفيد جميعا فكرة استقلال السلطة عن كل القوى السياسية والاجتماعية، الداخلية والخارجية؛ فضلا عن إقامة جيش وطنى قوى وعدالة اجتماعية وحياة ديمقراطية "سليمة". وهى تعبيرات ثبت عمليا أنها فضفاضة، حيث اتسعت "العدالة الاجتماعية" لسياسات مختلفة تراوحت بين توجيه رأس المال المدينى الكبير الخاص مع تشجيعه، إلى تأميمه فى عام ١٩٦٠ وما بعده.

ومع ذلك اتخذ الضباط إجراءات إصلاحية محددة بسرعة كبيرة، أولها إصلاح زراعى محدود فى سبتمبر ١٩٥٢، ثم ثلاثة قوانين عمالية هدفت لحماية بعض حقوق العمال وعلى رأسها التنظيم النقابى. وهنا يبرز واقع أن حركة الضباط فى ٢٣ يوليو لم تكن حركة الرتب العليا المرتبطة برءوس النظام، بل الرتب الوسطى التى كان عندها أسبابها للسخط، وعلى رأسها أحوال الجيش نفسه.

أما الملمح الثالث والأخير، والحاسم فى تقديرى، فهو استقلال حركة الضباط الأحرار عن كافة القوى السياسية التى كانت قائمة آنذاك، سواء الموالية للنظام القديم أو المعادية له، برغم أنها كانت أقرب إيديولوجيا للأخيرة، حيث تلقى معظم أفراد الضباط الأحرار تربيتهم السياسية تحت تأثير منظماتها، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. وبصفة خاصة منظمات الإنتليجنسيا المتمردة السلطوية **authoritarian** (وخصوصا الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والحزب الوطنى- جناح فتحى رضوان)، فرجال تنظيم "حدتو" الماركسى فى تنظيم الضباط الأحرار استُبعدوا مبكرا. والواقع أن استقلال الضباط الأحرار التنظيمى هو الذى

ميزهم عن كل التنظيمات السياسية الأخرى فى الجيش، والتى كانت فروعا لتنظيمات سياسية مدنية. ويرصد طارق البشرى أن اختلاف الميول السياسية للضباط جعلهم يلتقون على أهداف عامة تحفظ لهم وحدتهم، كما تحفظ لهم استقلالهم التنظيمى والإيديولوجى. وفى عام ١٩٦١ شخص لطفى الخولى حالة الاستقلال هذه كالآتى:

لما كانت ثورة الجيش لم تصدر عن حزب من الأحزاب السياسية، بل انطلقت تعبيرا وتنفيذا لإرادة مجموعة "الضباط الأحرار" بقيادة عبد الناصر، مستقلة فى حركتها عن جميع القوى السياسية والاجتماعية فى المجتمع المنهار، فقد أقامت بالتالى دولة ذات سلطات مستقلة استقلالا ذاتيا عن القوى الاجتماعية والسياسية القائمة وقتذاك. وساعد على ذلك توازن القوى الاجتماعية والظروف الاستثنائية التى كانت تمر بها البلاد والعالم أجمع فى هذه المرحلة من التاريخ التى تميزت بتعادل ميزان القوى [الدولى].

وبجمع سمات النظام الجديد الأساسية، نجد أن البلاد واجهت بحلول الانقلاب سلطة عسكرية إصلاحية مستقلة، لا عن القوى السياسية فحسب، بل كذلك عن مختلف المنظمات

الجماهيرية (النقابات مثلا)، أى عن أصحاب الشأن المعنيين مباشرة بما كان يعرف بمكاسب الشعب التى كان يمنحها النظام. فلم يكن أمام الممنوحين سوى الشكر، والمطالبة بالمزيد إذا أتيحت لهم الفرصة. وظل هيكل القوة السياسية كيانا مستغلقا أمام مختلف المنظمات المدنية، فقد كان الضباط أشبه بـ"جمعية سرية تحكم مصر"، على حد تعبير إحسان عبد القدوس (١٩٥٤).

وفى ظل هذه الظروف كان أكثر الأشياء بداهة بالنسبة لهؤلاء القادمين الجدد إلى المسرح السياسى من العسكريين، وهم يشعرون بالسياسيين يستخفون بهم ويسعون لاستثمارهم، أن يصفوا أولا الحياة السياسية عموما، ثم يطرحوا أنفسهم ممثلين للشعب فى عمومه، لأنهم لا يستطيعوا أن يمثلوا أيا من أطرافه، ولا أن يدخلوا فى معركة سياسية لتمثيله، ولا أن يواجهوا أية قوة فى مجال سياسى مفتوح.. وكذلك لأن إيديولوجيتهم كانت على قدر من الغموض لا يسمح بتجاوز هذا التعميم الفضفاض.

ومن جهة أخرى خلع الضباط انتماءاتهم السياسية المختلفة السابقة، واستبقوا منها ميولا سياسية، بلا روابط

تنظيمية، فأصبحوا يواجهون المشهد السياسى العام "**أحرارا**" من كل التزام تجاه قواه القائمة، ولم يواجهوا قوة منها، أو تحالفا من القوى، يستطيع أن يسيطر على المسرح السياسى ويعيدهم إلى ثكناتهم.

ولكنهم من جهة ثالثة لم يطرحوا سلطتهم كمحض سلطة عسكرية قائمة على علاقاتهم الشخصية، أو على أساس من تمجيد الجيش كسلطة عليا. فالإيديولوجيا السائدة لم يكن محورها تمجيد الحكم العسكرى والعسكرية من حيث المبدأ، وإنما تكمن المفارقة فى أن هذه المجموعة العسكرية الإصلاحية طرحت سلطتها باعتبارها سلطة الشعب ككل، بل وكسلطة مدنية، وبالتالى قدموا "حريتهم"، أى انفرادهم بالسلطة، على أنها حرية الشعب. وحين شكلوا "هيئة التحرير" كأداة سياسية مدنية تحت سيطرتهم، قبل حل الأحزاب، دشنها محمد نجيب "باسم الشعب المصرى". وقد تأثروا فى هذا الطرح بالإيديولوجيات الوطنية السائدة فى مصر آنذاك، ولكن بغير ما ارتبطت به فى الفكر السياسى الديمقراطى الحديث من الاعتماد على آلية تمثيل محددة، وإنما على نحو سلطوى، يعتمد منهج التغيير من أعلى.

وطُرح مفهوم الإصلاح مقترنا بتصفية الحياة السياسية السابقة على يوليو ١٩٥٢، وكان رفض الحياة الحزبية أساس نوع مختلف من "الديمقراطية" التى اعتُبرت وحدها "سليمة"، على نحو ما أشار المبدأ السادس من "المبادئ الستة".

* * *

كانت أحداث مارس ١٩٥٤ أحداثا كاشفة عن طبيعة السلطة وإيديولوجيتها، فقد كانت مواجهة بين فكرة حكم الشعب بتمثيله، تدافع عنها القوى المعادية للضباط والمنادية بالديمقراطية، وحكم الشعب بالوصاية عليه ممثلة فى طرح الضباط. ففى مساء التاسع من مارس عام ١٩٥٤، حين كانت المواجهة محتدمة، والمشهد يبدو وكأنه قد يكون بداية النهاية لحكم الضباط (بالرغم من أن قرارات ٥ مارس التى وعدت بالديمقراطية وصدرت تحت ضغط انقسام الجيش لم تحدد فى الواقع كيفية تشكيل الجمعية التأسيسية التى ستضع الدستور المقبل ولم تنص صراحة على عودة الضباط للثكنات)، وقف عبد الناصر، رئيس الوزراء آنذاك، فى وجود محمد نجيب، رئيس الجمهورية، وعدد من أعضاء

مجلس قيادة الثورة خطيبا فى ضباط الجيش فى ناديهم وأعلن تمرده الصريح على قرارات ٥ مارس قائلا:

أنتم يا رجال الجيش، يا من قمتم فى ٢٣ يوليو... لتخلصوا الشعب من آلامه ولتحققوا له آماله... ستوقفون الرجعية فى مكانها... طالما تألم الشعب وطالما همس الشعب وطالما صرخ الشعب، **وطالما تاه هذا الشعب بين المبادئ المختلفة** وبين الأهداف المختلفة... طالما خدعوا هذا الشعب فى الماضى... أؤمن أن المبادئ ستنتصر وأن المثل العليا ستنتصر... طالما كنتم تؤمنون بالمبادئ وتؤمنون بالمثل... **وطالما لم يغرر بكم كما يريدون أن يغرروا بالشعب**.

وهكذا طرح عبد الناصر مبدأ حكم الشعب كوصاية عليه. فليس ثمة ولو محاولة لادعاء أنه والضباط المؤيدون له يمثلون الشعب بوصفه جماعة بشرية محددة عن طريق تفويض يتيح لهم تمثيله رسميا، ولا باعتبارهم منتخبين بأى معنى من معانى الانتخاب، ولا حتى عن طريق استشعار تأييد ضمنى، بل ثمة توجس من أن الشعب قد "يغرر به"، بمعنى أن يرفض حكمهم. كذلك لم يطرح عبد الناصر على نفسه وزملائه مهمة اكتساب ثقة الشعب والحصول على

تفويض كهذا، أو استعادة ثقة مفقودة، ولكنه طرح تأكيدا من جانب واحد بأنه يعتبر نفسه والضباط المؤيدين له أصدق تمثيلا للشعب من كل الأطراف الأخرى، وعلق "انتصار المبادئ والمثل"، وهى فكرة غامضة بحد ذاتها، على أن يظل الضباط وحدهم مؤمنين بها. فسواء تم "التغرير" بالشعب أم لا فإن عدم انقسام الجيش كاف بحد ذاته لتحقيق "حكم الشعب".

ويعنى هذا ضمنا أن فكرة الجيش عن الشعب ومصالحه هى بحد ذاتها **معيار** مصلحة الشعب وأساس سيادته. أما القطاعات التى ترفضها، فهى لا تمثل الشعب مهما اتسعت. ومن أيدها من الشعب، زادوا أم قلوا، ليسوا إلا مخدوعين عن مصالحهم نفسها. وبالتالى يظل الضباط وهم يتحركون على خلاف إرادة القوى السياسية الفاعلة التى أثبتت ثقلها الجماهيرى محتفظين فى رأى أنفسهم بفكرة تمثيل الشعب.

وتقوم هذه الفكرة بأكملها على افتراض أن ثمة كيان سياسى موحد متجانس يسمى الشعب حالّ مباشرة فى إرادة موحدة، أو يمكن أن تعبر عنه إرادة محددة، لا يخرج عنها إلا خوارج على الشعب. غير أن هذا الافتراض خيال

سياسى. ليس فقط لأن الشعب ينقسم إلى طبقات وفئات اجتماعية مختلفة أو متصادمة، وإلى ريفيين ومدينيين، وأزهريين وجامعيين... الخ، لكل منها رؤيته وثقافته ومصالحه، ولكن أيضا لأن فكرة الصالح العام نفسها تنقسم وفقا لتصورات هذه الفئات المختلفة، بما يستحيل معه اختزالها إلى مفهوم "الشعب" المصمت كما طرحه عبد الناصر هنا، أى ككتلة واحدة لها تعبير موحد واحد "صحيح" عن مصالحها المشتركة. وسنرى أن هذا التصور قد تبلور فى شعار "الزحف المقدس"، الذى ظهر منذ ١٩٥٣ فى مقالات "فلسفة الثورة"، بما يعنيه من تحويل السكان إلى "حشود" موحدة الوجهة والهدف تسير خلف طليعة مسلم بطليعيتها سلفا. وسوف تعمل سياسة الضباط من بعد على خلق هذا النوع من الشعب على ما سنرى.

الأهم أن هذا التصور لحكم الشعب يعفى الضباط من الالتزام بإثبات رضى الشعب المعنى عن سياساتهم، وينفى ضرورة إيجاد أية أداة مادية ملموسة تنقل إرادة هذا المجموع المفترض إلى قنوات السلطة، وهو ما سيمثل أساس المفهوم اللاهوتى للسلطة الذى ساد فى ذلك العهد على ما سنرى.

وبهذا المنطق الإيديولوجى يكون إقرار سلطة للشعب مجرد مقدمة لحصرها فى إرادة الضباط، والقضاء على أعدائهم باسم هذا الشعب. وبهذا المنطق دبر الضباط مظاهرات مؤيدة لهم – ولكن بعد رأب الصدع داخل القوات المسلحة – تعتمد على قوات الحرس الوطنى ومنظمات الشباب و"هيئة التحرير" وعمال النقل وعمال مديرية التحرير المنقولين بأتوبيسات مستأجرة، لتكون ذريعة للتراجع عن قرارات ٥ و٢٥ مارس "باسم الشعب"، بهيئاته التى كان بعضها يستمع إلى أنباء مشاركته فى الإضراب لصالح الضباط فى الإذاعة بغير أن يستشره أحد، بينما تعالت الهتافات بسقوط الديمقراطية وحياة "الثورة".

لم تكن القضية على الإطلاق احتكاما للشارع السياسى أو الجماهير. لقد كان مشهد الإضراب المدعوم بالعنف ضد رافضيه مجرد ذريعة للشروع فى قلب المائدة على من اعتُبروا أعداء للشعب، ولهذا كان أول ما طولب به المتظاهرون بعد إلغاء قرارات ٥ و٢٥ مارس الإخلاد إلى "السكينة والاستقرار"، تاركين الحكم للضباط الأحرار باعتبارهم الأيدى الأمينة العارفة بمصالح الشعب الموحد.

وبعد انتهاء الأزمة على هذا النحو خطب عبد الناصر بنفس هذا المنطق فى حشود مؤيدة تحلقت حول دار الرئاسة قائلا: "لن تكون هناك ديكتاتورية إلا **ديكتاتورية الشعب**، وإن الثورة ستستمر لتحقيق أهدافها كاملة بفضل اتحاده [أى الشعب] وتعاونه...".

لقد كانت لحظة مارس ١٩٥٤ حاسمة فى مسيرة الضباط نحو تأميم السلطة السياسية. ومن هنا فهى لحظة استثنائية فى كشف مدى التباعد بين إيديولوجية حكم الشعب وواقع الحياة السياسية. وهى لحظة لن تتكرر، فقد كان انتصار مارس ١٩٥٤ نهائيا، أصبح للضباط الأحرار بعده السلطة العليا المنفردة على كل نواحى الحياة السياسية والإيديولوجية. ومع ذلك فإن هذه اللحظة الاستثنائية مهمة نظرا لأنها تكشف على أوضح صورة نمط التمثيل السياسى للشعب الذى يتناسب مع سلطة الضباط. أى ذلك النمط من التمثيل **الذى يتحول فيه الممثل إلى معيار سياسى لسلوك الشعب، ولوعيه، ولإرادته السليمة**. بما يعنى أن حكم الشعب، بل "دكتاتوريته"، تتحقق بقدر ما ينجح الضباط فى تصفية أعدائهم السياسيين، كما

يرتفع وعى الشعب بنفسه بقدر ما يقبل فكرة أن حكمهم هو المعبر الصحيح عن "دكتاتوريته".

ويفيد تعبير "**الديمقراطية السليمة**" ذلك العزم على إقامة هذا النمط الخاص من "حكم الشعب" القائم على **الوصاية**، وبمقتضاه تعتبر أشكال الحكم الأخرى ديمقراطية مزيفة، أو ربما ديكتاتورية صريحة. وبتعبير الصاغ الطحاوى – المسئول الفعلى عن هيئة التحرير وأهم مدبرى إضرابات مارس المؤيدة للضباط – كانت هذه الإضرابات انتصارا للشعب على أعدائه الذين كانوا ينوون "**القضاء على الثورة وعلى الوطن وتسليم رقاب الشعب للمستعمرين**". وهذا يعنى أن كيان الشعب كله كان يتوقف على انتصار الضباط.

وقد استندت الوصاية أيضا إلى فكرة "الشعب المريض أو المشلول أو العاجز". فالشعب، وفقا لجلال الدين الحمامصى، كمجرد مثال، "لم يكن يعلم بالحقائق التى تمكنه من أن يحكم، ولم يكن يذهب باختياره إلى صناديق الانتخاب... إننا نريد **الشفاء الكامل من كل الأمراض** التى أضعف الاستعمار بها كياننا الاجتماعى والسياسى". وتؤدى فكرة الوصاية على الشعب العاجز إلى طرح "الثورة" كمشروع لتربية الشعب.

فإذا كان الضباط يمثلون الشعب بإرادتهم المنفردة، وإذا كان الشعب مريضا، يصبح تمثيل الضباط له مستندا بداهة لمهمة شفائه من عيوبه الأخلاقية ليصبح مؤهلا للحكم. ويتمثل منطق الوصاية التربوية بكثير من أبعاده فى قول عبد الناصر الجامع التالى (١٩٥٤):

أتى إلينا رجال السياسة وقالوا لنا: لقد أديتم الرسالة وعليكم الآن أن تسلموا الأمانة [:السلطة]. قال البعض أن علينا أن نسلمها باسم الحرية وباسم الديمقراطية، وقال البعض أن علينا أن نسلمها باسم الإسلام وباسم الدين... [ولكنهم] لم يقيموا فى هذا الوطن عزة ولا كرامة ولا حرية، **فآثرنا أن نحتفظ بالأمانة**... [لنحميها] من الخداع و**نحميها من التضليل**... ونحن نعلم أننا سنقاسى فى سبيل تسليمها إلى أهلها الحقيقيين... ونحن نعلم أن **هذا الوطن الذى لم تستقر فيه الأفكار** [كذا] **طوال السنين الماضية قد يتزعزع**، وقد لا يفهم الأمور على حقيقتها... لم يفارقنا الإيمان وآثرنا أن نسير فى الشوط إلى نهايته... و[نحن] نبث دائما بين أبناء هذا الوطن العزة والكرامة والحرية. وكنا نشعر بهذا أننا

نخلق وطنا جديدا ونخلق جيلا جديدا لا يعتمد على شخص أو أشخاص... ولكنه يعتمد على المبادئ والمثل العليا...

فالمشروع السياسى للضباط الأحرار كما يقرر عبد الناصر هو تربية الشعب على العزة والكرامة والحرية من ناحية، وحماية ذهنه من الأفكار الضارة من ناحية أخرى. والسلطة ليست "حقا" للشعب، بل "أمانة" ائتمن الضباط أنفسهم عليها لحين انتهائهم من تربية الشعب بحيث يصبح أهلا لحملها، وهو ما يتحقق بإنشاء جيل جديد، وبالتالى وطن جديد، يعيش بالمبادئ العليا التى سيلقنها له الضباط.

وهكذا أصبح مطلوبا تشكيل شعب جديد، واحد متحد، خلف الضباط، "متحرر" من "البلبلة"، بفعل تحكم السلطة بالمجال السياسى والإيديولوجى. وقد لخص أول شعار للضباط، وهو شعار "هيئة التحرير"، التى بدأ إنشاؤها بعد ثلاثة شهور من الانقلاب، هذا المفهوم الجديد للسياسة: "**الاتحاد والنظام والعمل**". وهو شعار إجرائى، لا يدل على سياسة بعينها، وإنما يعنى انتهاء "الفرقة الحزبية"، و"فوضى" الرأى والتنظيم، وإحلال "العمل" محل "الجدل الفارغ". فـ"الإنجازات" ستحل محل السياسة على نحو ما سنرى.

غير أن "الهدوء السياسى" الذى أعقب تصفية المعارضين جميعا جعل الضباط يشعرون أنهم اقتربوا من تحقيق هدفهم. ولعل الاقتباس التالى يلخص الأمر. فحين أفرج عبد الناصر عن أعداد من المعتقلين فى مايو ١٩٥٦، لم يبرر ذلك بأنهم تلقوا عقوبة كافية، ولا باسم الديمقراطية. على العكس، كان حريصا على توضيح أن هذا القرار لا يعنى نهاية الثورة، أى لا يعنى عودة أى تنافس سياسى، وبالتالى لا يشكل أى تغيير فى سياسة "الاتحاد":

هذه الثورة اللى هى بتمثل هذا الشعب بتعتقد أن الشعب... لن يضلل كما ضلل فى الماضى... الثورة حينما تتصرف هذا التصرف [:الإفراج عن المعتقلين] بتعتقد أن أهدافها استقرت فى قلب كل مواطن... وإن الشعب فعلا **زى ما كنا عاوزينه** [:كما أردناه أن يكون] فى أول الثورة، إنه يجتمع فى **كتل متراصة** وراء هذه الأهداف ليتبع الطليعة ويحقق هذه الأهداف... هذا قد تحقق.

والجديد هنا هو إحلال مفهوم الزعامة محل الوصاية الصريحة. فقد نجح الضباط فى رأى عبد الناصر فى "تربية" الشعب، ولكنه مع ذلك لن يتسلم "الأمانة"، بل سيسير

"بإرادته"، معبأ فى "كتل متراصة" خلف الضباط بعد أن تمثل رؤيتهم، تحت شعار "الاتحاد". وعلى هذا النحو ستكون "الديمقراطية السليمة"، التى أعلن عنها عبد الناصر فى المؤتمر التعاونى الثانى عام ١٩٥٦؛ فنظام الحكم بعد فترة الانتقال (١٩٥٣- ١٩٥٦) سيتميز بأن "الحرية السياسية [ستكون] لصالح الجماعة... الحرية لن تكون للانتهازية ولا للرجعية ولا الاستعمار ولا لأعوان الاستعمار ولا للمستغلين ولا للمستبدين ولا للمحتكرين، ولكن ستكون هناك **حرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب**".

والفكرة الأساسية التى يركز عليها الشعار المقفى هى أن "الاتحاد" ليس اتحادا عاما بين كل المصريين، وإنما يقوم على تقسيم السكان إلى "شعب" يمثله الضباط، و"أعداء شعب" يقمعهم الضباط باسم الشعب ومن أجله. وبهذا يتكشف مفهوم "الاتحاد" عن كونه سياسة موجهة لعزل نخب معينة معادية للنخبة الحاكمة. فالمسألة لا صلة لها هنا فى الحقيقة بما يسمى "الشعب"، إلا بقدر ما تعنى عزل أفراد هذا الشعب عن التأثر بـ"أعدائه"، أو ببساطة بأعداء الضباط. بما يعنى خلق جو سياسى وإيديولوجى "معقم" يعيش فيه هذا الشعب بعيدا

عن كل محاولات "خداعه"، ولكن باسم الديمقراطية هذه المرة. ولم يكن احتكار مؤسسات "هيئة التحرير" و"الاتحاد القومى" و"الاتحاد الاشتراكى" للنشاط الجماهيرى سوى تطبيق لسياسة خلق هذا الشعب الموحد المعقم مما هو سياسى على إطلاقه.

وكان التحكم فى المرشحين لانتخابات البرلمانات فى هذا العصر، بالشطب والعزل السياسى، إعمالا لنفس المبدأ. فعلى لسان وزير الأشغال:

إن الدستور [دستور ١٩٥٦] أراد أيضا أن يجنبك [:المواطن] شر نفسك... بأن خلق لك الاتحاد القومى الذى سيجنبك الضعف بأن يخلى الطريق أمامك من جميع الانتهازيين والمخادعين [بشطب المرشحين]. لقد كفل لك الدستور أيها المواطن جميع الضمانات التى تكفل لك أن تحسن اختيار ممثليك.

فالنظام يملك وفقا لأسسه أن يعلن صراحة أنه يحق له أن يقتاد "المواطن" اقتيادا إلى "حسن السلوك الانتخابى"، بحجة حمايته من الخداع، ولا يملك أحد التعقيب. فـ"الزعامة" تحل محل التربية، ولكن كمرحلة أعلى تحتويها فى جوفها.. ومن

هنا سنجد عبد الناصر يقول بعدما تشكل برلمان ١٩٥٧ الذى شطب أغلبية مرشحيه "إن أهم تبعاتنا" (أى هو ومجلس الأمة) هى "أن نصنع فى هذه البقعة شعبا حيا يقظا مدركا، **وأفراد البشر هم المادة الخام**".

* * *

وقد أدى هذا التوجه بمجمله إلى تصوير انقلاب يوليو فى النهاية كثورة باسم الشعب، أو حتى ثورة الشعب مباشرة. وهكذا أُجريت فور انتصار الضباط فى مارس ١٩٥٤ مراسم نقل السلطة إلى الشعب، أو "تسليم الثورة للشعب". فأعلن عبد الناصر أنه "من هذا اليوم انتقلت ملكية الثورة من الجيش إلى المواطنين جميعا، ولم تعد ثورة الجيش أو الضباط الأحرار، بل إنها الآن ثورة الشعب كله...". وقد سهل شطب المجال السياسى بإلغاء الأحزاب والرقابة على الصحف والأحكام العرفية الدائمة والإجراءات والقوانين الاستثنائية، وسيادة أجهزة الأمن وما فرضته من رعب قبل ذلك كله، افتراض ولاء الشعب للنظام الجديد وفرضه فرضا واقعيا.

وقد أقيمت مراسم مسرحية تمثل هذا النقل الافتراضى للسلطة إلى الشعب فى مناسبة "العيد الثانى للثورة"؛ حيث أقام

الجيش احتفالا تحركت فيه مواكب الشعلة "من القيادة العامة للقوات المسلحة لتلتقى بالشعب فى ميدان الجمهورية"، وعلق مندوب الأهرام موضحا المغزى: "هذا هو المعنى الذى أرادته الثورة [:الضباط] **أن يستقر فى أذهان الشعب** أمس، ليعرف أن هذه الثورة ثورته... فقد غدت مصر **أمة واحدة، بل جيشا واحدا. كله يسير فى ركب الثورة**". على هذا النحو "تسلم" الشعب، بصفته جمهرة محتشدة فى مهرجان، "سلطة" كرنفالية، بغير أى مؤسسات، فلم يوجد آنذاك ولو برلمان صورى. فأصبح هذا الشعب المنحل إلى عناصره الأولية، أى إلى أفراد تقتادهم أجهزة الدولة للتجمهر بوسائل شتى، هو المفهوم الواقعى للشعب، أو **الشعب الجديد** الذى تربيه السلطة.

وكان من الطبيعى أن يتجسد اتحاد هذا الشعب المجرد (من خواصه وتبايناته بالمعنى الفلسفى، ومن السلطة بالمعنى السياسى) بالسلطة من خلال كلمة لا تقل تجريدا: "**الثورة**". فكما هو معروف، أُطلق فى البداية على حركة الجيش مساء ٢٢ يوليو اسم "حركة الجيش"، ثم "الحركة المباركة"، وخلال أسابيع استقر العرف على تسميتها ثورة، وأطلق منظمو

الحركة على أنفسهم مسمى "مجلس قيادة الثورة". وأصبحت كلمة الثورة الكلمة الأكثر استخداما فى الإشارة إلى سلطة قادة الضباط الأحرار، خصوصا مع تزايد الطابع المدنى للسلطة، واتجاهها أكثر فأكثر إلى تصوير نفسها كسلطة شعبية.

غير أن الكلمة أصبحت تدريجيا تستخدم فى تحقيق نوع من الدمج الإيديولوجى بين الشعب والجيش، باعتبار استخدامها من جهة كعنوان لكيان متخيل أعلى ينتمى إليه الشعب والضباط كلاهما، ومن جهة أخرى كقناع لسلطة الضباط.

فـ"الثورة" كعنوان جامع مجرد متخيل تعنى إقامة كيان علوى غير ملموس، هو "الثورة"، يستخدم بدوره كمصدر مستقل متعال ورفيع تنبثق منه سلطة الضباط، الذين يصبحون بالتالى مجرد "رجال الثورة"؛ أداة لها. كما ينتمى له الشعب باعتبار أن الثورة كما مر بنا هى "ثورته". وقد أفضى ذلك إلى تصوير الضباط فى صورة أداة استخدمها الشعب، وأصبحت مشروعيتهم تشتق من التزامهم الأخلاقى بـ"الثورة"، التى تعنى نظام الحكم الجديد.. وبعبارة أخرى

فإنه بقدر ما يلتزم الضباط بسياستهم التى أطلقوا عليها "الثورة"، يكونون قد أثبتوا أنهم يمثلون الشعب الموحد، نظرا لأنه قد افتُرض أصلا أن مصلحة الشعب إنما تتجسد فى "ثورته". وهكذا أصبحت كلمات الثورة والشعب متساوية تقريبا، ومن خلال هذا التساوى تم إدخال الضباط، أو "الجيش"، بسلاسة فى نسيج الشعب.

ولكن إذا كان الجيش هو جيش الشعب، وإذا كانت الثورة وكل قراراتها وتحولاتها مجرد تحقيق لهواجس دارت فى ضمير الشعب، فإن هذا كله لا يفسر تولى هذا القطاع بالذات من قطاعات الشعب السلطة، فى حين أن المفترض أن الجيوش لا تحكم إلا تحت مسمى ديكتاتورية عسكرية مكروهة. وقد جرت العادة على الإشارة للضباط الأحرار بصفة الطليعة، أو طليعة الشعب، أو قيادته الثورية، اتباعا لما جاء على لسان الضباط الأحرار أنفسهم فى خطبهم وفى الميثاق، كما سنرى، غير أن المسألة تطلبت تفسيرا أو اعتذارا عن توليهم هذا الدور.

وقد تولى هذه المهمة بصفة أساسية، ولكن مع آخرين، هيكل. ففى مجموعة مقالات "**أزمة المثقفين**"، التى نشرت

عام ١٩٦١ فى "الأهرام"، أدان كل التنظيمات السياسية، المنتمية للنظام القديم أو المعارضة له، ومجموع المثقفين، لينتهى إلى تصوير كل النشاط السياسى السابق على حركة الضباط الأحرار كمحصلة صفرية، أو "فراغ هائل كبير... كان بنفسه هو الذى دعا الطليعة من ضباط الجيش الذين تحركوا ليلة ٢٣ يوليو إلى حركتهم". فالفراغ الذى "نادى" الضباط الأحرار بشكل ما أنتجه المثقفون (والمقصود المتعلمون عموما، أو الأفندية) بمختلف حركاتهم السياسية. وبناء على هذه الإدانة توصل إلى أن "مجرد خروج طليعة من داخل صفوف الجيش ودخولهم إلى ميدان العمل الوطنى السياسى الذى لم يؤهلوا له بالطبيعة، وأكثر من ذلك استجابة الجماهير لهم... دليل على الفراغ الكامل الذى كان يملأ ميدان العمل الوطنى قبل الثورة. إن الجيوش ليست بالطبيعة طليعة الثورات".

كان التحدى الذى طرحه هيكل أكبر من أن يرد عليه أحد. فهو قد مس نقطة لا تقال إلا همسا، وهى أن ثمة منطق فى رفض الحكم العسكرى. ومن جهة أخرى فقد أطلق اتهاما لا رد جذرى عليه سوى النقد المباشر لأسس حكم الضباط،

وهو موقف غير ممكن أصلا، فقد ظلت كلمات السلطة ورجالها محتمية فى التحليل الأخير بالمدفع. غير أن ما يعنينا هنا هو أن الدفاع الأقوى عن وضع الضباط السياسى لم يجد مناصا من تقرير أنهم أبناء ظرف مؤقت، وأن استيلائهم على السلطة لا يبرره إلا تصوير البلاد فى حالة إفلاس مطلق. ومن هنا كانت فكرة الخراب الكامل والإدانة المطلقة لما قبل يوليو ١٩٥٢، شرطا إيديولوجيا من شروط سلطة الضباط. ففى ذلك الزمن لم تكن قد ظهرت بعد أجيال تعتبر ثورة ١٩٥٢ بديهية، ولا تتصور أصلا نظاما مختلفا من نظم الحكم.

أما من حيث أن فكرة "الثورة" قناع لسلطة الضباط، أو اسم كودى لها، فسنجد فى مئات النصوص فى الخطب والصحف والكتب الصادرة آنذاك تعبيرات من قبيل أن الثورة قد رفضت كذا أو أنجزت كذا، أو ستواجه أو ستؤيد.... الخ. وبهذا أصبح مصطلح "الثورة" يشير إلى شخص يريد ويقبل ويرفض ويفعل ويمتنع عن الفعل، أى تُنسب إليه أفعال الضباط المحتكرين للسلطة.

وبهذه الفكرة أتيح تصوير سياسات الضباط، بل أسس حكمهم كأمان وآمال جالت فى خاطر الشعب. وهكذا قرر عبد الناصر أن الشعب "كان ينادى دائما بالوحدة: وحدة الشعب [كذا]... كان ينادى دائما بالقضاء على الأحزاب..." (١٩٥٥)، وكان يتخذ بذاته ما اتخذه الضباط من قرارات: "أنتم هو الشعب.. أنتم الذين حميتم هذه الجمهورية على مر الأيام.. وطردتم قوات الاحتلال... وحققتم الحرية وصممتم على أن تكون سياستكم سياسة وطنية تنبع من ضميركم ومن إرادتكم... وناديتم بسياسة الحياد وعدم الانحياز، وقلتم دائما إننا نسالم من يسالمنا ونعادى من يعادينا، وإننا نتآزر مع الأمة العربية" (١٩٥٩). وبسلاسة مطلقة يحل الحكام والشعب محل بعضهما فى اتخاذ القرارات والتفكير فيها وتحديد منطقها. ففى قول عبد الناصر: "أنا مش باقول إن جمال عبد الناصر اللى لن يسمح، باقول إن هذا الشعب لن يسمح أن تكون السياسة حرفة أو تكون النيابة [:عضوية المجالس النيابية] لم [:جمع] مال ولم فلوس واستغلال نفوذ" (١٩٥٥). وحين أفرج الضباط عن المعتقلين السياسيين أعلن: "نحن ننسى الماضى... إحنا كشعب [شعب] كريم...

ولكن سنحاسب على المستقبل... الشعب هو اللى يحاسب حساب عسير، حساب مرير... هو [:الشعب] اللى لن يغفر فى المستقبل، لن نغفر فى المستقبل أبدا أى خيانة... [إحنا] أفرجنا عنهم بطبيعة هذا الشعب، أفرج [:الشعب] عنهم" (١٩٥٦). فالفاعل ينتقل من جملة لأخرى بحرية تامة بين الشعب و"نحن"، التى هى سلطة الضباط، فهما فى الإيديولوجيا نفس الشىء، ومن هنا أفرجا معا عن المعتقلين.

ولما كان كل ما فعله الضباط منسوبا للشعب، يكون من الطبيعى أن تُعلَن الدساتير باسم الشعب، برغم أنها كانت توضع فى غرف مغلقة، بغير أن يعرف الناس حتى أسماء المشاركين فى صياغتها. والمنطق الإيديولوجى الباطن هنا هو أن الضباط إنما يعبرون عفو الخاطر عما يمليه الشعب.

وتصل هذه العملية الإيديولوجية إلى ذروتها بنسبة ثورة يوليو بأكملها إلى الشعب، أصلا وابتداء. فبعد مواكب التأييد التى قابلها عبد الناصر فى رحلته فى الصعيد عام ١٩٥٥، قال إن "الثورة التى قامت فى ٢٣ يوليو... كانت تمثلكم... فإن... أهداف الثورة... وضعت قبل ٢٣ يوليو، وضعت بواسطتكم أنتم". ولذا فإن المصريين أجمعوا على الثورة

"حين قامت، بل أجمعوا عليها قبل أن تقوم"، فكأنها تحصيل حاصل مترتب على محض واقعة وجود الشعب المصرى. ومع التأميمات أصبحت الثورة ثورة الشعب: "لم تكن... الطلائع الثائرة فى ليلة ٢٣ يوليو إلا تلبية لنداء شعبى... ولم تكن الثورة فى حقيقتها إلا محاولة شعبية مستميتة استجمعت فيها الجماهير التى أبت أن تُغلب على أمرها... ولم تكن طلائع جيش تلك التى صنعت الثورة وإنما كانت جحافل شعب يريد أن يضع حياته على أساس جديد من الحرية الكاملة"، وبهذا أصبح الضباط فى هذا المنطق مجرد واجهة لإرادة الشعب وأفعاله و"استجماعه لقواه".

ويمتلئ الميثاق بالصياغات التى تنسب سياسات الضباط وقراراتهم الكبرى للشعب. فهو يقرر من أول صفحة أن الشعب هو الذى "بدأ تجربة ثورية" فى ٢٣ يوليو، حيث رفع "رأسه بالإيمان والعزة ومضى فى طريق الثورة مصمما... عاقدا العزم فى غير تردد على إحراز النصر"، و"بدأ زحفه الثورى من غير تنظيم سياسى"[!]، ربما على أساس أن كل تنظيم سياسى قائم آنذاك كان تنظيما "لأعداء الشعب". و"استطاع فى حقبة قصيرة من الزمان أن يقهر جميع أعداء

ثوراته المتعددة، وأن يخرج بقوة اندفاع متزايدة إلى مرحلة الانطلاق نحو التقدم". وهو الذى عزل عن صفوفه "كل الذين ترتبط مع الاستعمار مصالحهم فى مواصلة الاستغلال". وأيضا "رفض ديكتاتورية أى طبقة من الطبقات، وصمم على أن يكون تذويب الفوارق هو طريقه إلى الديمقراطية الكاملة..." (ويبدو أن الطبقات هنا ليست من الشعب). وقد نفذت القوات المسلحة الثورة، ولكنها "لم تكن هى صانعة الثورة، وإنما كانت أداة شعبية لها". والشعب هو الذى استجمع كل قواه "فى مواجهة حاسمة مع الرجعية استطاع فيها أن يقتحم عليها جميع مواقعها المنيعة". وهو أيضا الذى وضع أمام نفسه مهمة "مضاعفة الدخل القومى مرة على الأقل كل عشر سنوات". وأخيرا فإن "شعبنا" (ولم يحدد النص صاحب ضمير الملكية) هو الذى "ساهم بكل إخلاص فى أعمال مؤتمر باندونج"، و"شارك فى أعمال الأمم المتحدة". وكان عبد الناصر وحده هو الذى اشترك ممثلا للنظام فى هذه المؤتمرات.

وبناء على ذلك يمحى الضباط إيديولوجيا أمام الشعب، وتبرز مقولة "الشعب المعلم". ويقرر الميثاق بأوضح عبارة طبيعة تلك الصلة السحرية بين الشعب والضباط:

إن الشعب العظيم ... الذى **دفع بالطلائع الثورية** من أبنائه داخل الجيش وخارجه إلى التصدى لمسئولية العمل الثورى... مضى بعد ذلك فى تعميق نضاله، وفى توسيع مضمونه.. لقد كان هذا الشعب العظيم هو المعلم الأكبر الذى تحمل على عاتقه- فى أعقاب بدء العمل الثورى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢- عمليتين تاريخيتين لهما آثارهما الضخمة.

إن هذا **الشعب المعلم** راح أولاً يطور المبادئ الستة، ويحركها بالتجربة والممارسة، وبالتفاعل الحى مع التاريخ القومى؛ تأثراً به وتأثيراً فيه، نحو برنامج تفصيلى يفتح طريق الثورة إلى أهدافها اللا متناهية، ثم إن هذا الشعب المعلم راح ثانياً **يلقن طلائعه الثورية أسرار آماله الكبرى، ويربطها دائماً بهذه الآمال**، ويوسع دائرتها بأن يمنحها مع كل يوم عناصر جديدة...

وهكذا تئول الصلة بين السلطة و"الشعب" المفتت إلى أفراد إلى نوع خاص من إيديولوجية **الحكم بالحق الإلهى**. فالشعب يلعب هنا دور مصدر خفى أعلى للسلطة، فينزل الوحى على طليعته من الضباط، ويرعى ويصون ويسدد خطاهم. وهى صلة من نمط سحرى أو لاهوتى لا يمكن فهمها ولا إثباتها، ولا مراقبتها ولا التدخل فيها، لأنها صلة خفية، تتلقى فيها الطليعة بطريقة غامضة **أسرار** آمال الشعب على حد تعبير الميثاق. كان المتاح إما الإيمان بها، أو الكفر، علما بأن ثمة حد للاردة على السلطة.

أما وجه الاختلاف عن الحكم بالحق الإلهى فيتمثل فى أن المحكوم هو ذاته مصدر الوحى. وكأن الشعب يتعرف على نفسه ويحقق مصلحته من خلال تلك العلاقة الخاصة بالضباط. فليس ثمة هنا علاقة خطية: الإله => العاهل => الشعب. وإنما علاقة دائرية: الشعب => الطليعة العسكرية => الشعب. فى الحالتين تهدف الصيغة إلى إضفاء المشروعية على سلطة الوسيط، فى نفس الوقت الذى تصوره فيه كأداة؛ وبالتالى تخفى الطابع المادى الملموس للسلطة بتغييبه داخل مصدر غير ملموس. غير أن الصيغة الثانية

التى تمثل ذروة إيديولوجية "حكم الشعب" تتميز بأن الوسيط يطرح كأداة ضرورية بين الشعب ونفسه، من خلالها يتحقق الشعب كشعب؛ فبها يتعرف على نفسه ويحل مشكلاته، ويحقق مجده، وبغيرها يغرق فى الخمول والفساد والظلم. فالشعب هو الإله الأصلى، ولكنه لا يلد نفسه، ليصبح إلها فعالا، وفقا لأرسطو، إلا فى حضور القابلة، التى هى "الضباط". وسوف نرى لاحقا أن هذا التصور للأمور قد أُضفى بحذافيره على شخص عبد الناصر بمفرده، ليصبح هو التجسيد النهائى للشعب والثورة، التى تتضمن الجيش.

وبناء على هذا الوضع نصل إلى هذه النتيجة الحتمية: الدمج المطلق بين الثورة (التى هى حكم الضباط) وبين الشعب. وقد ظهرت هذه النتيجة الإيديولوجية مبكرا، فى يوليو ١٩٥٥، مع اقتراب فترة الانتقال المعلنة من نهايتها (كان مفترضا أن تنتهى فى يناير ١٩٥٦): "ليست الثورة إلا الشعب.. **وليس الشعب إلا الثورة**". ونصل إلى النتيجة المنطقية الأخطر التالية: "إن الثورة باقية ما بقى هذا الشعب، وإن **الشعب باق ما بقيت هذه الثورة**. فإذا قلنا أو تخيلنا أن هذه الثورة قد انتهت فمعنى هذا أن أهداف هذه الثورة قد

انتهت، ومعنى هذا أن هذا **الشعب قد انتهى**" (١٩٥٥). فالاختيار بين نظام الضباط وأى نظام سياسى آخر هو اختيار بين الحياة والموت، أو بعبارة أوضح لا توجد اختيارات. ليست المسألة أن الثورة "تعبر" عن الشعب، وإنما هى نمط وجوده الوحيد المتاح له.

وهكذا اعتُبر أن مصر قد ولدت، أو على الأقل ولدت مجددا، مع ثورة يوليو. فكتب صحفى بـ"الأخبار" أن الاحتفال بعيد الثورة هو احتفال "بالعيد الثالث عشر لوجودنا وميلادنا كدولة وكشعب. فنحن لم نعرف الحياة والوجود إلا بعد أن دخلنا الدنيا من أبواب الثورة" (١٩٦٥). وفى ضوء ما سبق فإن المسألة هنا ليست مجرد دعاية أو نفاقا، وإنما هى النتيجة التى تترتب على واقع هذه السلطة وطبيعتها.

لنتعرف على طبيعة هذا "الميلاد الجديد". كان الشعب المرغوب فيه شعبا مفتتا إلى عناصره الأولى يسير أفراده ومؤسساته الواقعة تحت هيمنة الضباط المطلقة وراءهم كرجل واحد، تماما كما فى الاستعراضات العسكرية. وقد أُطلق على هذا الحلم الذى حققه الضباط مسمى "**الزحف المقدس**" منذ ١٩٥٣. ففى "فلسفة الثورة" كان مبرر استمرار الضباط فى السلطة هو غياب هذا الزحف: "كنت أتصور أن دورنا هذا [:الانقلاب] لا

يستغرق أكثر من بضع ساعات، ويأتى بعدها **الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة** إلى الهدف الكبير". ولكن هذا لم يتحقق فى تقدير عبد الناصر. ولكنه تحقق مع الاستفتاء عليه رئيسا للجمهورية عام ١٩٥٦، بنسبة ٩٩,٩%، فالنتيجة تعنى بالنسبة له "أن الشعب المصرى يسير كتلة واحدة متماسكة... [و]أن **الزحف المقدس قد بدأ فعلا**".

كان الأفراد المنتظمون فى "زحف مقدس"، وبالتالى الذين لا يرتبطون ببعضهم البعض إلا من خلال صوت القائد وهو يأمرهم بالزحف.. كان ذلك المفهوم العسكرى للشعب حلم الضباط ومشروعهم السياسى. ولتحقيقه كان عليهم تفكيك أية تجمعات سياسية، وإخضاع كل التجمعات الاجتماعية لقبضتهم، من جمعيات ونقابات عمالية ومهنية وأندية وغيرها، ثم الإقناع بهذه الرؤية الاستبدادية كمثل أعلى عبر أدوات دعاية كانت تزداد إلحاحا وانتشارا. وأصبح أمام السكان المنحلين إلى ذرات مفردة منطق واحد للسلطة، إما أن يرفضوه سرا، أو داخل جماعة أصدقاء موثوق بهم، وإما أن يقبلوه. وقد عملت سياسات التعبئة على أن يقبلوه، ولو إلى حد ما، وهو ما سنتابعه الآن.

التعبئة

ترتب على القضاء على الأحزاب السياسية، العلنية والسرية، نشوء ما أطلق عليه الضباط "**الفراغ السياسى**"، قاصدين به غياب أية آليات تسمح بمشاركة قطاعات أوسع من السكان فى إدارة أمور البلاد تحت إشرافهم. ومن هنا كانت محاولات إقامة هيئات "سياسية" تحت سيطرتهم، بدأت بـ"هيئة التحرير"، وانتهت بـ"الاتحاد الاشتراكى". وحاول السادات أن يوضح المقصود بهذا المصطلح، فقال إنه "لم يكن فى البلاد [فى فترة الانتقال] أحزاب ولا هيئات يمكن للشعب من خلالها أن يمارس أى نشاط سياسى" (١٩٥٨). وكان المطلوب فى قول عبد الناصر هو إيجاد وسيلة لهذه الممارسة السياسية فى إطار "الزحف المقدس"، فاشترط أن تكون لـ"تدعيم الثورة... عايزين ناس منكم يتولوا القيادات، عايزين نحس إن مافيش فراغ على المستويات المختلفة بين القيادة [:الضباط] والشعب... وكل ما تزيد القيادات... نكون دعمنا هذه الثورة" (١٩٥٧). فكان المطروح منذ البداية سد الفراغ المذكور بإلحاق الناس كأفراد بجهاز سياسى مدنى ملحق بسلطة الضباط يعمل من أجل تعميق تغلغلها فى

المجتمع. وبمناسبة اقتراب فترة الانتقال من نهايتها أجمل عبد الناصر منطق المسألة كالآتى (١٩٥٥):

النهارده تبدأ مرحلة جديدة... فى **بناء هذا الشعب**... مش ممكن أبدا نجيب عشرة ونقول لهم يباشروا أمور هذا الشعب، وكل الشعب دا مالوش دعوة... لأن النتيجة الحتمية لهذا أن يتجه هذا الشعب إلى السلبية... هذا الشعب... لا أعوان الاستعمار من دعاة الحزبية... يجب أن ينظم... ويجب أن يعمل. **يعمل من أجل إيه؟ من أجل هذه الثورة.** هذه الثورة التى هى ثورة الشعب... يجب أن نترك السلبية ونجند **تجنيد جديد** مرة أخرى **فى سبيل حماية هذه الثورة**... العملية هى عملية بناء القاعدة... الثلاث سنين دول كانوا فترة انتقال، نبدأ بقى نعبئ هذا الشعب، **نبدأ فى تجنيد هذا الشعب**... نبدأ نِظهر قيادات جديدة.

فالمجتمع، مثل الطبيعة، يكره الفراغ.. السياسى، وبهذا المنطق فإن إتاحة منافذ ما لنخبة من الأفراد، تصبح تابعة للضباط وتحت سلطتهم مسألة جوهرية للقضاء على عزلة السلطة، وبالتالى **تأمينها**. ففى ظل حكم زمرة قليلة العدد على أساس من تصفية الحياة السياسية، كانت السياسة مكافئة

للأمن. وبالتالى فـ"ملء الفراغ السياسى" يهدف أساسا لرد إمكانيات التسيس المضاد الكامنة.

وقد حفلت الفترة بالعديد من الاحتفالات والاستعراضات المدنية والعسكرية والشبابية، واصطفاف الناس فى مؤتمرات وسرادقات حاشدة، وفى استقبال وتوديع الرئيس وضيوفه. وبصفة عامة يمكن أن تعتبر هذه السرادقات والاحتفالات والمواكب وبرقيات التأييد والاستقبالات الحاشدة، أداة "ملء الفراغ السياسى" المباشرة، بإخراج مشاهد مرئية للولاء، تسحر الجمهور الذى تم جمعه ليتفرج و"يشارك"، بغير أن تكون له أية قدرة على الفعل المستقل، ويكون لها أثرها العام وحجيتها القائمة على الرؤية المباشرة. وتشكل هذه الحشود جميعا جانبا من جوانب السيطرة على المشهد الإيديولوجى، خاصة فى غيبة أى استعراض أو مؤتمر خارج قبضة السلطة.

وقد اتبع الضباط وسائل كثيرة لسد الفراغ السياسى بهذا المعنى الأمنى. يمكن تقسيمها إلى سد الفراغ المباشر الذى أشرنا إليه، والسيطرة على وسائل الإنتاج الإيديولوجى من ثقافة وإعلام وصحافة ومؤسسات التعليم، وأخيرا التنظيمات

"السياسية" التى أقاموها: "هيئة التحرير" و"الاتحاد القومى" و"الاتحاد الاشتراكى". والموضوع يطول شرحه. وسوف نكتفى هنا بتناول حالة الصحافة كنموذج يوضح طبيعة محاولات الضباط فى تصنيع "الزحف...." وما أفضت إليه.

* * *

بينما سيطر الضباط سيطرة كاملة على وسائل الإعلام الجماهيرية منذ اللحظة الأولى، اتخذت سيطرتهم على الصحافة أشكالا متغيرة. وكانت الرقابة أول هذه الأشكال، غير أنها كانت رقابة مركبة.. فبالإضافة إلى الوظيفة التقليدية، وهى منع نشر أخبار ومقالات معينة، كانت تفرض أيضا نشر ما يريده الضباط، كما كانت ترسل نسخة من المواد المحذوفة لوزارة الداخلية، الأمر الذى كان مصدر إرهاب للصحفيين، خاصة فى ظل تعطيل القوانين بموجب الأحكام العرفية وتحرر سلطة الضباط فى الاعتقال وإنشاء المحاكم الاستثنائية من أى قانون.

وكان عام ١٩٥٤ حاسما فى تقرير مصير الصحافة، فقد طوردت الصحف والمجلات المختلفة حتى تم إغلاقها بالعشرات فى ذلك العام، ولم يبق من الصحف اليومية سوى

الأخبار الموالية، والأهرام المحافظة، والجمهورية المملوكة للضباط أنفسهم، وحفنة من المجلات الأسبوعية الموالية أو التى أُجبرت على الولاء. وقد أصدرت سلطة الضباط بيانا بعد أزمة مارس أدانت فيه ٢٣ صحفيا و١٥ جريدة ومجلة بالحصول على مصروفات سرية فى "العهد البائد"، ولكنها لم تحلهم إلى محكمة، بل ولم يتخذ أى إجراء ضد الصحف أو الصحفيين، ولم يمنعوا من الكتابة، مما يبين أن الغرض كان محصورا فى التشهير العام بالصحافة وتبرير اتخاذ إجراء ضد النقابة التى اتخذت موقفا جذريا ضد حكمهم فى أزمة مارس، فتم حل مجلس النقابة بحجة أن سبعة ممن وردت أسماءهم فى الكشف المذكور أعضاء فيه وتعيين لجنة لإدارتها، وفيما بعد عين صلاح سالم الذى أصدر البيان (وأحد أعضاء مجلس قيادة الثورة) نقيبا للصحفيين.

وبعد عام من الحل صدر قانون نقابة الصحفيين الذى أحكم قبضة السلطة على الصحافة، حيث حولها إلى جهاز مهنى بحت، وحظر عليها القيام بأى دور سياسى، وأخضعها لإشراف وزارة "الإرشاد القومى" – والاسم دال بحد ذاته – المستجدة عام ١٩٥٣(الإعلام والثقافة حاليا) فى ممارسة

كثير مما تبقى من صلاحياتها المهنية، ومنح الوزير فوق ذلك سلطة حل مجلس النقابة فى أى وقت. وحظر القانون ممارسة مهنة الصحافة على غير أعضاء النقابة، واستبعد فى نفس الوقت ملاك الصحف من عضويتها، وأبقى لهم حق ممارسة المهنة بصفة مؤقتة، فأصبح رزق الصحفى مرهونا بالكامل بإرادة النظام، بنفس القدر الذى كفلت فيه الرقابة إخضاع سياسة النشر بالكامل لرؤاهم ومصالحهم.

وقد لعب هيكل دور مخلب القط فى تقليم أظافر الصحافة، فقد بادر فى أبريل ١٩٥٣ باتهام الصحفيين بأنهم يطلبون حرية الصحافة الكاملة، أى رفع الرقابة، لكى يحصلوا على المصروفات السرية من الحكومات المهتمة بشراء ولائهم، وقرر أنه لا يجد فى الصحف، إلا نادرا، سوى "الأكاذيب والنفاق والضعف"، وحتى الشجاعة ليست سوى "اصطناع المجد الرخيص واحتراف البطولات الكاذبة". وانتهى من هذه الإهانة المطلقة والكاملة للصحافة إلى المطالبة برقابة على مالية الصحف، دون أن يحدد جهة توكل إليها هذه الرقابة. وبعد قليل نشرت "روز اليوسف" مقالين فى عدد واحد، أولهما خطاب مفتوح من السيدة روز اليوسف

إلى جمال عبد الناصر يطالب برفع القيود عن حرية الصحافة باسم صالح الضباط أنفسهم، على أساس أنهم فى حاجة إلى الخلاف بقدر حاجتهم إلى "الاتحاد"، وحفاظا على حرية الرأى التى هى شرط لنزاهته، ومن أجل مصلحة القارئ أيضا. والثانى رد عبد الناصر، الذى يبدو من أسلوبه أنه بقلم هيكل، وفيه قرر أنه يخشى:

أن تصبح هذه الحريات كما كانت قبل ٢٣ يوليو سلعا تباع وتشترى... فقد كان للحرية سوق وكانت للأفكار تجارة... وأنا أريد أن أصون الحرية من هذا العبث، ولا يتفق ومبادئنا أن تصفق لنا الجرائد على صفحاتها لأننا أطلقنا كل الحريات ثم نذهب من وراء الصفحات فنشترى هذه الحرية... ونحن لا نريد أن يشترى الحرية غيرنا ومن يدرى فقد يكون بينهم أعداء للوطن...

وعلى هذا النحو قيل أن الطريقة المثلى لحماية الحرية هى إخضاع الصحف للوصاية الشاملة، التى تصبح مقدسة أيضا لأنها أُعلنت باسم الوطن ومصالحه. وتقرر أن الوطنية والشرف رهن بالرقابة من طرف حكام لم يخترهم أحد.. على أساس ضمنى يقول أنهم وحدهم الجديرون بالقوامة على

الوطن والأخلاق الحميدة معا.

وكان الهدف فى تلك الفترة ينحصر فى منع نقد حكم الضباط، وحرمان كل المعارضين من استخدام سلاح الصحافة، واستُخدم لذلك سلاحا الرقابة والتهديد. أما بعد إتمام **تعقيم** (وللكلمة معنيين مقصودين) الحياة السياسية فقد أصبح الهدف هو جعلها تتكلم باستمرار بلسان الضباط.

وكان الضباط قد بدأوا فى هذا المضمار بإصدار صحفهم ومجلاتهم الخاصة، فأصدروا فى سبتمبر ١٩٥٢ مجلة "التحرير"، ثم أصدروا جريدة "الجمهورية" اليومية فى نوفمبر ١٩٥٣، ثم "المساء" فى أكتوبر ١٩٥٦، و"بناء الوطن" الشهرية. غير أن هذه الصحف التى قصد بها أن تكون لسان حال الضباط بشكل مباشر أثبتت فشلها من ناحية إقبال الجمهور عليها، وظلت الجرائد والمجلات الخاصة القليلة المتبقية أكثر نجاحا، برغم محاولات عبد الناصر المتكررة لإنهاض صحفه وإبدال رؤساء تحريرها. ومن هنا ازداد اهتمام السلطة بتوجيه تلك الصحف الناجحة لتروج لسياساتها. وكانت أهم خطوة اتخذت فى هذا المقام هى تعيين هيكل، الوثيق الصلة بعبد الناصر، رئيسا لتحرير الأهرام فى

منتصف عام ١٩٥٧.

وقد بدأ التوجيه السياسى المباشر للصحف بالفعل بعد انتصار مارس ١٩٥٤ على المعارضة الديمقراطية، بعقد اجتماعات مع رؤساء تحرير الصحف لتوضيح الخط السياسى للضباط ليلتزموا به. وأوضح حسين الشافعى لكبار الصحفيين فى ندوة عن "الرسالة الاجتماعية للصحافة" (١٩٥٥) هدف تجنيد الصحافة للعمل فى تعبئة السكان: إن "مصر الثائرة اليوم لتحب من الصحافة أن تكون دائما المرآة الحقيقية لهذه الثورة بمثلها ومبادئها، **حتى تنتهى بالرأى العام إلى أن كل من يطلع على جريدة أو مجلة يجد فيها الثورة ممثلة** فى أحاديثها ومثلها وأهدافها... [وفيما مضى] رحبنا بالصحافة، ولكن كان من بينها صحف لم تقدر الظروف، وقد انتهى أمرها ولن تعود". فإما أن تصبح الصحيفة واجهة دعائية للضباط الأحرار، وإما أن "ينتهى أمرها" بدورها. وبمناسبة رفع الرقابة على الصحف بعد الاستفتاء على دستور ١٩٥٦ قال عبد الناصر "كل اللى أطلبه باسمكم [:اسم الحاضرين فى مؤتمر جماهيرى] وباسم هذا الشعب أن حرية الصحافة تستخدم فى سبيل المحافظة على السيادة، سيادة هذا

الشعب... **فى سبيل تحقيق أهداف الثورة** اللى احنا نادينا بها".

ولكن مع تزايد اهتمامات النظام الإيديولوجية، والتبلور التدريجى لسياساته، أصبح مطلوبا من الصحف أكثر من مجرد الانصياع لتعليمات الضباط. كان المطلوب أن تشارك بشكل إيجابى فى تأييد النظام، بما يدعم ويطور توجهاته الإيديولوجية.. وقد بذلت عدة محاولات لتحقيق ذلك عن طريق ربط الصحف بالاتحاد القومى، باعتباره الجهاز السياسى الجامع للضباط الأحرار، فصدر قرار جمهورى عام ١٩٥٨ يقصر حق الترشيح لعضوية النقابات المهنية، بما فيها نقابة الصحفيين، على أعضاء الاتحاد القومى، كما تقرر تكوين لجنة بالاتحاد تضم رؤساء تحرير الصحف، تكون مهمتها تحقيق "التعاون" بين الصحافة وقيادات الاتحاد القومى. وفى عيد الثورة عام ١٩٥٩ حدد عبد الناصر مطالبه فى شأن الصحافة من ناحية دورها الإيديولوجى:

الصحافة بتهمل العمل اللى الناس بيعملوه.. العامل اللى بيعمل... مهتمين جدا [:الصحف] بإخواننا العاطلين بالوراثة...احنا النهارده **عايزين الرجل اللى شايل شوال**

والرجل اللى بنى مصنع... [ولكن ما ينشر فى الصحف] شىء لا يمثل هذا المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى اللى احنا عايزين نبنيه... طبعا ممكن الكلام دا بنوقفه بالأوامر ولكن مش حنوقفه بالأوامر، لا زم يقف بالوعى.

كانت الصحف فى ظل الفقر الشامل للحياة السياسية لا تجد سوى الفضائح والجرائم والرياضة لضمان رواجها. وهكذا تم فى النهاية اللجوء للأوامر.. بتأميم الصحف، الذى أخضعها للسلطة الإدارية لعبد الناصر بشكل مباشر. لم تكن المشكلة أن ما تبقى من الصحف والمجلات يعارض النظام، فقد كان الجميع مؤيدون لكل ما يصدر عنه، وقد أبعدت السلطة بالفعل "المغضوب عليهم" من صحفيى الصحف الخاصة بالضغط. غير أن المطلوب كان تحقيق التحكم الكامل فى ملاك ورؤساء المؤسسات الصحفية، سواء بإبدالهم ووضع عناصر موالية تماما، من الضباط وغيرهم، فى المؤسسات الصحفية، أو بعصا التهديد المرفوعة على الجميع، بالقدرة على استبعادهم بقرار إدارى فى صمت فى أى وقت. فتحول ملاك الصحف، ومن حل محلهم فى إدارة الصحف من الصحفيين إلى موظفين لدى النظام، بمعنى أنه

أصبح بمقدوره أن ينقلهم من صحيفة لأخرى، أو، كما حدث فعلا، إلى مؤسسات أخرى كشركة للأسماك أو شركة باتا للأحذية بقرارات إدارية بغير حاجة إلى إعلان. وبالفعل استيقظ الناس يوم ٤ ديسمبر ١٩٦٠ ليجدوا "أخبار اليوم" و"الأخبار" وقد خلتا من أى مقال لمصطفى أو على أمين، بغير تفسير، وبغير إخطار من أى نوع، مما أحدث وقعا إرهابيا فعالا، خاصة أن مصطفى أمين كان مواليا تماما للنظام، وأسهم إسهاما كبيرا فى بناء أسطورة عبد الناصر من الناحية الإيديولوجية كما سنرى. وفى يوم تالٍ اختفى جلال الحمامصى بدوره بنفس الطريقة، ولم يحل أى ممن تم التخلص منهم إلى تحقيق قانونى أو غير قانونى.

كذلك جعل فشل صحف النظام التأميم ضرورة لتغيير ذوق القراء أنفسهم، بتوحيد الوجبة الصحفية المصروفة لهم، فلا يبقى لهم خيار.. وهو ما يتفق مع مبدأ تربية الشعب.

وقد عقد عبد الناصر جلسة مع مجالس إدارات الصحف بعد التأميم بأيام، ليبين الغرض منه. ولم يرد فى كلمته أى ذكر للديمقراطية التى كتبها هيكل فى المذكرة الإيضاحية للقانون مستعرضا مهارته فى التبرير. فكان محور الكلمة هو

نقد ما كان ينشر فى الصحف، ورغبته فى تغييره. وكان المبدأ العام الذى ذكره هو جعل الصحافة "**رسالة** أكثر منها سلعة أو تجارة":

هذا هو الموضوع الأساسى، المجتمع الذى نريد أن نعيش فيه، المجتمع الذى نريد أن نبنيه. هذا المجتمع هو بالقطع مش مجتمع القاهرة... ولا السهرات بتاع بالليل... بلادنا هى كفر البطيخ، القرية، أى قرية... اللى عاوز يكتب عن بلادنا يروح هناك... لازم نشوف مشاكلنا الحقيقية... **أنا أطلب منكم أن تعاونونا فى رسم صورة المجتمع اللى احنا عاوزين نعمله. أنتم كصحافة مجندين لخدمة البلد،** مش لخدمة ناس أبدا، **واللى مش مؤمن بالمجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى... أنا مستعد أدى له معاش ويروح يقعد فى بيته،** ولكن اللى بيشتغل لازم يكون مؤمن [به].

وقد أضاف إلى هذه القضية الأساسية أن ثمة حدودا لتناول مشاكل المجتمع الجادة، هى بالطبع السياسة العامة للضباط الأحرار: "نلاقى مقالة تقول لنا بيعوا القطاع العام... أسمى هذا الكلام إيه؟ أسميه انحراف... نناقش كل الأمور ما عدا موضوع الانحراف". وستكتفى السلطة بجعل

"المنحرف"، "يقعد فى بيته"، مستمتعا بمعاشه.

ومصداقا لهذا التحليل كان الحكم يشجع المناقشات الإيديولوجية فى الصحف منذ ما قبل التأميمات، فأُدخل أحمد بهاء الدين إلى "أخبار اليوم" كرئيس تحرير شرفى، بدءا من سبتمبر ١٩٥٩، وأصبح يكتب مقالا أسبوعيا يحتل صفحة بأكملها فى "أخبار اليوم". وفى فترة إبعاد الأخوين أمين عن الدار تم تعيين كمال رفعت مشرفا عاما على الدار، ثم عين كمال الحناوى نائبا لرئيس مجلس الإدارة، وكلاهما من الضباط الأحرار. وفى تلك الفترة أضيف عدد آخر من الكتاب الإيديولوجيين مثل مازن البندك وملحم عياش وكلوفيس مقصود، وشارك بعض المسئولين فى مناقشة طبيعة "الاشتراكية الديمقراطية التعاونية"، منهم وزير الاقتصاد حسن عباس زكى، بسلسلة مقالات عن الاشتراكية الإسلامية. وفى نفس الفترة أنشأ هيكل صفحة الرأى فى الأهرام.

يتضح من ذلك أن النظام كان يريد أن يعرض نفسه لمناقشة محدودة بحدود توجهه العام، فكان يريد على المستوى العينى نقدا لما قد يحدث من قصور فى قطاع أو

مؤسسة أو إدارة من الإدارات، يزيد من إحكام قبضته على المؤسسات التابعة له ويحد من التلاعب بسلطته التى اضطر لتفويضها للبيروقراطية، كما كان يريد تشجيع مناقشة محدودة النطاق لما هو عليه النظام وما يجب أن يكون عليه فى المستقبل. وقد سبق للسلطة أن سمحت عام ١٩٥٥ بمناقشات عن نظام الحكم بعد فترة الانتقال برغم بقاء رقابتها المباشرة على الصحف.. ولم تكن مضطرة. والأرجح أن السبب يكمن فى الرغبة فى سد الفراغ السياسى والإيديولوجى، فبنفس منطق إنشاء مجلس نيابى، لم يكن مضطرا لإنشائه، أراد النظام أن يصبح نظاما "طبيعيا"، بمعنى أن يشارك عدد متزايد من السكان فى جهوده، ويتبنون منطقه، من خلال مؤسسات تحت رقابته، وفى الحدود التى يسمح بها ولا تعيد الحياة السياسية. ولم يكن هذا ليتحقق بغير ساحة للحوار، ومجال، ولو محدود، للنقد. وكان من شأن مناقشات المثقفين لطبيعة النظام ومستقبله أن تضفى عليه قدرا من الشرعية و"الطبيعية"، وتفرض قدرا من الاحترام على دعاواه ومنطلقاته وشعاراته.

بالإضافة إلى التدخل الإدارى المباشر أقيمت رقابة تالية

على النشر فى الاتحاد الاشتراكى، كان أول من تولاها عبد الفتاح أبو الفضل (من الضباط الأحرار). وهكذا نشرت "الاشتراكى" (نشرة الاتحاد الاشتراكى الرسمية) نداء لقرائها من أمانة الرقابة والنشر جاء يطالبهم: "أكتب لنا عن كل ما تجده ضارا ببلدك فى كتاب **فنمنعه عنك**. أكتب ولا تخف... كن رقيبا على أموالك.. فالوطن وطنك...". ووفقا للنداء فإن المواطن واع، قادر على تمييز "الأفكار الضارة"، بدليل الإبلاغ عنها، ولكنه من جهة أخرى ضعيف العقل، لأن الإبلاغ يهدف إلى أن تحميه جهة أمنية بحجب هذه الأفكار عنه. فالوصاية كانت من أعمدة النظام التى لا غنى عنها.

وقد نجحت هذه الأدوات والإجراءات المتنوعة فى جعل الصحف بوقا للنظام. غير أن هذه السيطرة المحكمة بالذات، سواء من حيث التمويل أو التعيين أو الرقابة المسبقة أو التالية أو "التوجيهات"، فصلت الصحيفة والصحفى عن القارئ، حيث جعلت استمرارها، واستمرار الصحفى فى عمله، مستقلا عن رضا القارئ وذوقه، وأصبح المطلب الوحيد لمعظم الصحفيين إرضاء النظام ورجاله، أو على الأقل تجنب بطشهم. وانتقل ذلك التوجه إلى القراء أنفسهم.

فبشهادة فتحى غانم، رئيس تحرير "صباح الخير" آنذاك، والمنشورة عام ١٩٦٥ فى "روز اليوسف"، أصبحت الصحافة:

عاجزة عن مخاطبة المجتمع. ولقد لاحظت من اهتمام الفلاحين أو العمال أو الموظفين... بالنشر فى الصحافة، أنه اهتمام... يدل على الرغبة فى مخاطبة المسئولين. وكأن الصحافة ليس لها دور إلا دور موظف البريد أو التلغراف. ولقد امتد هذا الطابع على أغلب ما يكتب حتى فى التحليلات السياسية. فغالبا ما أشعر أنها ليست موجهة للقراء. وإنما كاتبها يتمنى فى قرارة نفسه أن يقرأها جمال عبد الناصر، وهو يكتبها بهذا الغرض وحده.

وهكذا لم يعد الرأى العام معنيا بأمر نفسه، ولم يعد يخاطب بعضه بعضا، وإنما أصبح يخاطب السلطة للحصول على مكاسب أو للشكوى من مشكلات إدارية أو مالية. فالصحافة على حد تعبير عبد الناصر، بعد "التطهير" وخلافه، "حرة"، ولكن "فى حدود الميثاق". وكان من الطبيعى ألا يتجه الكتاب بأقلامهم إلى الرأى العام، وإنما إلى الجهة الوحيدة التى تملك البت فيما يطرحونه من أفكار: جهاز

الدولة وعلى رأسه عبد الناصر. ومن هنا، يواصل فتحى غانم، كان:

المفكر الحقيقى الوحيد فى هذا المجتمع والذى يقود الفكر ويؤثر بفكره ويتفاعل مع الشعب هو جمال عبد الناصر... من فوق رءوس المثقفين وإعلانات الصحفيين... وإذا كان هناك شىء فى الصحافة يقدم المعلومات والمبادرة والخدمة الصحفية فهو ما يكتبه محمد حسنين هيكل.

فالأفكار ظلت من نصيب رئيس الجمهورية وشريكه وكاتبه الصحفى هيكل، والعرائض من نصيب الشعب. ولم تكن الصحافة سوى إحدى أدوات الوساطة، تنقل العرائض للسلطة، وتنقل "فكر الزعيم" للشعب. ولكنها بهذا الوضع ملأت الفراغ السياسى بشكل صورى. وفى تلك الفترة شاع مصطلح "كلام جرايد" بمعنى أنه كلام لا قيمة له ولا اعتبار، فالصحف لا تنشر إلا ما تعتبره السلطة مناسبا، سواء كان صحيحا أم زائفا، وبالتلوين الذى يناسبها.

* * *

وسواء انتقلنا إلى مجال الفن والأدب أو الإعلام، أو الثقافة عموما، أو التعليم فى المدارس والجامعات.. سنجد

نفس عناصر السياسة التى اتبعت مع الصحف. وهى أولا "تطهيرها" من كل العناصر المشكوك فى ولائها، ومن قبيل ذلك طرد حوالى ستين أستاذا من الجامعات عام ١٩٥٤. وثانيا السيطرة على مؤسسات الإنتاج الإيديولوجى القائمة، بتأميمها أو بإخضاعها إداريا، مثل الجامعات التى فقدت استقلالها آنذاك. فضلا عن إقامة مؤسسات جديدة، تنشأ فى تبعية مباشرة للضباط منذ البداية، وعلى رأسها وزارة الإرشاد القومى. وثالثا استخدام هذه السلطة الإدارية فى توجيه هذه المؤسسات لتكون فى خدمة الخط الدعائى "للثورة"، وبصفة خاصة المساهمة فى بناء إيديولوجيتها.

وترتب على هذا التوجه العام فى كل الحالات فصل أدوات الإنتاج الإيديولوجى عن المجتمع وإخضاعها للسلطة التنفيذية المركزية. فالفن والأدب يتم تمويله بقدر ما هو مرضى عنه، لا بقدر اهتمام الجمهور به، فضلا عن السيطرة المباشرة على وسائل الإعلام الجماهيرية. ولعل "ميثاق المثقفين"، الذى طرحته نشرة "الاشتراكى" عام ١٩٦٥ يلخص بأوضح صورة معظم التيمات الإيديولوجية فى توجيه الأدب والفن فى الستينيات. غير أن محاولات فرضه لم

تنجح، برغم ما أثير حوله من اهتمام وتعقيبات وندوات على مدى شهرين.

قرر الميثاق المقترح أن الثقافة "ليست ميدانا لتوظيف الأموال"، وإنما "خدمة تؤديها الدولة الاشتراكية للمواطنين نظير ما يدفعون من ضرائب"، مثلما كانت الصحافة **رسالة** فى قول عبد الناصر. والهدف منها هو "إنجاح الثورة وتدعيمها" على أساس أن "الرواية الثورية والمسرحية الثورية والفيلم الثورى تدفع الجماهير إلى المعركة وتوقظها، **وترغمها على الاتحاد**، وتلهمها أن تأخذ مصيرها بيدها". وذلك على أساس أن "الفن فى جوهره **دعوة** لشىء ما". وقال أن على الدولة الاشتراكية أن تراقب الأعمال الفنية، واقترح أن يكون معيارها فى الرقابة: "هل هو [:العمل الفنى] يخدم المصالح الشعبية؟"، على أن يكون "الموقف من الأعمال الفنية ذات المضامين المتخلفة أو الرجعية"، عرضها "على نطاق ضيق"، متنازلا عن المطالبة بحظرها، مقابل "الاحتفاء بكل عمل فنى يناصر الاشتراكية والعمل على نشره بين الناس وزيادة جمهوره".

كما "ينبغى أولا أن ننقى أعمالنا الأدبية والفنية المنشورة

أو المذاعة بكافة الوسائل الجماهيرية، من الدعوة إلى القيم البالية أو الرجعية"، ويجب، فى إطار "تربية الكوادر الفنية"، أن "تقرن التربية الفنية بالتربية السياسية فى المعاهد والكليات"، ويجب أيضا "أن نضع أعمالا تصور المجتمع الجديد". وبعد كل هذه الينبغيات تتبقى مشكلة مستوى مثل هذه الأعمال "الفنية" فى إطار هذه المحددات الإيديولوجية المسبقة، نظرا لأن انحطاط مستوى هذه الأعمال سوف يعوق قيامها بواجباتها الدعائية بانصراف الجمهور عنها. وقد اعترف الميثاق المقترح بالمشكلة وعالجها بنفس الفلسفة التى عالج بها تأميم الصحافة مشكلة انحدار مستوى جرائد النظام وعدم الإقبال عليها:

ربما بدت الأعمال التى تستند إلى هذه المبادئ [السلام، العمل، الأمل، الخ] فجة أو مفتعلة فى البداية. ولكن الإصرار على تضمين أعمالنا الفنية المختلفة هذه المبادئ، سيحل شيئا فشيئا المشاكل الفنية الخاصة بعملية التجسيد الفنى المقنع لأسلوب الحياة فى المجتمع الجديد. إن إغلاق الأبواب أمام المبادئ الضارة وفتحها أمام المبادئ المؤيدة للإنسان لا يلبث أن يجتذب لأعمالنا الفنية الجديدة مواهب خلاقة.

فالوصاية البالغة حد القمع شرط لا غنى عنه لتنفيذ هذا البرنامج. فحين يجد الفنان كل طريق آخر مغلقا، سيكيف نشاطه وفقا للمقياس المفروض. والاستكمال المنطقى لذلك هو أن الجمهور بدوره حين الوجبة المقدمة إجبارية، كما فى السجون، سوف يقنع نفسه بعد فترة بأنها لذيذة. وقد أيد العديد من كتاب الفترة البارزين هذا الاتجاه، وعلى رأسهم سامى داود وعلى الراعى ونجيب سرور وصلاح عيسى، كما مهد له سعد كامل فى أخبار اليوم.

وهكذا عمل الضباط من خلال التحكم فى وسائل الإنتاج الإيديولوجى أن يعيدوا تشكيل الشعب فى "زحف مقدس"، وهى عملية يمكن أن يقال عنها صراحة أنها مشروع لغسيل المخ الجماعى.

* * *

غير أن حشد الشعب فى "زحف...." لم يعتمد فحسب على الدعاية، برغم دورها المحورى، وإنما أيضا على سياسة اجتماعية للنظام، دارت حول فكرة "خدمة الجماهير"، وتلبية احتياجاتها. وبرغم أن حدث ٩ و١٠ يونيو لم يكن متعلقا بقضية اجتماعية أو طبقية بصفة مباشرة، وبرغم أن

شعبية عبد الناصر التى قد تفسر خروج الجماهير مطالبة ببقائه قد ارتبطت على نحو ما سنرى بصورته كبطل للاستقلال الوطنى، وخصوصا إعلان تأميم القناة وحرب ١٩٥٦، وسبقت بكثير أية إجراءات اجتماعية مهمة (حيث أتى معظمها، بدءا بتمصير المصالح الأجنبية، بعد الحرب)، فإنه يمكن القول بأن دعاية النظام الاشتراكية وإجراءاته قد لعبت دورا فى ترسيخ شعبيته ومنح سلطته مضمونا شعبيا. وقد نُسب إلى ما سمى اشتراكية النظام الفضل فى تمسك الجماهير بعبد الناصر فى ٩ و١٠ يونيو. بل وقيل أن الجماهير قد خرجت آنذاك لكى تعبر عن تمسكها بالثورة، ورفضها لثورة مضادة، لم يحدد أحد مصدرها المحتمل. فوفقا لـ"الطليعة"، المجلة التى كان يرأس تحريرها لطفى الخولى وتصدر عن الأهرام، فإن "الجماهير الشعبية":

ردت على دعاة اليأس والهزيمة وأخرست كل اتجاه للحلول الوسط وشلت **حركة الثورة المضادة المتحفزة للانقضاض على السلطة**، ووجهت للاستعمار والصهيونية لطمة قاسية، بعد أن أفسدت مخططاتها.... خرجت الجماهير تعلن بيعتها لعبد الناصر تعبيرا عن احتضانها لكل ما يمثله

المناضل عبد الناصر، وكل ما حققته قيادته الثورية من **مكاسب شعبية**.

وهكذا تم تفسير الحدث باعتباره محصلة لسياسة النظام الاجتماعية/ الاقتصادية. أى أن حشد الشعب خلف "قيادته"، بمصطلحات العصر، كان يعتمد أيضا على "**المكاسب**"، بمصطلحات العصر أيضا، والتى لخصها شعار "الاشتراكية"، المرفوع بقوة قبل صدور الميثاق.

وهنا ينبغى أن نميز بين ما قام به النظام بالفعل(*) ودعايته. كان من أهم مرتكزات دعاية الضباط القول بأنهم أقدر على الإنجاز وتلبية مصالح الجماهير. وهكذا أعلن عبد الناصر منذ البداية أن "السياسة ليست هى الكلمات البراقة والوعود الجميلة... السياسة هى العمل وهى الإنتاج وهى إقامة الخدمات لهذا الشعب" (١٩٥٦). وقد اتصل هذا المفهوم للسياسة منذ البداية بمعرفة "رغبات الشعب" المادية المباشرة، والعمل على تلبيتها، عن طريق مؤتمرات حاشدة يخطب فيها

(*) وسوف نعتمد بالنسبة للتحليل الاقتصادى والاجتماعى بصفة أساسية على عمل قيد النشر للصديق عادل العمرى بعنوان "الناصرية فى الثورة المضادة".

الضباط وأعوانهم من الوزراء المدنيين، وفيها تتم مبادلة ما يعرف بـ"المكاسب" بالتأييد، فيقدم أعضاء تنظيمات السلطة، بدءا بهيئة التحرير، عرائض وطلبات خاصة بمشكلات محلية، ليصدر الضباط ومعاونوهم قرارات بحلها "**فورا**"، ويخطبون فيهم لإقناعهم بشعارات النظام المختلفة. ومع الاتحاد الاشتراكى تبلور هذا التوجه عموما، وهذا الملمح الرئيسى الحاكم فى إيديولوجية الضباط، فى شعار: "السياسة هى معرفة مشاكل الجماهير وحلها". وقد أطلق عبد الناصر هذا الشعار عام ١٩٦٤: "القيادة هى معرفة مشاكل الجماهير". وفى صيغة أخرى: "**العمل من أجل الشعب هو السياسة**" (١٩٦٥).

وتتضح فكرة عبد الناصر من النص الآتى: "إذا أرادت الثورة أن تنجح لن نستطيع بالكلام أبدا ولا بالدعوة والفكر... لا بالكلام نستطيع أن نجدهم [أى الناس] ولا... نعبئهم. ولكن نستطيع بالعمل... إن احنا... نشوف مشاكلهم... نحل لهم مشاكلهم... إذا وجد إنك بتناضل فى سبيل حل مشاكله... تجده على طول جند ليسير معك فى الثورة ويؤمن بها" (١٩٦٦). وبهذا المنطق يمكن إنشاء كوادر وتكليفها بإقامة

علاقات جماهيرية، دون أن تظهر فى الأفق أية مناقشة سياسية تهدد النظام، اكتفاء بمناقشة كيفية "العمل من أجل الشعب". فالعقائد السياسية ليست مطروحة هنا للنقاش، فالمطروح هو شراء تحمس الناس لما يمكن أن يسمى مبادئ "الثورة"، ولاحقا "مبادئ الميثاق"، على أساس "خدمة الجماهير" كأداة للتعبئة.

ولا تقتصر المسألة على مبدأ شراء الولاء بأموال الميزانية العامة للدولة لسد "الفراغ السياسى"، وإنما تجدر الإشارة أيضا إلى الطابع الاحتفالى والدعائى الذى ميز الهيئات الجماهيرية للضباط وسرادقاتها، والذى امتد حتى إلى السرادقات التى أقيمت للدعاية للميثاق قبل إقراره، وبشأن الاستفتاء على عبد الناصر رئيسا عام ١٩٦٥. فبآليات كهذه، فضلا عن احتفالات افتتاح المصانع والمنشئات المختلفة، والكلام المبالغ فيه عن ثورة صناعية تحققت فى ظل الضباط، رسخت صورة للنظام، حتى بين أوساط المثقفين، كنظام منجز أولا، واشتراكى ثانيا، كانت بعيدة عن الواقع، غير أنها كانت تخاطب فى نفس الوقت فئات اجتماعية مستفيدة بالفعل، ليست هى الفلاح الفقير الذى تحدثت عنه

"الثورة" أكثر مما أعطته، تقبلت منح النظام وعطاياه واعتبرتها بالطبع منحا استفاد منها المجتمع ككل وفقا لإيديولوجية "تحالف قوى الشعب العامل".

فلناق نظرة على الواقع. قامت اشتراكية الضباط على فكرتى زيادة الإنتاج وعدالة التوزيع. وبالنسبة للنقطة الأولى فقد ورث الضباط اقتصادا مأزوما. فبينما نما الإنتاج الصناعى بمعدلات غير مسبوقة فى فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، وصلت إلى ذروتها عام ١٩٤٧، شهد أزمة متنامية بدءا من عام ١٩٤٩، بالعجز عن تصريف الإنتاج، مما أدى إلى تسريح نحو ١٣% من العمال. وكان الريع، من الأرض والمبانى، يصل إلى نحو ٣٠% من الناتج القومى، ويسيطر أصحابه على الحياة السياسية فى البلاد. وقد جرت دعاية الضباط على سحب معطيات فترة ١٩٤٩- ١٩٥٢ على مجمل "العهد البائد"، للقول بأن ذلك العهد قد شهد فشلا مطلقا مستمرا فى تحقيق أى نمو.

وفى البداية كانت سياسات الضباط ترمى للاعتماد على توظيف الطبقة المالكة، مع استبعاد قطاعاتها الخطرة سياسيا، لحل المشكلة الاقتصادية بتنمية صناعية. وقد اتخذوا كل

الإجراءات السياسية والاقتصادية المتاحة لطمأنة رأس المال المحلى والأجنبى، بدءا يلجم الحركة العمالية، وليس انتهاء بتوجيه أربعة أعشار استثمارات الدولة لتوفير البنية التحتية للصناعة.

غير أن هذا كله لم يؤد إلى تشجيع رأس المال على زيادة الاستثمارات بشكل فعال، خاصة فى الصناعة، كما لم يتدفق أى قدر ملموس من رأس المال الأجنبى. لذلك أخذت الدولة تزيد من استثماراتها فى الصناعة. ومع ذلك كان معدل زيادة رأس المال الدائم أقل منه فى السنوات السابقة على الانقلاب، وتدهور معدل النمو الصناعى. كانت الحصيلة العامة فى الخمسينيات نموا محدودا للدخل القومى لم يتجاوز ٤,٧% سنويا، أى ما يفوق بقليل الوضع قبل الانقلاب، وكانت مساهمة الصناعة فيه محدودة. وبالتالى لم يرتفع مستوى التشغيل كثيرا، واستمر تدهور مستوى معيشة الطبقات الأفقر. وبلغت الفوارق الطبقية فى أواخر الخمسينات هوة فاحشة مع نمو الأرباح وعدم تقدم الأجور.

أما من جانب رجال الأعمال فكانوا، برغم الأرباح العالية، يفتقرون إلى الثقة فى نظام لا يعرفون مفاتيحه،

وليست لهم قدرة على التعبير عن مصالحهم داخله، كما أن تراجع رأس المال الأجنبى عن المساهمة ثبط عزيمتهم. كذلك فإن الصناعات التى سميت ثقيلة، والتى حاول النظام دفعهم لإنشائها، لم تكن تحظى بثقتهم كمصدر للربح.

وإزاء ذلك زاد تدريجيا تدخل الدولة بالاستثمار المباشر، وتقييد حركة رأس المال الخاص من كافة النواحى. وأتى الأداء المتواضع للغاية فى الخطة الأولى (١٩٥٧- ١٩٦٠)، برغم توسع القطاع العام بتأميم المصالح الأجنبية عام ١٩٥٧، ثم فى العام الأول من الخطة الخمسية، ١٩٦٠/ ١٩٦١، ليدفع النظام لتأميم رأس المال البنكى، وجانب كبير من رأس المال الصناعى الكبير، بل والمتوسط، استُكمل فى ١٩٦٣ و١٩٦٤.

غير أن الستينيات لم تكن أفضل برغم دعاية النظام الهائلة عن افتتاح مصنع جديد كل يوم. فالخطة الخمسية نفسها كانت ارتجالية، متمحورة حول هدف موضوع **سلفا** بطريقة "ثورية"، هى مضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات. ولم توضع خطة تنفيذية واحدة بشكل مركزى، وإنما تُرك الأمر لاقتراحات القطاعات والمشروعات الإنتاجية

المختلفة. وقد أفاض الاقتصاديون فى بيان جوانب عشوائية الخطة. وأدت جهود النظام فى النهاية إلى كارثة اقتصادية، فلم يتم تحقيق معدل النمو المطلوب، أى الهدف الوحيد للخطة، فلم يتجاوز ٥,٧% سنويا. وبينما حقق قطاع الخدمات ١٣٥% من المستهدف، لم تحقق الصناعة إلا ٥٥,٥%، والزراعة ١٣,١% منه. وبلغ معدل نمو الصناعة حوالى ٩% سنويا (مقابل ١٤% سنويا فى إيران فى عهد الشاه)، بينما كان المستهدف ١٥%، بل وتزايد المخزون السلعى الراكد، وقلت درجة التنوع فى الصناعة عن مثيلتها فى الخمسينيات، لتستعيد أزمة بداية الخمسينيات ملامحها.

وبالإجمال لم تحقق الصناعة التى كانت الدولة تسيطر على كل مفاتيحها الرئيسية إنجازا أكبر مما حققته فى الثلاثينيات والأربعينيات على أيدى القطاع الخاص، هذا كله برغم تمتع النظام بريع قناة السويس، وبالمعونة الأمريكية التى بلغت إجمالا حوالى مليار دولار، وبالقروض العديدة التى حصل عليها.

وهكذا بدلا من أن تنتهى الخطة بفائض كالمستهدف، انتهت بعجز قدره ٤١٧ مليون جنيه، يرجع أساسا لعجز

الميزان التجارى، أى لإخفاق الخطة، مما اضطر الحكومة لبتر الاستيراد بشدة على حساب مستلزمات النمو الاقتصادى. وبينما كانت نسبة السكان العاملين إلى مجموع السكان عام ١٩٤٧ ٣٦%، تراجعت النسبة وقت الخطة الخمسية إلى ٣٠,١%، وواصلت التراجع بعد ذلك. ويرجع هذا بين أسباب أخرى إلى اندفاع النظام بحكم توازناته السياسية إلى تشجيع الاستهلاك الفردى والعام، فزاد الاستهلاك الفردى بنسبة ٣٤%، والعام بـ ٧٧%، فضلا عن أعباء حرب اليمن، بالإضافة إلى الإنفاق على مشاريع غير مجدية، مثل مصنع للطائرات لم يصل لمرحلة الإنتاج، وصاروخى "القاهر" و"الظافر"، اللذان كانت إمكانياتهما الفعلية أقل بعشرات المرات مما فاخرت به الدعاية، وانتشار الفساد فى القطاع العام والجهاز الإدارى.

لا يرجع فشل الخطة لمبالغتها فى الطموح، فقد حققت دول متخلفة أخرى فى نفس الفترة معدلات نمو أعلى بكثير، فى أمريكا الجنوبية والهند وشرق آسيا والصين.. أى فى دول "عميلة"، وأخرى شيوعية على السواء.. وإنما كانت المسألة أن طموح النظام البيروقراطى مطلق العنان كان

كبيرا بالنسبة لقدراته. فلم يكن النظام قادرا على التوقف عن دفع الرشاوى الاجتماعية لطبقات مختلفة، ولو على حساب أى تنمية.. ولم يكن قادرا على تصفية الرأسمالية جذريا، بل صفى قطاعها الأرقى، تاركا قطاعاتها الطفيلية والتداولية تعمل بكامل قوتها على استنزاف قطاعه الصناعى العام المعرض للنهب. ويكفى أن قطاع الإنشاءات حصل على ما بين ٤٠ و٥٠% من جملة استثمارات الخطة.

وبالإجمال أثبت تأميم الصراع الطبقى أنه أسوأ وضع ممكن لتحقيق تنمية، بينما كانت عمليات التنمية الناجحة مقترنة بانتصار حاسم وأكيد لطبقة، أو طبقات، ضد طبقة. أما سياسة النظام الاقتصادية فكانت إلى حد كبير انعكاسا لمصالحه السياسية المحدودة، التى تنحصر فى فكرة "تعبئة الشعب" عن طريق "المكاسب"، بصرف النظر عن وجود موارد كافية لها، والحفاظ على التوازن الطبقى على ما سنرى حالا. وهكذا كان فقر السياسة الاقتصادية للنظام فرعا من فقره السياسى العام، باعتباره حكم الزمرة مطلق السراح من خلال البيروقراطية.

فى النهاية اصطدمت هذه السياسة بالحائط مع انتهاء

موجة التأميمات، ووجد النظام نفسه مضطرا للتحول إلى سياسات تقشفية كان عنوانا لها وزارة زكريا محيى الدين، واضطر لرفع الأسعار وزيادة الضرائب غير المباشرة، فضلا عن تقليص الإنفاق العام.

هذا على صعيد هدف زيادة الإنتاج، التى أكد الضباط مرارا أنها الأساس الضرورى لعدالة التوزيع. ويمكن بالنسبة للأخيرة إيجاز التحولات الاجتماعية التى أجراها النظام فى الآتى:

١- القضاء على طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية ذات النفوذ السياسى (الباشوات) ثم كبار رجال الصناعة، وكثير منهم من المتمصرين، بما أدى إلى انتقال نفوذهم ومكانتهم إلى الطبقات العليا التالية فى التراتب الطبقى، وإلى المديرين الجدد الذين حلوا كسلطة عليا محل أصحاب المصانع. وهؤلاء هم من ينطبق عليهم الشعار الشهير "إرفع رأسك يا أخى" أكثر من غيرهم. غير أن ذلك قد أشاع بدرجة أو بأخرى حسا عاما بالمساواة والترقى الاجتماعى بين الفئات الوسطى، وإن لم يصل بطبيعة الحال إلى

الفئات الدنيا، التى ظلت على عجزها.

٢- دعم الملكية الزراعية الصغيرة: زاد عدد ملاك قطع الأرض التى تقل عن ٥ فدادين، بفعل توزيع الأراضى المستصلحة وإقراض الفلاح بضمان المحصول، لا الأرض، وسياسات أخرى. غير أن هذه القطعة من الأرض كانت أساسا بنيت عليه سلطة بيروقراطية الدولة كلية الجبروت فى الريف لتنافس، أو لتشارك، كبار ومتوسطى الملاك فى السيطرة على الريف. فقد طولب الفلاحون بالتوريد الإجبارى لمحاصيل معينة، وحصلوا بالمقابل على بذور منتقاة وسماد وغير ذلك، ولكن بتوسط الشرائح الأعلى من ملاك الأرض. والواقع أن الاقتسام الفعلى للسلطة بين الأجهزة البيروقراطية وكبار الملاك فى الريف، بل وتحالفهما، كان على حساب العمال الزراعيين وصغار الملاك. وكانت المحصلة ميل دخول صغار الملاك الحقيقية للانخفاض بدءا من عام ١٩٦٢. وعلى هذا دعم النظام الملكية الصغيرة، أساس كل نظام بيروقراطى مستبد، لا المالك الصغير نفسه. أى

دعم طبقة تمثل أساس الاستقرار الاجتماعى فى الريف، باعتبارها على حد تعبير كتشنر "طبقة عاجزة ومفيدة".

ولكن بالمقابل حصل الفلاحون من خلال نشر التعليم العام وقدر من الرعاية الصحية على فرص للترقى الطبقى لأبنائهم. فبقدر ما كان مد الخدمات للريف، على محدوديته، أداة لنشر نفوذ بيروقراطية الدولة، بقدر ما ساهم فى إحياء آمال الصعود الاجتماعى عند الشرائح الريفية غير المعدمة أساسا، وخلق قاعدة اجتماعية بنيت عليها إيديولوجية المكاسب المحلية التى شجعها النظام بديلا للسياسة، والتى كانت بدورها أساسا للنمط الجديد من المجالس النيابية التى يعنى نوابها بقضايا الخدمات، وينحصر دورهم فى التوسط بشأنها لدى الحكومة، وهى ذاتها "المكاسب" التى اعتبرها عبد الناصر كما رأينا أساس "النضال السياسى" فى العصر الجديد.

٣- تدهورت أحوال عمال الزراعة، ويشكلون معظم سكان الريف، بسبب انتشار الملكيات الصغيرة بالذات، لقلة طلبها على العمال. غير أن عمال

الزراعة، وعلى رأسهم عمال التراحيل، ليسوا طبقة يخشى من تهديدها. بينما تهدد مساندتها بمواجهة قاسية مع سادة الريف من كبار ومتوسطى الملاك.

٤- ارتفع عدد ملاك ما بين ٢٠ و٥٠ فدانا من ٢٢ ألفا إلى ٢٩ ألفا، وزادت ملكياتهم بمقدار الربع تقريبا، وظل من يملكون أكثر من ٢٠ فدانا يحوزون أكثر من مليون ونصف مليون فدان. وقد حصل هؤلاء على أكثر من ٨٠% من القروض التى قدمتها خزانة الدولة للمزارعين، ثم أُعفيت القروض من الفوائد عام ١٩٦١ (وقيل أن ذلك من ضمن الإجراءات الاشتراكية). واقتصر حق شراء البذور الممتازة على ملاك ١٥ فدانا فأكثر، والعلف الحكومى على ملاك ٥ رؤوس ماشية فأكثر. وفوق ذلك حصلوا عمليا على معظم الأسمدة المدعمة. ونظرا لأن مقدار المحاصيل الموردة إجباريا كان مفروضا بكمية ثابتة لكل فدان، بصرف النظر عن تركز الملكية، توفر لكبار ومتوسطى الملاك مقدار كبير من الحبوب للتجارة بها فى السوق السوداء، وخصوصا للفلاح

الصغير الذى لم يكن ما يتبقى له من مساحته الضئيلة ما يكفيه؛ فضلا عن التجارة بـ"مستحقاتهم" من العلف والبذور والأسمدة وغيرها. وهكذا يمكن القول بأن الفترة الناصرية كانت العهد الذهبى لملاك ٢٠ إلى ١٠٠ فدان، فتوفرت لهم قاعدة الانطلاق فى عهد الانفتاح التالى. وهذا لا ينفى أن الدولة كانت تكيل الضربات لبعض عائلات كبار الملاك من حين لآخر، خصوصا حين يتزايد نفوذهم "السياسى" المحلى فى منطقة ما. غير أن المسألة على نحو ما رأينا كانت أن النظام يبيع كبار الملاك علنا بينما "يشتريهم سرا".

٥- ظل القطاع الخاص قويا، فظل رسميا فقط يسيطر على ٩٥,٢٪ من الأراضى الزراعية؛ ومجمل تجارة الجملة تقريبا؛ و٢٥٪ من عمليات التصدير؛ و٩٢٪ من النقل البرى. فضلا عن مقاولات الباطن وتجارة الخردة وأعمال السمسرة وزراعة الحدائق وتربية الماشية وتجارتها، مع استمرار وجود مكاتب الاستيراد.. وغيرها. وقد ظل القطاع الخاص الكبير

يلعب دورا فعالاً فى توزيع الفائض وإنتاجه. فبلغ نصيب القطاع الخاص عموما من الدخل القومى ٦٥٪ ومن موارد الإنتاج ٦٠٪ عام ١٩٦٢-١٩٦٣. وقد دفعت الدولة القطاع الخاص دفعا نحو الأنشطة غير المنتجة، نتيجة لسياساتها "الإصلاحية".

٦- أولى النظام اهتمامه لطبقتين رئيسيتين، هما اللذان شكلا الخطورة على النظام القديم، وبالتالى الخطورة المحتملة على النظام الجديد، هما عمال المصانع والإنتليجنسيا. وكلاهما يستمد خطورته من تنظيمه وتركزه فى المدن. وبالنسبة للعمال، أقدم الضباط على تلبية قدر محدود من المطالب العمالية فى البداية، ولم تنفذ معظم الإصلاحات التشريعية التى صدرت، بما فى ذلك الحد الأدنى للأجور، فى القطاع الخاص، الذى كان يشكل معظم القطاع الصناعى فى الخمسينات، واكتفوا بتطبيقه على قطاع الدولة الذى كان ينمو بالتدريج على حساب القطاع الخاص. بل وانخفضت الأجور الفعلية لعمال الصناعة أثناء تطبيق خطة ١٩٥٧- ١٩٦٠.

ومع التأميمات طُبقت القوانين العمالية فعليا على معظم عمال الصناعة، كما تم تثبيت عدد كبير من عمال التشييد، وتقرر صرف معاشات للعمال، وتخصيص ٢٥% من الأرباح للعاملين عموما، منها ١٠% توزع نقدا. وبدأت أجور العمال تنافس أجور صغار الموظفين. وقد ارتفعت أجور العمال بين ١٩٥٢ و١٩٦٧ بمقدار ٤٠%. وبلغ الأمر أن زيادة الأجور فاقت زيادة الإنتاجية. وبرغم أن الأجور تم تجميدها عند نهاية الخطة الخمسية الفاشلة، وزيدت ساعات العمل، إلا أن ضغط العمل قل فعليا بسبب سعى النظام لامتصاص البطالة بالتوظيف بصرف النظر عن احتياجات المنشئات الفعلية. وترافق ذلك طيلة الوقت مع إحكام قبضة الأمن على التنظيمات العمالية، التى فقدت استقلالها.

٧- اهتمت الدولة بشريحة المتعلمين، وبصفة خاصة المتعلمين تعليما عاليا. فمدت المجانية إلى التعليم الجامعى، الذى شغل أبناء الفئات الوسطى (المهنيين والموظفين والكتبة) حوالى ٨٥% من مقاعده، وضمنت لهم فرص العمل فى أجهزة الدولة ولو بغير عمل حقيقى يؤدونه، بمجرد تخرجهم. وتضاعف

عدد طلبة الجامعة ٤ مرات تقريبا، بينما تضاعف عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية أقل من ٣ مرات، والثانوية أكثر من مرتين، ولم يطرأ تحسن ملموس على نسبة الأمية برغم الدعاية المكثفة بشأنها. وتدل هذه الأرقام عموما على مدى انحياز السياسات الناصرية إلى الفئات الوسطى المدينية على حساب الفلاحين والفئات الفقيرة التى قالت دعاية النظام أنها تقف فى طليعة قوى الشعب العاملة التى "تحكم"، أو على الأقل أن النظام يهدف أصلا وأساسا إلى ترقيتها و"تحريرها" من "حكم الطبقة". كما أن تدهور التعليم نفسه، بدءا من الابتدائى وحتى الجامعى يدل على أن السياسات كانت تهدف إلى استرضاء فئات اجتماعية معينة، لا تلبية أية طموحات بشأن نهضة علمية أو تعليمية حقيقية.

وهكذا انتهت البطالة تقريبا بين المتعلمين، بينما تفاقمت بين غير المتعلمين، وعانت البلاد عجزا فى العمالة الماهرة. ومالت الصناعة إلى توفير السلع المعمرة التى أقبلت عليها الفئات الوسطى، فزاد استهلاكها أثناء الخطة الخمسية بين

١١٥% للبوتاجازات و١١٤٠% للسخانات، بينما زاد استهلاك السلع الأساسية المختلفة ما بين ١٤% و٤١% فقط. ووفرت الدولة مساكن فاخرة ومتوسطة أكثر بكثير مما بنته من مساكن شعبية. وبالمقابل لجأت إلى تخفيض إيجار مساكن المدن مرتين، وأقامت الجمعيات الاستهلاكية لتنافس التاجر الصغير وتخفض أسعار المواد الاستهلاكية لسكان المدن.

وليس صدفة إذن أن الحركة الجماهيرية التى اندلعت بعد الهزيمة فى ١٩٦٨ قد انبثقت من عمال الصناعة والإنتليجنسيا. فقد كانت تاريخيا الطبقات الأكثر تسيسا، والتى تقدمت مواقعها فى ظل النظام نفسه.

ويخلص عادل العمرى إلى أنه: "برغم التأميمات والصدامات العديدة مع رجال الأعمال لم تصل النخبة المسيطرة فى خصومتها مع هذه الطبقة إلى النهاية، وكانت الفئة الوحيدة التى نالت الضربة القاضية هى الأرستقراطية الزراعية وعلى رأسها العائلة المالكة، والمفهوم أنها التحدى الفعلى الأساسى للسلطة الجديدة. وبالرغم من المنح التى قُدمت لعمال الصناعة والإنتليجنسيا لم تكن الناصرية أبدا ممثلة لهم؛ فالعطايا قد رافقها أيضا قمع شديد. ولقد قُمع

الفلاحون وسحق عمال الزراعة بدون تقديم رشاو ذات بال بسبب ضعفهم السياسى. أما الفئات التى استفادت بشكل فعال فكانت المقاولين والسماسرة وكبار التجار وأغنياء الريف".

لقد وجهت "التنمية" لخدمة التوازنات الاجتماعية التى تناسب بقاء سلطة الضباط البونابرتية المستقلة عن الطبقات الاجتماعية ومؤسساتها. غير أن "سد الفراغ السياسى" أدى فى واقع الأمر إلى غزو الطبقات المختلفة للسلطة الجديدة، ولو تحت سيطرتها الأمنية والإدارية. وبينما بدأ النظام كجماعة مجهولة من الضباط تتمتع بحرية حركة واسعة تجاه مختلف الطبقات الاجتماعية، أدى توسع سلطة الدولة نفسه وتدخلاتها، فضلا عن سعيها عن وعى لإدماج التيارات الإيديولوجية المختلفة فى إطار سلطتها، إلى تشكل أجنحة مختلفة داخل الحكم، تتصارع على النفوذ داخله. وفى هذا الإطار وحده يمكن فهم عبارات من قبيل أن "الشعب" قد أفسد بمظاهرات ٩ و١٠ يونيو محاولات "الرجعية" للاستفادة من الهزيمة. كان ثمة قدر من الاستقطاب والصراع داخل سلطة يوليو نفسها.

وفى المحصلة، لا شك أن مِنَح النظام قد لعبت دورا فى

حشد ولاء فئات اجتماعية بعينها للنظام، وخاصة تلك التى جمعت مكاسبها بين التقريظ الإيديولوجى والمكاسب الفعلية، كالعمال والإنتليجنسيا الحديثة، وتلك التى منحت آمالا بالنسبة لأولادها، بالالتحاق بالفئة البيروقراطية والتكنوقراطية المتضخمة.

ولكن الطبقات التى قُرظت إيديولوجيا فحسب تأثرت أيضا. فقد أشاع ضرب الطبقات العليا، والتأميمات المتتالية، شعورا عاما بالعدل ناجم عن ضرب الأقوياء بالتحديد. لقد كانت السلطة كلية الجبروت فى مظهرها، كما مثلها الضباط، وعبد الناصر بالذات، باعتباره أكثر من اهتم بإبراز جانب "العدالة الاجتماعية" فى الإيديولوجيا بين أقرانه، محل عبادة طبيعية فى أوساط الفلاحين وغيرهم من الفئات الدنيا الأمية، والبعيدة أصلا عن السياسة، والتى كان يسهل تمثيلها فى ظل غياب أى مشروع سياسى لها، بل وأبسط أشكال التضامن التنظيمى.. كانت تُجتذب بمجرد الدعاية. ولا عجب أن التجمعات الجماهيرية الملتاعة من استقالة عبد الناصر ظهرت حتى فى أعماق القرى وفقا لبعض الشهادات الشفوية.

لقد كان عبد الناصر بالنسبة لهم تمثيلا، لا لهم، ولكن

لأحلامهم فى المستبد العادل، على نحو ما عبر عنه صلاح جاهين فى عمله "أدهم الشرقاوى". فالبطل سيهزم الظالمين الأقوياء، وسيعيد لنا حقوقنا، ويحقق لنا العدل كما نراه. ونحن سندعو له ونؤيده، ونفديه.. برغم أنه للأسف لم يصدر لنا أبدا إشارة التحرك، بل وتسلط علينا موظفوه وزبانيته. ولكنه بالتأكيد لو علم ما يفعلونه بنا سيقتص منهم.. وهو قادر على ذلك بلا جدال.

كان عبد الناصر إذن رمزا وأسطورة فى أحلام الفقراء، وبالذات أكثرهم عجزا وبعدا عن فهم آليات السلطة. كانت الأغلبية الأمية سندا وظهيرا، ليس فقط للنظام، ولكن لتوسع آليات دعايته.. فعلاقة النظام بها كانت دعائية فى المقام الأول. فعبد الناصر لا يكف عن مدحها، والوعد بإقالتها من أوضاعها المزرية، وهى تحبه حتى العبادة.. وبينهما يقف جيش البيروقراطيين، الذى يشكل أداة الحكم الرئيسية للنظام، والطبقات التى استبقاها وأضاف إلى ثروتها لتكون أداة "الاستقرار"، فى الريف بالذات. كان هؤلاء الفقراء فى حاجة إلى البطل المعبود المقدس، ليعبر بهم فوق هذا كله. وقد قدمته لهم دعاية النظام بسخاء. ولم يكن لهم بالمقابل طموح

يتجاوز تثبيته فى سلطته.

لا شك أن الإصلاحات الاجتماعية، وخاصة فى الستينيات، قد دعمت شعبية النظام عند قطاعات معينة، سواء بتحقيق مكاسب مباشرة أو غير مباشرة، أو حتى مجرد أحلام، تغذيها عمليات الضرب المتوالية للأقوياء. ولكن هؤلاء جميعا لم يكن لهم من الأمر شىء.. فـ"الزحف المقدس" كان بصفة أساسية زحفا لجموع تصفق وتؤيد، لا عملية من الزحف السياسى إلى السلطة. ومن هنا يمكن القول أنه من بين وجهى التعبئة، كان الوجه الاجتماعى/ الاقتصادى تابعا للوجه الإيديولوجى.. وهو ما يفسر انحدار النظام برغم سيطرته المطلقة على مفاتيح الاقتصاد إلى هاوية الإفلاس فى أواخر خطته التنموية.

ولكن عبد الناصر، مثله مثل صورة أدهم الشرقاوى التى صنعها صلاح جاهين، لم يكن بطلا للعدل فقط، ولكن للحرية أيضا، للتحرر من الاستعمار. وكانت مواجهة الاستعمار

بالذات هى التى صنعت صورته البطولية. كما أن طبيعة حدث ٩ و١٠ يونيو، كحدث يتعلق بالمواجهة مع إسرائيل "ومن هم وراء إسرائيل"، فيما ألمح عبد الناصر فى خطاب التنحى، تعطى الأولوية فى تفسير المظاهرات العفوية لصورة البطل القومى.

العزة والكرامة

لم يخترع الضباط الأحرار النزعة الوطنية المصرية، فقد ورثوها عن الأفق العام لثورة ١٩١٩ وما بعدها.. أى عن العهد الذى نشأوا فيه. فى ذلك العهد ارتبطت المسألة الوطنية بالمسألة الديمقراطية. فالوفد، وهو الحزب الحائز بإجماع المؤرخين على الثقة الشعبية آنذاك، كان هو وحده الموثوق به فى إجراء محادثات لإنهاء الاحتلال البريطانى، أو تقليص سلطته. وكان تحقيقه لذلك مرهونا بوصوله إلى السلطة بواسطة انتخابات غير مزورة. وكان الوفد يصل إلى الحكم فى تلك الحالة بأغلبية طاغية، دفعت إلى تشخيص وضع الدولة فى عهده بأنه طغيان الأغلبية.

على هامش الوفد نشأت تيارات عديدة، كانت تعلم أن وصولها للسلطة مرهون بإنهاء نظام الانتخابات الحرة، تبدأ بأحزاب الأرستقراطية الزراعية وكبار رجال الصناعة، والمعروفة بأحزاب الأقلية، وتشمل أيضا أحزابا تعبوية جديدة، نشأت فى الثلاثينيات، وأهمها الإخوان المسلمون، ومصر الفتاة، ثم الحزب الوطنى الجديد، بقيادة فتحى

رضوان، وهو انشقاق من تنظيم مصر الفتاة. أما الحركة الشيوعية، فقد تشكل تيارها المعادى للوفد متأخرا، بتشكيل "الحزب الشيوعى المصرى- الراية" فى ١٩٥٠. أما التنظيمات الأقدم، "حدتو" و"طليعة العمال" (وتسمى أيضا الفجر الجديد)، فكانت مناصرة عموما للوفد، واحتفظ التنظيم الأخير بعلاقات وثيقة مع "الطليعة الوفدية" ذات الميول الليبرالية اليسارية. وتنبع كل هذه التنظيمات من الإنتليجنسيا المصرية أساسا، وبعض الفئات الوسطى.

وقد ارتبطت معظم التنظيمات السياسية السلطوية الجديدة بالسراى (عدا "الراية" بالطبع)، التى عولت عليها بدورها فى تكوين تيار له شعبية معاد للديمقراطية ومؤيد لاستبداد السراى تحت رايات قومية أو دينية. ولعب بعض رجال السراى، وعلى رأسهم على ماهر وكامل البندارى، الدور الأساسى فى ربط تيارى الإخوان ومصر الفتاة بالسراى. ولا يعنى هذا أن هذه التنظيمات كانت مجرد كيانات عميلة للسراى، وإنما كانت تلتقى معها فى الهدف. وهكذا نشأت تيارات **وطنية استبدادية** تعارض المنحى العام الذى ميز الفترة التالية لثورة ١٩١٩.

وقد أسهمت عوامل كثيرة، ليس هنا الموضع المناسب لمناقشتها، فى تآكل النظام القديم، على رأسها أن أحزاب الأقلية المدعومة بالسراى أو الإنجليز أو كلاهما هى التى تولت الحكم معظم الفترة، كما أن الوفد وهنت قدرته على الكفاح مع المحاولات المستمرة لتحطيمه، وتغلغل كبار الملاك بين صفوف هيئاته العليا. يضاف إلى ذلك أن الفرصة لم تتح لتجديد برنامج الوفد ليشمل المطالب الاجتماعية المتصاعدة، فظل تيار "الطليعة الوفدية" على هامش الهيئات العليا للوفد، وبالتالى ظلت الديمقراطية الممارسة محدودة بحدود هيمنة الطبقات العليا بذاتها على المؤسسات السياسية.

كانت تلك التنظيمات السياسية هى التى وضعت إيديولوجية الوطنية الاستبدادية، بغير أن تكون قادرة مع ذلك على الوصول إلى الحكم، بل الوصول إلى نسبة تمثيل نيابية. وكان الضباط الأحرار فى معظمهم أبناء هذه الإيديولوجية، فقد تربوا، بصفتهم ضباطا، فى أحضان السراى، وتبنى كثير منهم صورة فاروق الأولى التى رسمت له لتقديمه كملك وطنى فى مواجهة الوفد "الموالى للإنجليز"، وفقا لتفسير معين شاع لحادث فبراير ١٩٤٢ (حين حاصر البريطانيون

القصر الملكى ليفرضوا على الملك حكومة يشارك فيها الوفد وتحظى برضاه، ليتخلصوا من محاولات الملك للتعاون سرا مع دول "المحور"). وشارك السادات بذاته فى أنشطة الحرس الحديدى التابع للسراى.. كما كانوا جميعا يكنون احتراما خاصا لـ"عزيز المصرى"، أحد قادة الجيش الملكى، والذى حاول أن يهرب إلى صفوف رومل أثناء زحفه إلى مصر. وفوق ذلك كان الكثيرون منهم أعضاء فى تنظيم الإخوان المسلمين، كما تلقى عبد الناصر تربيته السياسية الأولى فى تنظيم "مصر الفتاة". وحين ساءت سمعة الملك، نبذ هؤلاء الوطنيون ولاءهم للملك، ولكنهم لم ينبذوا الأساس الإيديولوجى الذى قام عليه هذا الولاء. ومن أحد النواحى، يمكن إن نعتبر انقلاب يوليو وما أسفر عنه من نظام سياسى، نوعا من "سراى جديدة"، تستقل فيها السلطة التنفيذية عن الرقابة والتنظيمات السياسية، ولكن بغير تحالف مع طبقة الباشوات، بل أقيمت على حسابهم بالذات.

وقد عبر عبد الناصر بوضوح عن انحياز نظام الضباط إلى الرؤية الاستبدادية للوطنية. فالحزبية فيما قال هى سبب الفرقة، وهى المدخل الذى يسمح بتسلل الاستعمار، لأنها

تمكنه من تجنيد أعوانه. وبناء على ذلك شدد على أولوية القضاء على "أعوان الاستعمار"، لأن "الذى ثبت أقدام الاستعمار فى بلادنا هم الخونة المصريون" (١٩٥٣). وبالتالى "لا يمكن أبدا إن الوطنية تستطيع أن تسير إلا إذا حطمت الرجعية تحطيما كاملا" (١٩٥٦). وقرر كمال الدين حسين أن "الأحزاب ليس لها مكان فى وطننا لأننا نعلم أن الأحزاب هنا كانت عميلة... وتتعاون هذه الأحزاب لبيع هذا الوطن إلى أسيادها" (١٩٦١)، ولم يستثن منها أحدا. وطرح عبد الناصر الصورة ببساطة متناهية على الوجه الآتى: إن بقاء الاستعمار "فى مصر سبعين عاما لم يكن مرده قوته أو سلاحه، ولكن كان مرده التفرق فى صفوفنا... أما اليوم فلن يجد الاستعمار بيننا خائن... إننا اليوم... فى سبيل تجهيز أفراد الوطن جميعا ليكونوا جيشا واحدا" (١٩٥٣).

غير أن العداء للحياة السياسية أعمق من اتهام الأحزاب السابقة بالعمالة. فالحياة الحزبية تعتبر فى حد ذاتها مؤامرة استعمارية، تهدف إلى شق الصفوف. وهكذا قال عبد الناصر: "قسم الإنجليز الشعب من وراء ستار إلى شيع وأحزاب راحت تختلف وتتنابذ" (١٩٥٤). كذلك فإن

الاستعمار البريطانى "كان أول عمل له هو إنشاء حكم نيابى لا يمثل الشعب فقد كان النواب من الإقطاعيين... هذه الحياة النيابية كانت فى الواقع استعمارية" (١٩٥٣). وبالنسبة للمستقبل فإن "نظام الأحزاب المتعددة... حيكون وسيلة لتغلغل الأجنبى فى الوقت الحاضر داخل بلادنا ليهدم هذه القاعدة اللى بنبنيها واللى بنعبئ عليها الشعب" (١٩٥٩). يضاف إلى ذلك أن الحرب الباردة تجعل إقامة الأحزاب تكأة لنقل هذه الحرب للداخل (١٩٥٦، ١٩٦١). فالنقد لم يعد كما هو واضح موجها للأحزاب السابقة، بل لفكرة وجود أحزاب فى حد ذاتها.

وبناء على هذه الفكرة بشأن التعارض المطلق بين الوطنية والديمقراطية(*)، أباح الضباط لأنفسهم، وهم يفتقرون

(*) وصف النظام نفسه دوما بأنه ديمقراطى، وإن كانت ديمقراطيته ذات طابع خاص، نابعة من "ظروفنا"، و"خصوصيتنا"، أو "قوميتنا"، ومع ذلك توجد نصوص كثيرة توضح أن رجال النظام كانوا يدركون أن نظامهم أبعد ما يكون عن الديمقراطية.. ومن ذلك مثلا القول المتكرر بأننا سننتقل أخيرا إلى "الحكم بالشعب" بدلا من "الحكم للشعب"، أى بالنيابة عنه، وكانت آخر التأكيدات فى فترة الدراسة مواكبة لافتتاح مجلس الأمة عام ١٩٦٤.

إلى أى مفهوم للحكم، باستثناء نظرية "الزحف...." الاستبدادية التى مرت بنا، أن يصفوا الحياة السياسية، ويركزوا السلطة فى أيديهم، ويفرضوا أطرا حديدية على الإعلام والصحافة والثقافة والفن والتعليم ومجمل جوانب الحياة السياسية والإيديولوجية، ويخضعوا كافة منظمات المجتمع المدنى، من نقابات وجمعيات وغيرها، لجهاز الدولة الذى استولوا عليه ليلة ٢٢ يوليو.

وعلى اختلاف ميولهم الإيديولوجية، وإن كان معظمهم قد تربى سياسيا فى تنظيم الإخوان المسلمين (الذين يطالبون الآن بوراثة دولة الضباط ويدافعون عنها)، شملهم اقتناع بأن الاستقلال والتقدم ومواجهة ضغوط الاستعمار وتحقيق قدر ما من العدالة الاجتماعية (وهو مفهوم غامض تماما) يتطلب حكم البلاد بيد من حديد.. حديد صلب بدت بجانبه اليد الحديدية لمحمد محمود، زعيم الأحرار الدستوريين، أو إسماعيل صدقى، أو إبراهيم عبد الهادى، أيدٍ مخملية متهاوية. فبينما كان هؤلاء يعملون فى وسط دستورى، أيا كانت أشكال انتهاكه، وبين قوى سياسية حية وفاعلة، أتاح تحطيم النظام القديم للضباط تسييد النقد الذى وجهته

التنظيمات السلطوية السابق الإشارة إليها للحياة الحزبية، وبالتالى أن يبرروا لأنفسهم، باقتناع كبير، أن يتولوا حكم البلاد منفردين بالسلطة.

أضف إلى ذلك أنهم اعتبروا أن الحقبة السابقة لم تكن تحت حكم قوى عميلة فحسب، وإنما أفسدت المصريين أنفسهم، أى الشعب الذى حكموا باسمه. وهكذا أعلن عبد الناصر: "أقول لكم بصراحة أن الشعب كان هو المسئول الأول عن الجرائم وعن الآثام التى اقترفت فى الماضى" (١٩٥٣). وبالتالى ظهرت فكرة إعادة تربية الشعب وحمايته من "تضليل" الآخرين كما مر بنا. وهكذا أعلن عبد الناصر "أن الثورة لم تنته ولن تنتهى إلا إذا **جعلت** من أبناء هذا الوطن رجالا شرفاء أعزاء أقوياء" (١٩٥٤).

* * *

فى الإجمال يعتبر ما سبق تقصيا لجذور إيديولوجية "الزحف المقدس"، واعتناقها كأساس لا غنى عنه للوطنية. وسنرى الآن كيف انعكس ذلك على رؤيتهم للقضية الوطنية نفسها. فقد اعتبروا أن الاستقلال لم يتحقق من قبل بسبب "عملاء الاستعمار" كما مر بنا. أما هم، بصفتهم مخلصين

طاهرى الأيدى فسوف يحققونه. وهكذا تم تصوير القضية كقضية أخلاقية، وصور الاستقلال على أساس مبدأ **العزة والكرامة**. أما التقدم فيتحقق بشرط تحقيق الاستقلال.. وبعد "أن يصبح قرارنا بأيدينا" تصبح كل العقبات سهلة، نتجاوزها بيسر بعيدا عن تدخل الأجانب. وقد أدى الموقف ككل إلى تشكل مفهوم بطولى للوطنية، لعب الدور الأكبر فى تحقيق شعبية النظام من جهة، وفى دفعه إلى حرب ١٩٦٧ من جهة أخرى.

وقد برز الطابع البطولى للعداء للاستعمار مبكرا، برغم طبيعة اتفاقية الجلاء. فالواقع أن الاتفاقية التى تم التوصل إليها بمفاوضات برعاية الولايات المتحدة تضمنت القبول بعودة بريطانيا لاحتلال قاعدة القناة فى حالة الاعتداء على تركيا، مما يعتبر ربطا للقاعدة بحلف الأطلنطى، ولم يكن لها بالتالى أى طابع بطولى، بل كانت فى نظر بعض معارضى النظام دليلا على صلته الوثيقة بالاستعمار الأمريكى الجديد. غير أن المعاهدة بشروطها هذه تحققت من خلال مفاوضات عسيرة رفض فيها الضباط فكرة الانضمام إلى معاهدة دفاع مشترك مع الغرب. وأعلن صلاح سالم قبل توقيع الاتفاقية،

فى مواجهة أصدقاء بريطانيا من الحكام العرب: "إننا نفخر نحن حكومة البكباشية بأننا لم نسلم للمستعمر، ولم نرض بالدفاع المشترك". واتجه الضباط لتبنى سياسة الحياد بين المعسكرين، والتى طالبت بها بعض قوى الحركة الوطنية منذ الأربعينيات.

غير أن "فلسفة الثورة" طرح قبل المفاوضات أسس موقف بطولى من الاستعمار، ففيه ذكر عبد الناصر أنه كتب لصديق له، بعد حادث فبراير ١٩٤٢ (حصار الإنجليز لقصر عابدين):

أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة فى يده بقصد التهديد فقط، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأى امرأة من العاهرات.

وتعد هذه الرؤية بطولية لأنها تعتبر الشجاعة والإقدام والثبات معايير وأدوات حاسمة لتحقيق أهداف التحرر. وهى رؤية انعكست بوضوح على عديد من المواقف، التى اعتُبرت غير تقليدية فى زمنها، وبلغت ذروتها فى تأميم قناة السويس وحرب ١٩٥٦ التى نتجت عنه.

وقد ارتبطت هذه البطولة بالدور الخارجى، والعربى بالذات. فليس صدفة أن كلمة البطل وردت فى "فلسفة الثورة" فى ذلك السياق: "لست أدرى لماذا يخيل إلى دائما أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به... استقر به المطاف... على حدود بلادنا يشير إلينا". وهو دور طموح للغاية، إذ يهدف "لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور إيجابى فى مستقبل البشر" جميعا. والمسألة أبعد من مواجهة إسرائيل؛ فـ"إسرائيل نفسها لم تكن إلا أثر من آثار الاستعمار". وهكذا كان ثمة إرهاصات بدور سياسى فى المنطقة ضد النظام الاستعمارى نفسه ومن اعتُبروا أنصاره.

وبمجرد توقيع اتفاقية الجلاء بالأحرف الأولى أعلن عبد الناصر (١٩٥٤) أنه الآن "ستستطيع مصر أن تأخذ مكانتها... أن تتجه إلى الآفاق الواسعة خارج حدودها لتبشر برسالتها... رسالة الحضارة **ورسالة العزة ورسالة الكرامة** بين العرب وبين المسلمين، وفى الشرق وفى الغرب، وفى أفريقيا. وستستطيع مصر أن تكون لها مكانة يحسب حسابها". فمنذ البداية ثمة وعد بالمجد وبمكانة عالمية، على

أساس رسالى وبطولى.. ينطلق من قيمة العزة والكرامة.

وفور الإعلان عن تحالف العراق وتركيا، وهو أساس مشروع حلف بغداد، الذى كان يهدف إلى إقامة حزام دفاعى للغرب من الدول العربية ضد الكتلة الشيوعية، أعلن صلاح سالم (١٩٥٥) بيانا رسميا قرر فيه أن الحلف يهدد كيان الجامعة العربية، وطرح بالمقابل سياسة النظام كالآتى:

رسمت سياستنا الخارجية منذ البداية على أساس التعاون الكامل فى سبيل مجد شعب العرب ووحدة العرب... وإظهار كيانهم المستقل فى المحيط الدولى كوحدة قوية متماسكة تنتهج سياسة خارجية مستقلة بعد التخلص نهائيا من آثار السيطرة الأجنبية، وهذا يستلزم تقوية جامعة الدول العربية واتفاق أعضائها حول سياسة خارجية موحدة مستقلة يرتضونها جميعا ولا تخضع بطريق مباشر أو غير مباشر لنفوذ أجنبى.

وبهذا استحدث الضباط مبدأ الهجوم على الأحلاف فى المنطقة، وحق التدخل، ولو بالموقف، فى سياسات دول المنطقة المختلفة إذا رأوا أن ذلك يهدد تصورهم لأمن المنطقة ككل. وبدأت إذاعة "صوت العرب" تهاجم فكرة

الحلف. وفشل إيدن، وزير خارجية بريطانيا، فى زحزحة النظام عن هذا الموقف أثناء زيارته لمصر فى فبراير ١٩٥٥. وفى مارس عقد صلاح سالم اتفاقا مع قادة سوريا نص على عدم الانضمام للحلف وتقوية العلاقات العربية الخالصة، وأيدته السعودية، وانضمت له اليمن. وسافر عبد الناصر إلى مؤتمر باندونج الذى دشن حركة عدم الانحياز، والذى واجه مقاومة ورفضا من المعسكر الغربى. وفى المؤتمر أعلن عبد الناصر إيمانه بأن العصر هو عصر القومية، وبأن أساس اتفاق دول المؤتمر هو الاحترام المتبادل لاستقلال كل دولة وحقها فى اختيار "ما تراه مناسبا من النظم السياسية والاقتصادية"، وهو ما استقر عليه المؤتمر، بالإضافة إلى رفض الأحلاف العسكرية.

أما فى الداخل فقد اعتُبر المؤتمر برهانا على ثورية النظام. فالانقلاب، فيما قرر فتحى رضوان، تغيير قشرى لا يتجاوز حدود الدولة التى وقع فيها، واعتبر حركة أتاتورك نموذجا للانقلاب، بينما الثورة تفيض "على الأمم المجاورة وأحيانا العالم كله... ولقد كان المؤتمر الآسيوى الأفريقى هو بداية هذا الفيض [للثورة المصرية]". وأعلن عبد الناصر عند

عودته أنه حضر المؤتمر "لأظهر باسمكم للعالم أجمع أن مصر اليوم قد استقلت حقا... [و]إذا تكلمت فإنما تتكلم عن إرادتها، وإنما تتكلم عن ضميرها...". وهكذا قدمت المشاركة فى مؤتمر باندونج أول صورة للنظام كنظام له رؤية متكاملة معادية للاستعمار جذريا، كما كان الفرصة الأولى التى أتاحت لعبد الناصر أن يتكلم باسم مصر ويتوحد معها بشكل مقبول لدى الناس.

ولا شك أن العامل الرئيسى الذى أتاح للضباط وقادة دول أخرى من العالم الثالث الفرصة لاتخاذ هذا الموقف هو اندلاع الحرب الباردة. فقد حد الاستقطاب – فضلا عن الضعف الذى ألم ببريطانيا وفرنسا بسبب الحرب العالمية الطويلة وتراجع قوتهما العسكرية والاقتصادية أمام الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى – من قدرة الدول الاستعمارية العتيدة على الاحتفاظ بمستعمراتها ومواجهة محاولات الاستقلال التى تولت قيادتها نخب عصرية، عسكرية ومدنية، فى بلدان العالم الثالث. وبينما فشلت دماء آلاف الضحايا فى ثورة ١٩١٩ فى دفع بريطانيا إلى الجلاء وهى فى أوج قوتها، استطاع الضباط أن يحصلوا على انسحاب مشروط

بمفاوضات مدعومة بأعمال عسكرية محدودة وبمساندة الولايات المتحدة.. كما استطاعوا بعد هزيمة عسكرية على أيدى القوى الاستعمارية القديمة وإسرائيل، عام ١٩٥٦، أن يحصلوا على دعم سياسى دولى أجبر المعتدين على الانسحاب. وكانت هذه الظروف العالمية هى التى مكنت أفكار التيار الوطنى الأكثر تطرفا من تحقيق ما عجزت عنه القوى الأخرى التى وصمت بمهادنة الاستعمار فى زمن مجد الإمبراطورية البريطانية.

غير أن الصدام المحدود مع الاستعمار بشأن الجلاء والأحلاف لم يكن النقطة الأخيرة فى الصدام مع الغرب. وكانت إسرائيل هى سبب الصدام. فقد أدى دعم الغرب لها، وضمانه لـ"توازنها" العسكرى مع مجمل الدول العربية، إلى تعرض البلاد لخطر متزايد منها. فأتى الصدام التالى مع المعسكر الغربى بشأن بالسلاح، وهى مسألة كانت شديدة الحساسية بالنسبة للضباط الأحرار، ليس فقط بسبب المشكلات المتوقعة مع إسرائيل، ومرارات الهزيمة المنكرة عام ١٩٤٨، ولكن أيضا لأن الجيش كان سندهم الوحيد تقريبا فى الحكم آنذاك. وزاد من خطورة الموقف تعرض

قطاع غزة لهجوم إسرائيلى قتل فيه ٣٨ جنديا فى فبراير ١٩٥٥، أتى ردا على تصاعد نشاط الفلسطينيين العسكرى انطلاقا من القطاع.

وإزاء فشل محاولات حث الغرب على إمداد الجيش بالأسلحة المطلوبة، بل الوفاء بتوريد أسلحة سبق التعاقد عليها قبل ١٩٥٢، حصل الضباط على أسلحة سوفيتية عن طريق تشيكوسلوفاكيا. وأعلن عبد الناصر بعد مدة من عقدها أنها "تعتبر قضاء... على النفوذ الطويل الذى تحكم فينا.... تقضى على التحكم، على التحكم الذى كنت أشعر به وكنتم تشعرون به... إن مصر اليوم، مصر الثورة... لها سياسة خارجية مستقلة... لا تنبعث من معسكر من المعسكرات" (١٩٥٥). فكان إعلان الصفقة التمرد الأشد على سلطة الغرب التقليدية فى المنطقة، بغير أن يعنى ذلك الانضمام للمعسكر الآخر.

وواكب هذه الأحداث تنامى الشعور بالفخر الوطنى فى الصحف. وكانت الريادة لمحمد التابعى، رائد اتجاهات عديدة، كما سنرى، فى مجال إيديولوجية البطولة. فكتب ناعيا على "سياسة أمريكا"، أنها: "تجاهلت حقوق الشعوب

وحرياتها وأمانيها. أما روسيا فكانت أبعد نظرا... لأنها لم تحاول أن ترشو أو تشترى فى سوق الذمم"، ولم تطلب من الشعب "أن يدخل فى حلف عسكرى أو ميثاق"، أما الولايات المتحدة، فـ"كل شىء عندهم – عند هذه الأمة العظيمة – يوزن ويقاس ويقدر بالدولار... والحق والأخلاق والمبادئ تباع وتشترى... ولكن هذا الشرق الأوسط مهبط الوحى والأديان... يرفض أن يبيع تراثه وتراث الآباء والأجداد". فربط تحولات السياسة الخارجية بفكرة المبادئ والأخلاق، وبصورة أخلاقية لفكرة الاستقلال الوطنى.

كما راح يفخر بأن اسم مصر أصبح يحتل "صدارة عناوين الصحف العالمية"، ويتم الحديث عن سياستها وإنجازاتها باحترام، بينما كانت تحتل هذه الصدارة من قبل من باب أخبار فساد الملك والحاشية وفضائحهما. وبينما كان يقال عن حكام مصر الجدد فى البداية أنهم "عيال"، قضوا حياتهم فى الثكنات: "اليوم تستغيث فرنسا وتطلب النجدة ضد هؤلاء 'العيال'!... وتعترف صحافة أمريكا وبريطانيا وفرنسا أن كبير العيال – جمال عبد الناصر – قد استطاع أن يقلب موازين القوى فى الشرق الأوسط... وأن يرغم هذه

الدول على التراجع" (١٩٥٦). وهكذا ظهر الشعور بأن مصر، بفضل عبد الناصر، قد أصبحت دولة عظمى، أو قادرة على الأقل على أن تواجه الدول العظمى وتهزمها، وكل ذلك قبل حرب السويس.

وجاءت المواجهة الكبرى مع الاستعمار عام ١٩٥٦، بتأميم قناة السويس ثم مواجهة العدوان الثلاثى. وكانت بمثابة الذروة البطولية للتحول فى مسار الوضع الدولى، والداخلى، للنظام، والتى رسخت مجموعة من المقولات حددت مفهوم "الحكم الوطنى"، ورسمت له مجموعة سمات إيديولوجية تناسب بالضبط طبيعة سلطة الضباط وسياستهم.

وكان الحدث الإيديولوجى البارز الذى بلور معظم السمات الأساسية لإيديولوجية التحرر الوطنى البطولية للنظام هو خطاب عبد الناصر الذى أعلن فيه تأميم القناة (يوليو ١٩٥٦). فقد بدأ خطابه بالوعد بتثبيت مبادئ الحرية والعزة والكرامة، و"إقامة دولة مستقلة استقلالا حقيقيا"، والعمل من أجل العروبة. ويوضح النص التالى طبيعة إيديولوجية العزة والكرامة:

منذ أن أعلنت مصر سياستها الحرة المستقلة، وبدأ العالم ينظر إلى مصر، ويعمل لها حساب – باقول بيعملوا لنا حساب – **اللى كانوا زمان ما بيعبروناش** وما بيحسبوش حسابنا... **كنا زمان نتاطع على مكاتبهم**، مكاتب المندوب السامى والسفير البريطانى... بيعملوا لنا حساب، وبيعرفوا إن احنا **دولة لها قيمتها**، تستطلع أن تفعل ما تريد. النهارده قيمة مصر فى المجال الدولى كبرت، وقيمة العرب – الأمة العربية – كبرت وعظمت.

فالشعور بالكرامة مطروح كتعويض وتجاوز عن شعور عميق بإهانة واحتقار سابقين.. وقضية الاستقلال قضية متعلقة أساسا بكرامة البلاد وحكامها. ومعياره ليس قدرة الدولة على تحقيق مصالحها الخارجية، وإنما قدر "الاحترام الدولى" الذى تتمتع به. وهو ما اعتُبر أنه يتحقق برد الصفعات بمثلها أو أشد. وهكذا أشار عبد الناصر إلى محاولات الغرب منع السلاح عنه ومحاولة جعله مشروطا سياسيا، ورد متحديا بإعلان أن صفقة الأسلحة التشيكية صفقة روسية فى حقيقتها، ثم عرج إلى محاولة دالاس إرسال تهديد للنظام مع مبعوث خاص كرد على صفقة الأسلحة،

وذكر موقفه فى هذا الشأن:

قلت له [:سفير الولايات المتحدة] إسمع: أنا مانيش [:لست] رئيس وزارة محترف، أنا رئيس وزارة جاى [:حكمت] بثورة... مندوبكم إذا جالى المكتب واتكلم كلمة حاطرده بره المكتب. دا كلام رسمى. **وحاطلع أعلن... للشعب المصرى إنكم أردتم أن تهينوا عزته وتهينوا كرامته،** وسنقاتل جميعا لآخر قطرة فى دمائنا... وأحب إنكم تعرفوا إن احنا **ما أخدناش دروس فى الدبلوماسية ولا فى السياسة،** إحنا ناس قمنا بثورة، وبنتجه إلى تحقيق أهداف الثورة. كنت باتكلم وأنا مطمئن – يا إخوانى – كل الاطمئنان... لأنى كنت أشعر إن هذا الشعب جميعه، ٢٣ مليون.. كلهم حيكافحوا **فى سبيل العزة** اللى تحققت، وفى سبيل الاستقلال لآخر قطرة فى دمهم... العملية **شعب متحد،** شعب قوى... عرف طعم الحرية وعرف طعم العزة.

فالدولة أو البلد ذات واحدة، تدافع عن عزتها وكرامتها، وبصرف النظر عن أى توازنات سياسية وعسكرية؛ فهى ذات شعبوية، لا تتعامل بالسياسة والدبلوماسية، وإنما تنطلق من أفكار الشرف والكرامة. وهكذا تصبح العزة والكرامة

هى تعريف الوطنية والاستقلال، وكلاهما يتحقق بالتفاف الشعب حول القائد المتماهى مع شعبه، والبعيد عن الدبلوماسية والسياسة. وفى نفس الوقت يثبت النص أن الاتحاد، أى تصفية الحياة السياسية يقترن بكسب معنوى كبير هو الشعور بالفخر القومى، بالمجد، بعد ٧٢ عاما من الاستعمار:

النهارده [:اليوم] واحنا بنستقبل العام الخامس للثورة... بنشعر إن احنا بنحقق أمجاد لنا، بنحقق عزة حقيقية... لن تكون سيادة فى مصر إلا لشعب مصر. إحنا سنتجه قدما إلى الأمام متحدين متكاتفين. **شعب واحد** يؤمن بنفسه ويؤمن بوطنه، ويؤمن بقوته. شعب واحد آل على نفسه أن يعمل ويزحف **زحفا مقدسا** نحو البناء، ونحو التصنيع، ونحو الإنشاء. شعب واحد.. **كتلة واحدة متراصة** تقف ضد الغدر والعدوان، تقف ضد الاستعمار وأعوان الاستعمار وألاعيب الاستعمار.

وبهذا المنطق وقف عبد الناصر يخطب فى الأزهر حين وقع الإنذار البريطانى فى بداية العدوان الثلاثى:

ولكنا يجب أن نصمم على ألا ينال الإنجليز أو الفرنسيون نصرا رخيصا، ولكنا **يجب ألا نفرط فى شرفنا وفى كرامتنا**.

وفى الأسبوع التالى بلور فكرة الكرامة بحدة أكبر:

إن الاستعمار كان يطلب منى ومنكم أن نكون لهم **أذيالا،** وأنا حينما رفضت... كنت أرفض باسمكم، باسم عزتكم، باسم حريتكم، باسم كرامتكم... إننى حينما أعلنت باسمكم أن مصر ستعيش حرة مستقلة كريمة، **لن تأخذ أوامرها من الخارج**... كنت أعبر عن كل فرد منكم.

فالفكرة المسيطرة هى التمرد على تراتب مطروح كتراتب بين سيد يأمر وعبد يطيع، وتتمثل الكرامة بالتالى فى استقلال الإرادة والقدرة على التحدى. وقد تكررت هذه الفكرة مرارا، سواء عند إعادة رواية أحداث ١٩٥٦، أو فى مناسبات مشابهة، مثل وقوع الصدام مع ألمانيا الغربية بسبب علاقتها بإسرائيل، أو عندما بحث الكونجرس وقف معونة القمح عن مصر (١٩٦٥). وحين تقرر وقف المعونة بالفعل كتبت الأخبار عن المبدأ العام: "نحن منذ بدأت ثورة ١٩٥٢ جعلنا مبادئنا وكرامتنا واستقلالنا فى كفة وكل ما عداها من أنواع الضغوط فى كفة أخرى... خرجنا من كل معركة **برجولتنا**

واستقلالنا وكرامتنا بيضاء من غير سوء" (مارس ١٩٦٧). فظلت المفاهيم التى صيغت فى ظل حرب ١٩٥٦ مبدأ إيديولوجيا حاكما إلى النهاية.

إن هذه الخطابات الثلاثة، ومقاومة العدوان الثلاثى، لم تؤسس فحسب شرعية النظام، بمعنى أنها أقامت له مجده الوطنى الخاص الذى يمنحه المشروعية، وإنما أقامت، بذلك نفسه، نمطا معينا من الشرعية الوطنية، يقوم على الإحساس بالسياسة الخارجية كساحة لإثبات الكرامة، والقدرة على مواجهة القوى الكبرى وهزيمتها، وهو ما عززه الانتصار السياسى عام ١٩٥٦ على انجلترا وفرنسا وإسرائيل.

ولخص مصطفى أمين أثر حرب السويس كالآتى: "لم يعد أحد يتكلم عن سياسة الحكمة والروية ونصف الرغيف خير من لا شىء.... **إن الشرف لا يحتمل أنصاف الحلول!** إن المرأة نصف الشريفة هى امرأة فاسدة!". وبرغم سوقية التعبيرات، وسنرى منها أرتالا أخرى، فإن الفكرة الجوهرية هنا هى **نبذ السياسة لصالح المبادئ**، فالمبادئ لم تعد مجرد موجه للسياسة، وإنما هى السياسة نفسها، **سياسة المبادئ**، التى لا تحتمل أنصاف الحلول، أما "السياسة"، أو "أنصاف

الحلول"، فهى فقدان الشرف.

وهكذا نشأ عرف تقديم سياسة الحكم الخارجية كصراع فى سبيل المبادئ. وكان التابعى هو أول من أوضح هذه القاعدة بالمقارنة بالنظم المعادية. فبينما كانت سياسة النظام هى سياسة المبادئ، فإن شمعون رئيس لبنان من الساسة الذين: "يعرفون كيف يساومون فى الحقوق... وكيف يمسكون بالعصا من وسطها". ورؤية دالاس للسياسة نفعية، فحلفاء الولايات المتحدة وزبائنها "دائما على حق.. حتى ولو كان باطلهم فاجرا مفضوحا.. والعكس صحيح"(١٩٥٧). أما عبد الناصر، فهو "الرجل الذى لا يكذب ولا يعرف ما هو اللف والدوران... [الذى] أعلن آراءه... وثبت عليها وصمد بجانبها"(١٩٥٨).

ولا شك أن النظام قام دائما بمناورات فى السياسة الخارجية، وقدم تنازلات، مثل إيقاف انطلاق المقاومة الفلسطينية من غزة بعد ضربة فبراير ١٩٥٥، ومثل التقارب المتكرر مع العربية السعودية، والتحفظ فى العلاقة مع عديد من الحركات المتمردة فى البلاد العربية، والتى اعتبرت النظام المصرى حليفها الطبيعى. وقبيل حرب ١٩٦٧ ذاتها

تلمس النظام بالطرق الدبلوماسية إمكانية وقف التصعيد والحيلولة دون اندلاع الحرب. غير أن هذه الجوانب من حركة النظام لم تكد تُعرف للمعاصرين آنذاك. وما عرف منها، مثل محاولة التقارب مع السعودية وتدشين آلية مؤتمرات القمة العربية مع "الدول الرجعية"، تم تبريره بأسباب أكثر مبدئية لا تخرق إيديولوجيا المبادئ المبنية على العزة والكرامة، فتحول السياسة إلى إيديولوجيا ليس تلقائيا.. وإنما يمر بمصفاة.

وبصفة عامة شاعت فكرة الفخر بانتصارات السياسة الخارجية التحررية للحكم، منذ ما قبل تأميم القناة. وبعد الانتصار السياسى عام ١٩٥٦: كتب التابعى: "اللهم لا شماتة! إنا نرى مغرب إمبراطورية كانت الشمس لا تغيب عنها... هذا جيل سوف تحسده الأجيال القادمة لأنه شهد مصرع الطغيان ومولد الحرية ومعركة الجلاء ومعركة التأميم ومعركة بورسعيد". و"كنا نقرأ التاريخ واليوم نكتب التاريخ!". وكرر عبد الناصر الفخر، ولكنه نسب الفضل فيه للشعب: "الشعب بيعمل وبيكدح فى سبيل... بناء بلده، بييجى عليه الزمن ويستطيع أن يقول لرئيس وزراء بريطانيا

اتفضل، إنت فشلت... وبعدين مش بس فشلت حملة إيدن... لأ، بنخطط خريطة الأمة العربية زى ما احنا عايزين... [فتقوم الوحدة]... تطور خطير، تجربة إذا نجحت ستعم آثارها العالم أجمع" (١٩٦٠). وبعد سنتين كتب أحمد بهاء الدين أن "'الطعم' الذى تذوقناه خلال هذه السنين وكان فيه من الجدة ما ليس فى طعم أى شىء آخر هو 'طعم الانتصار'... الانتصار على الأجنبى، الانتصار على الخيانة، الانتصار على الإهانة والمذلة...".

ولخص جلال كشك الفكرة كلها فى أن مفتاح فهم ثورة يوليو هو التخلص من "دور الكومبارس" (١٩٦٤):

كان الاستعمار الغربى لا يرى فى بلاد العرب إلا مصدرا للمواد الخام وسوقا لبضائعه... كومبارس تابع... وحتى النظرية الشيوعية جعلتنا نحن شعوب المستعمرات احتياطى للحركة العمالية فى أوربا... ثورة يوليو أنهت دور الكومبارس العربى.. واستبدلته بدور البطل العربى [كذا] الذى يحرك التاريخ ويصنعه... واليوم... إذا كان لدى صحف الغرب ما تتهمنا به.. فربما تقول أننا نحرك الأحداث فى العالم كله.

وكانت إيديولوجية العزة والكرامة إيديولوجية شعبوية populist فى المحل الأول. ونقصد بالشعبوية أفكار وتوجهات سياسية وقرارات معلنة تُطرح باسم الشعب ككل، وتوجه له ككل، دون أن يكون مشاركا فى صياغتها أو إقرارها عبر أية وسائل تمثيلية، أو فى تنفيذها. وهى بالمقابل تقوم على تمجيد متواصل للشعب، وتقديس الرجل العادى، وإثارة حماسه باستمرار باسم أهداف عليا، دون أن يكون له فى الأمر شىء أكثر من الانبهار والتأييد والشعور بعظمة مستعارة ناتجة عن انتماء قلبى لمشروع عظيم.

وكان النظام السياسى وأنصاره يدركون أن الوطنية البطولية بصيغتها الشعبوية تمثل سلاحا سياسيا قويا، هو تأليب الجماهير عموما، والطبقة الوسطى المدينية خصوصا، فى مواجهة أعدائه فى المنطقة. ففى مواجهة نورى السعيد، مهندس حلف بغداد، قال عبد الناصر: "إن أعوان الاستعمار الذين باعوا أنفسهم للدول الاستعمارية... لا ينظرون إلى الشعب... إن هذه الشعوب التى يقول عنها رئيس وزراء العراق أنها شعوب تهتف ولا حول لها ولا قوة، هى التى انتصرت فى بورسعيد... هى التى انتصرت فى معركة

الأحلاف. إن إرادة الشعب هى إرادة اللـه" (١٩٥٨).

وقد أطلق عبد الناصر على قوة الرأى العام التى كانت تجتذبها مواقفه "القوى المعنوية"، التى قرر أنه يمكن بها "أن نفرض على العالم المبادئ الحرة، والمبادئ الأبية... إن القوى المعنوية اليوم فى آسيا وأفريقيا... أصبحت سلاحا يجب أن يعمل له كل حساب" (١٩٦٠). وهى السلاح الأقوى ضد أعوان الاستعمار، وأعداء النظام عموما: "المبادئ.. الكلام اللى بنتكلمه، المثل اللى بيعتنقها الشعب أقوى سلاح، لأن الكلام اللى باقوله بيردده كل فرد عربى فى كل بلد عربى تئن من الرجعية وتئن من الاستعمار" (١٩٦١). وقد تمكن النظام بالفعل من إحراج أكثر من حكومة عربية، وساهم بشكل غير مباشر بدعايته الشعبوية فى إسقاط بعضها. ولكنه بالمقابل دفع ثمنا غاليا من بعد، حين انقلب السحر على الساحر وخضع هو ذاته لابتزاز آخرين ناشئين تعلموا منه اللغة والأفكار، وكانوا على استعداد للذهاب أبعد مما ذهب.

وقد رددت الصحف فكرة وجود صلة مباشرة بين السلطة والشعب، العربى عموما، فى مناسبات مختلفة.

فـ"قوة سياستنا فى صراحتنا ووضوحنا.. نحن نعتبر الحاكم فى بلادنا مسئولا أمام الأمة العربية كلها. هذه الأمة هى برلمانه... ومن أجل هذا يتكلم عبد الناصر [علنا] بنفس الصراحة التى يتكلم بها فى مجلس الوزراء" (١٩٥٩). غير أن أحمد بهاء الدين هو الذى بلور الفكرة وطورها، وأخرجها من المنطقة العربية لتشمل العالم كله (١٩٦٠):

إن الجمهورية العربية المتحدة دولة لها مغزى خاص فى حياة العالم بوجه عام، وحياة الشعوب الناشئة بوجه خاص... إن الجمهورية العربية المتحدة 'ثورة' عليها مسئولية الثائرين! إنها 'دعوة' وليست مجرد دولة.

ولاحقه مصطفى أمين قائلا إن "الجمهورية العربية المتحدة لم تعد دولة فقط، وإنما هى الوعى الجديد للأمة العربية كلها". وهكذا فإن المبادئ – الإيديولوجيا – تمنحنا دورا إقليميا وعالميا.. وبالمقابل تتراجع الدولة أمام "الدعوة"، مثلما تراجعت السياسة أمام "المبادئ"، والرشادة الاقتصادية أمام سياسة المكاسب.

وقد واكب هذا الفخر لهجة شعبوية فى تناول أمور السياسة الخارجية، محورها الاستهزاء بالخصوم من الدول

الاستعمارية، أحيانا، والنظم المحافظة والمعادية فى المنطقة، دائما.. وبما يشمل سب رؤسائها وملوكها فى معظم الأحيان. وكانت البداية أيضا من "الأخبار". فإزاء توقيع الاتفاق التركى- العراقى وفشل النظام فى وقفه، قال مصطفى أمين مدافعا: "كان دور مصر هو دور رجل طيب سمع أن إحدى بنات الحى هربت لتشتغل فى كباريه! وذهب الرجل إلى الكباريه وراح يحاول إقناع الراقصة بمزايا حياة الأسر الشريفة... ولكن الراقصة لم تهتد". غير أن محمد التابعى تولى الريادة أثناء أزمة السويس. والبداية التنويه بـ"خازوق" فرنسا فى الجزائر. ثم أنتونى إيدن، رئيس وزراء بريطانيا، فهو "العايق التافه الهايف"، أما "زميله جى موليه"، رئيس وزراء فرنسا، فهو "الذى فاق عاهرات بلاده فى العهر والفجور... [و]سبة لا ترضى بها أمة ولو كانت أمة من البغايا والعاهرات... ومع ذلك فقد وجدت له لقبا يبدأ بحرف (ش) ولكن القلم يستحى"، ولكن ليس كثيرا فيما يبدو. أما منزيس رئيس وزراء استراليا، وممثل مجموعة الدول المنتفعة بالقناة فهو "بغل استرالى... 'برطع' و'رفس' و'ضرب بالجوز'!... فضل أن يكون 'صوت سيده' فينطق

بما يريد إيدن". أما كميل شمعون، رئيس لبنان أثناء الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨، فهو "ينهب ويثرى.. لأنه 'عميل ووكيل' مخاص وفى لبريطانيا، وله دوسيه سرى رقمه ٢٣ فى قلم المخابرات البريطانية وله مرتب سنوى". فكل عدو منحط بالتعريف.

غير أن الستينيات شهدت تحول شعبوية التشهير والاستهزاء والسب، المستند إلى إيديولوجية العزة والكرامة، إلى أسلوب رسمى. وقد نال الملك حسين، ملك الأردن، النصيب الأكبر. فمع ظهور الخلاف بعد الوحدة مع سوريا، وبعد أن تخلص الملك من وزارة القوميين، اتهم عبد الناصر الملك بالانحراف وبأنه "يواصل الرسالة... رسالة الملك عبد اللـه [:جده] الذى خاننا فى سنة ١٩٤٨". وحين اتهمت إذاعة الملك حسين عبد الناصر بأن خطابه موجه للرعاع والغوغاء، رد قائلا:

إننا نعلم باسم من يتكلم هذا الملك **الأجير**، فهو يتكلم باسم الاستعمار والصهيونية... الشعب الذى وصفته إذاعة الملك الأجير بأنه الغوغاء وبأنه الرعاع، لا يبيع وطنه لقاء أموال الدنيا كلها وذهبها... أما السادة أمثال الملك الأجير وأمثال

حكام الأردن العملاء فإنهم يبيعون شعوبهم بثمن بخس... **إننا رعاع وغوغاء، ولكننا نشعر بالشرف،** أما السادة الذين يمثلهم الملك الأجير فإنهم ينقصهم الشرف

وأيضا: "إذاعة الملك حسين بتشتغل للمخابرات الأمريكية، للسى آى إيه، لأن هو الملك حسين نفسه بيشتغل فى السى آى إيه".

وعندما ساندت السعودية عودة النظام القديم فى اليمن، فى مواجهة الانقلاب المدعوم من النظام المصرى، قال عنه عبد الناصر أن "ملك الجوارى وملك الحريم... اللى كان بيقول السنة اللى فاتت إنه حينقل المعركة لقلب القاهرة لقاها جياله [:آتية له] من تحت فى اليمن"، والشهداء من الضباط والجنود المصريين فى اليمن "كل واحد فيهم جزمته أشرف من تاج الملك سعود والملك حسين (تصفيق)". وإزاء اتهامات آل سعود للنظام بالخروج على الإسلام، قال عبد الناصر عن الملك فيصل (١٩٦٢): "أبو دقن [:لحية] دا... عايز يضحك على الناس، عايز الناس يقولوا له آه إنت أمير المؤمنين دقنك طويلة وسافف [:سارق] فلوسنا ونسلم لك بإنك تربى دقنك وتسف فلوسنا، لأن الإسلام بيقول كده. ولكن أنا باقول إن

الناس... زى ما ينتفوا [:ينزعوا شعر] دقون الرجعيين كلهم حينتفوا دقنه، لأن دا سنة الكون". وهو فى دعوته للمؤتمر الإسلامى: "أسياده هم اللى بيحركوه" (١٩٦٦). وقال فتحى خليل أن إسرائيل تبدو "عضوا بلا بطاقة فى حاف فيصل الإسلامى.. ولكنه عضو مؤسس وخطير" (١٩٦٦).

أما شاه إيران فهو فى قول عبد الناصر قد "اعترف بإسرائيل ليرضى أمريكا ويرضى أسياده... والصهيونية وإسرائيل" (١٩٦٠). وإيران "مستعمرة أمريكية ومستعمرة صهيونية... بيدوا [:يعطون] له [:الشاه] معونات كل سنة بيسرق شوية ويصرف شوية ويدى الجيش شوية، وبعد كده بييجوا [:يأتوا] يملوه [:يملوا عليه]... اليهود يشتمنا، يملوه الأمريكان يشتمنا"(١٩٦٤). فكل الأعداء عملاء بلا كرامة، ينفذون أوامر الاستعمار، لا لمصلحة، ولكن لأنهم خدم.

وبجمع ذلك كله معا، كتب إحسان عبد القدوس أن "الرجعية تفضل ألف مرة بقاء إسرائيل على بقاء الثورة العربية واستمرارها. بل كلنا نعلم أن كيان إسرائيل هو جزء من كيان الرجعية العربية، وكلاهما جزء من الكيان الاستعمارى فى الوطن العربى"، فأوصل الفكرة الكامنة وراء

هذا الأسلوب إلى منتهاها.. كما هى عادته.

وقد ظهر هذا التوجه فى خطب عبد الناصر (١٩٦٧): "النتيجة البسيطة اللى نطلع بيها إيه... لما نلاقى فيصل وبورقيبه وحسين أصدقاء للاستعمار الذى هو صديق لإسرائيل؟... نفهم لماذا انقلبت الرجعية العربية على وحدة العمل العربى"؛ أى من أجل إسرائيل.

وثمة سمات إيديولوجية أساسية فى هذه النصوص بخلاف طبيعة الألفاظ المستعملة. **فأولا** يلاحظ تحول عبد الناصر إلى الرد بنفسه على الحملات الإذاعية، بما يدل على تزايد الأهمية السياسية للدعاية، وما يواكبها من الحاجة إلى تمييز المعسكرات بوضوح وبأكبر حدة ممكنة. ويظهر هذا الميل حتى عند من رفضوا استخدام الشتائم واتهامات العمالة المباشرة، مثل هيكل. فقد كتب أنه يوجد "فى العالم العربى اليوم (١٩٥٦) تياران من التفكير، تيار يقاوم الاستعمار وتيار يمالئ الاستعمار"، فكأن التيار الآخر يتصف بحب طبيعى للاستعمار. وفى نهاية الفترة لم يكن قد حدث سوى تغير طفيف يتناسب مع "الاشتراكية". فكتب فتحى خليل أنه "يمكن أن نقسم عالمنا اليوم إلى سياستين مختلفتين.. سياسة

اليمين العالمى.. وهى سياسة سرية تعتمد على التآمر... وسياسة القوى التقدمية العالمية وهى سياسة علنية تعتمد على العمل الصريح"، المرادف لكلمة الدعاية. واضعا بذلك التعارض السابق فى سياق عالمى.

وفى هذه النصوص، **ثانيا**، كانت العلاقة بالاستعمار هى محور الصراعات العربية. فاختُزلت الدول إلى وطنية وعميلة وفقا لـ"طبيعة" قادتها. وثمة ميل واضح لتفسير هذه العمالة بأبسط شكل، كنوع من العمل مقابل أجر تدفعه أجهزة المخابرات الاستعمارية. وتقدم هذه الإيديولوجيا صورة مشوهة للواقع، فهى لا تتحدث عن تعارض المصالح، ولا عن أثر البنى الاجتماعية الداخلية عند الدول العربية المحافظة، ولا تتناول توازنات القوى والمصالح فى إطار توازنات المنطقة ككل. وإنما تميل إلى تصوير المسألة كلها فى إطار أخلاقى، كصراع بين العملاء والوطنيين، أو الشرفاء والخونة، أو الأمناء ولصوص أموال الشعوب. وبرغم أن هيكل قد تجنب الشتائم كما رأينا، فإنه استخدم هذه الرؤية الاستقطابية التبسيطية. فمواقف نورى السعيد المؤيدة للأحلاف ليست فى كتابته سوى رغبة فى تكبيل الشعوب

العربية بما كبل به شعب العراق.. ومن هنا سأله مستنكرا: "لماذا تكرس جهدك لكى تفرض الذل على غيرك... حرام عليك بلادك، حرام عليك كل بلد عربى... أبعت للشيطان روحك... لماذا؟ تكلم يا رجل" (١٩٥٥). فليس ثمة أى تصور فى العالم سوى ثنائية الكرامة والذل، معروضة بوصفها مقياسا هو البداهة نفسها.

ووفقا للمقياس البديهى فإن الآخر لا بد أن يكون الشيطان مجسدا.. أو خادم الشيطان.. ولا وسط. وهكذا كتب هيكل فى عام ١٩٦٢ أن التاريخ سيقول عن ثورة ٢٣ يوليو فى سياستها العربية: "ما كان أنبلهم وقتها، لقد خرجوا كفارس وحيد يتحدى بمفرده قوى الشر والظلام والسيطرة والمجهول". ولا يمكن أن توجد مقارنة أصلا مع أى آخر: "الحق واضح وظاهر، وإننا نظلمه حتى بمحاولة الدفاع عنه... هل نحارب جماعة القش الطافية على سطح التيار... هذه الأدوات" الاستعمارية.

ومن جهة **ثالثة**، تبرز فى هذه النصوص نسبة السياسات والدول لأشخاص، بما يرسخ ضمنا فكرة الحاكم الفرد. فالحكام الأفراد عملاء.. وحتى بعض الدول المتقدمة اختُزلت

فى حكامها. فإيدن عند هيكل "فى حاجة لأن يكون عنيفا لأنه ضعيف!... يا حسرة الإمبراطورية التى لا تجد من يقودها غير هذا الرجل الأنيق فقط" (١٩٥٦). وشخصنة النظم وعمالتها فكرتان متكاملتان. فالكلام عن نظام عميل يتطلب بالضرورة اختزاله إلى شخص عميل له ملف فى جهة مخابراتية ما ويتقاضى مالا، لأن القول بأن الدولة أو النظام هو المستفيد من علاقته بالغرب يستدعى فكرتى المصالح والسياسة، وكلاهما سبق نبذه إيديولوجيا، لأنهما قد "يلوثان" إيديولوجية الطهارة الأخلاقية. وتستدعى المسألة بالمقابل نسبة النظم "الشريفة" لحكام شرفاء، أو ذوى كرامة.

ومن جهة **رابعة**، يلاحظ التركيز على إهانة النظم العربية المحافظة باعتبارها العدو الأساسى. وقد وضع هيكل منطق المسألة كالآتى: "إن انتصار الشعوب بالنسبة للمستعمر مجرد هزيمة له. أما انتصار الشعوب بالنسبة لعملائه وسماسرته فهو النهاية ذاتها"، وبالتالى فإنهم أعداء أكثر شراسة (١٩٦٢). ومع ذلك فقد انتقل الهجوم فى نهاية الفترة إلى الغرب نفسه مع اشتداد ضغطه على النظام الذى تفاقمت مشاكله الاقتصادية. ففى نهاية ١٩٦٤، حين بدأ التفكير فى

الأوساط السياسية الأمريكية فى قطع معونة القمح عن مصر، أساسا بسبب تدخل النظام فى الكونغو، أعلن عبد الناصر:

إذا كانوا الأمريكان بيفهموا إنهم بيدونا شوية معونة علشان يتحكموا فينا... أنا باقول لهم إحنا متأسفين... إذا دعى الأمر إن احنا نوفر ٥٠ مليون جنيه بنوفرها على الجزمة، ولا بتهمنا واللـه العظيم... أنا باقول هنا إللى [:الذى] سلوكنا مش عاجبه يشرب.. يشرب منين؟ (الجماهير: م البحر) يشرب من البحر... [و]اللى ما يكفيهوش البحر الأبيض بندى [:نعطى] له البحر الأحمر يشربه كمان... إحنا مش مستعدين نقبل من واحد أى كلمة، اللى بيكلمنا أى كلمة بنقطع له لسانه. كده كلام واضح.

وحين رفض الكونجرس قطع المعونة اعتبر أحد الصحفيين ذلك دليلا على الخوف "مما يمكن أن يصيبهم إذا نفذوا قرار [مجلس] النواب... صدق المثل.. ناس تخاف ولا تختشى!" (١٩٦٥). فالصراع هو صراع كرامة، ينتصر فيه الأكثر صلابة، وربما كان التعبير المناسب هنا هو "الأجدع"، فعلامة انتصاره هى تصلب مواقفه بصرف النظر عن أية خسائر، بل واستعداده للتضحية بالمصالح. فالأقوى فى هذه

الطبعة البطولية من الوطنية هو من يلقى بالحسابات عرض الحائط، أما من يتراجع بسبب الحساب فهو الضعيف. وبهذا المعنى كانت مصر الضباط أقوى من الولايات المتحدة.

وبعد شهور جاء دور ألمانيا الغربية، بسبب احتجاجها على زيارة رئيس ألمانيا الشرقية لمصر فى فبراير ١٩٦٥، وقطعها للمعونة الاقتصادية، ثم إقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل فى مارس. فقال عبد الناصر أن قولهم من قبل بإيقاف إمداد إسرائيل بالأسلحة كان كذبا، وبالتالى فهم:

لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون عندهم ذمة... باقول إن الأعمال الخسيسة.. سياسة الكذب والنفاق... هى السياسة اللى أثرت على الصداقة العربية [لألمانيا]... وبعدين أنا باقول إن الاتفاقيات اللى احنا اتفقناها إذا نقضوها، هم لهم عندنا ٧٧ مليون جنيه يبقوا يعرفوا ياخدوهم... احنا اللى نقدر نعاقب ألمانيا الغربية [بعدم السداد]... وبالنسبة لموضوع زيارة أولبرخت [رئيس ألمانيا الشرقية لمصر] نقول لهم: إسمعوا يا شطار. ما حدش أبدا قدر يعاقبنا.

وهكذا نكون بمنطق الذل والكرامة أفضل من الألمان الغربيين، فـ"إسرائيل ذلاهم، واليهود ذلينهم وممرمغين

وشهم فى التراب، بدل ما كانوا يحافظوا على كرامتهم قالوا إنهم قرروا الاعتراف بإسرائيل... واحنا فعلا حنعاقبهم جامد علشان ما يمشوش فى طريق الاستعمار... عايزين نشوف... مين فينا حيشد ودن التانى" (١٩٦٥).

وتكشف هذه النصوص عن طابع شعبوى بارز. فاللهجة المستخدمة هى لهجة العراك الشخصى.. ومفاهيم الشجاعة الفردية والاستهانة والقدرة على التحمل تُسحب على علاقات الدول. بحيث أن حرص دولة ما، أو هيئة سياسية ما على مصالحها، ورؤيتها للتوازنات المناسبة، يعتبر جبنا وخوفا أو حتى انتقاصا من استقلالها.. **بينما تعتبر التضحية بالمصالح دليلا على العظمة والاستقلال والسيادة والكرامة.** وبهذا المعنى كان الخطاب الضمنى أن الجمهورية العربية المتحدة بقيادة عبد الناصر أكثر استقلالا من ألمانيا وأكثر شجاعة من الولايات المتحدة، وأكثر سيادة بالتالى منهما معا. وهكذا فإن التعبير الأدق عن الاستقلال السياسى بهذا المعنى هو التعبير العامى: "الجدعنة". وما زال هذا المفهوم سائدا شعبيا حتى الآن، ويفسر الكثير من سياسات أجهزة إعلام وصحف شتى،

وتوجهات حزبية مختلفة، بل وقرارات سياسية لحكومات عربية عديدة.

وقد أدت المجابهة الإيديولوجية مع الغرب، وشيطنته على نحو ما رأينا، إلى جعل عداء الغرب فى حد ذاته قيمة إيديولوجية إيجابية فى الستينات، بحيث أصبح تواصل هذا العداء شهادة الاستقلال والوطنية، وبالتالى كان ثمة ميل لإخفاء التفاهمات مع الغرب، أو عرضها كخضوع قدمه الغرب للنظام المصرى. ويكفى أن المعونة الأمريكية لم يأت لها ذكر فى الصحف أو على لسان عبد الناصر وشركاءه فى السلطة قبل ظهور مشكلة قطع المعونة.

وكان ثمة إرهاصات لهذا الاتجاه الممجد للعداء للغرب فى "الأخبار". فقد فاخرت مثلا بمخاوف جريدة المحافظين فى بريطانيا من أثر تشكل محور مصر، السعودية، سوريا، على مصالح بريطانيا فى المنطقة (١٩٥٦). ولكن الفكرة ظهرت صريحة للمرة الأولى فى خطب عبد الناصر فى سوريا. فقد قال أن سعى فرنسا لتسليح إسرائيل "يطمئننا على قوتنا وعلى مكانتنا وعلى وجودنا"، فبذلك "نشعر أننا استطعنا أن نحقق فى الشهور القلائل القوة الكبرى التى تزعج

إسرائيل والصهيونية ومن هو وراء[هما]". وطبق التابعى الفكرة على السياسة الداخلية. فبشأن نقد الصحف الأجنبية لقانون "تنظيم" الصحافة، قرر أنه يكفى "هذا الموقف من صحف الصهيونية والاستعمار لكى يتبدد كل شك... فى أن قانون تنظيم الصحافة يهدف أول ما يهدف إلى تحقيق مصلحة كبرى للبلاد.. وإلى خير الصحافة والصحفيين". وبعد شهور كتب مصطفى أمين يدعو حكام العرب لقراءة تصريحات إسرائيل ضد النظام وعبد الناصر، وأن يستنتجوا منها أن وقوفهم ضده وقوف "ضد بلادهم وشعوبهم" (١٩٦٠).

ومع تفاقم مشكلات النظام فى اليمن أصبح عبد الناصر يستشهد بالصحف والإذاعات، لا السياسات: "الصحافة الرجعية والصحافة المتعاونة مع الاستعمار والإذاعات الاستعمارية والإذاعات الرجعية، كلها اليوم تساند حزب البعث وتهاجم هذه الثورة التى سارت ١١ سنة ورفعت المبادئ وصممت عليها وانتصرت... إذن حزب البعث يستطيع أن يسأل نفسه هذا السؤال: هل هو ماشى فى الطريق الصح واللا فى الطريق الغلط؟" (١٩٦٣). والمسألة

تتعدى موقف أو موقفين. فبصفة عامة أصبح هجوم الغرب ضمانة أساسية وتصديقا على وطنية السياسات المتبعة: "**يوم ما نصبح الصبح ونلاقى إن هذه المحطات** [الاستعمارية مثل الإذاعة البريطانية] **بتشكر فينا ما بتهاجمناش، يبقى لازم عملنا حاجة غلط**" (١٩٦٤). والهجوم أيضا دليل الأهمية: "ليه بيركزوا على مشاكلنا؟ طبعا لأننا مهمين... تأثيرنا يتجه أو يؤثر على كل العالم الثالث" (١٩٦٥). وهو أيضا دليل النجاح: "ومعنى إن احنا غايظينهم [:جرائد انجلترا] إن احنا ناجحين فى سياستنا" (١٩٦٦).

وهكذا فإن التحرر الوطنى هو مواجهة أبدية مع غرب استعمارى بشكل أبدى.. وهو صراع الحق فيه بين والباطل بين، والشر فى الصف الآخر. وهو ينبعث من كل تصرف وقول للطرف الآخر، حتى لو كان نقد تأميم الصحف. ويصبح العداء المتبادل فى أقصى حالاته وأكثرها غلاظة هو الوضع المثالى، ودليل النقاء الثورى، وأداة الحشد والتعبئة.. وبالتالى يصبح تخفيض نبرة العداء لسبب ما مشكلة سياسية كبرى للنظام.. على نحو ما سنرى.

* * *

وكان من شأن تزايد نشاط النظام فى المنطقة العربية تعمق هذه الاتجاهات، بما فى ذلك نشر المفهوم البطولى للتحرر الوطنى، وتزايد تورط النظام فى شعاراته الخاصة.

وقد بدأت إيديولوجية القومية العربية فى البداية بالدعوة لنوع من التضامن بين الشعوب العربية بغير تصور لوجود قومية عربية واحدة. ففى "فلسفة الثورة" نحن "مجموعة من الشعوب المتجاورة المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب". وهذه الشعوب، "كل منها فى بلاده قد تعرض لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التى ساقتها إلى الهزيمة [عام ١٩٤٨]"، وهناك عدو مشترك: "كنت مؤمنا أن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث – وما زال احتمال حدوثه قائما – لأى بلد فى هذه المنطقة ما دام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن". والخلاصة بالتالى هى أنه "ما دامت المنطقة واحدة وأحوالها واحدة ومشاكلها واحدة ومستقبلها واحد.. والعدو واحد... فلماذا نشتت جهودنا". وهكذا تصبح مهمة التضامن العربى قائمة على أساس التضامن فى مواجهة الاستعمار وإسرائيل.

وقد استطاعت سياسة النظام العربية بشعاراتها الشعبوية

أن تجتذب بالفعل قطاعات واسعة من الإنتليجنسيا العربية المتذمرة أصلا من النظم التقليدية التى تحكم بلادها. وكان أول مظهر لذلك تأييد حركات سياسية فى الأردن للنظام المصرى ورفضها لربط الأردن بالحلف العراقى التركى، برغم ارتباط الأردن تقليديا ببريطانيا. وقد أسفرت مظاهرات الأردن فى ديسمبر ١٩٥٥ عن سقوط الفكرة، ورأت الأخبار فى ذلك دليلا على "اتفاق الشعوب العربية فى كل المعارك والاتجاهات"، ونوهت بأهمية الدعوة لمؤتمرات شباب عربية لحشد هذه القوة الجديدة". وقد عزت بعض الصحف الغربية اضطرابات الأردن إلى تجنيد عبد الناصر لعملاء فى الأردن، أو لوسائل الدعاية التى يستخدمها، وعلى رأسها إذاعة صوت العرب، وأعلن عبد الناصر بصفة عامة متباهيا أن "الكلام اللى بنقوله هنا فى مصر بيكون له رد فعل فى كل مكان... أعوان الاستعمار عمرهم قصير" (١٩٥٧).

وقد لخص مصطفى أمين هذه القيم الإيديولوجية الشعبوية، وادعاء النظام تمثيل "الشعوب العربية"، على نفس النحو الذى يمثل فيه الشعب المصرى بغير آلية تمثيل، كالآتى: "مصر لم تتجه يوما إلى الحكومات، إنما اتجهت إلى

الشعوب. وبعض الحكومات نزلت عند إرادة شعوبها وتجاوبت معها فوقفت إلى جانبنا. وبعض الحكومات تخلت عنا وتخلت عن شعوبها... [مصر] هى روح القومية العربية الجديدة. فليس فى استطاعة أحد اليوم أن يفصل هذه الروح عن الشعب العربى" (١٩٥٧). وهكذا تصبح مصر الضباط هى روح الشعب العربى، فى عمومه، وبصرف النظر عن اختلافات قواه السياسية، وبالتالى فإنها تصبح مبدأ أعلى، فـ"الأمر أمر فكرة.. لا أمر زعامة.. إن مصر لا تقود الشرق العربى.. وإنما تعبر عنه فقط!" (١٩٥٧)، على غرار إيديولوجية "حكم الشعب" التى مرت بنا.

ولأن مصر الضباط هى الفكرة، فإن حكمهم هو الكنيسة، التى يغضب الخروج عليها الإله الذى هو الشعب. فـ"الرجل الذى خرج علينا فى لبنان [:شمعون] لم يستطع أن يجعل الجيش اللبنانى يحميه... والرجل الذى تخلى عنا فى الأردن [:الملك حسين] لم يجد جنديا عربيا يستطيع أن يطمئن إليه". وحين انتهت مدة رئاسة شمعون فى لبنان: "ذهب شمعون.. وقبل ذلك ذهب نورى السعيد وعبد الإله [:ملك العراق].. والبقية تأتى! ولن يبقى إلا الشعب العربى" (١٩٥٨)... ذو

الجلال والإكرام.

وتعنى مجمل هذه الرؤية أن النظام هو الممثل الوحيد للشعوب العربية والضمانة الوحيدة لصحة خط التحرر من الاستعمار. وتعميقا لهذه الرؤية كتب صلاح عبد الصبور (١٩٥٩) أن "جذور ثورة ٢٣ يوليو تمتد فى تاريخ البلاد العربية كلها... لأنها تمثلت تاريخ العرب الثورى كله وتلافت أخطاء الثورات العربية السابقة كلها"، محولا إياها لثورة عربية منذ قيامها.

وقد بدأت مشاكل النظام الإيديولوجية العربية مع رفض عبد الكريم قاسم بعد انقلاب العراق (١٩٥٨) الانضواء تحت لواء قومية النظام العربية. وكان هذا بمثابة إحراج قوى للنظام. فلأول مرة يظهر نظام عربى معادٍ، ولكن لا يمكن وصفه بأنه ينتمى إلى "الرجعية العربية"، فهو ليس نظام حكم تقليدى، بل قائم على انقلاب عسكرى على غرار النظام المصرى، كما كان أكثر شعبوية ويسارية، وإن لم يكن شيوعيا على ما أشاع النظام المصرى عنه للحد من نفوذه. وفى مواجهة التحدى الجديد من نوعه، حاول النظام أن يدعم انقلابا عسكريا مضادا فاشلا، قاده قائد عسكرى يدعى

الشواف، مما دعى قاسم إلى الهجوم السافر على عبد الناصر، بما فى ذلك قيام مظاهرات للأحزاب المؤيدة للنظام، والحزب الشيوعى العراقى خصوصا، تهتف ضد عبد الناصر، مما أدى، بعد سنوات من أمجاد احتكار تمثيل التحرر العربى، إلى شعور الأخير بالإهانة:

قاسم العراق أراد أن يدبر ضدنا المظاهرات... ونحن نقول إننا رغم هذا لم نغضب أبدا، ولم نشعر بالإهانة، لأن **الإهانة فى سبيل الرسالة هى شرف كبير**... أما الشيوعيين – أيها الأخوة – الذين قادوا المظاهرات فى العراق ووجهوا لنا الإهانات فإننا لم نغضب... لن يجدوا من يستجيب لهم إلا العملاء، لأن الشيوعيين عملاء...

وهكذا، وللمرة الأولى، سارت مظاهرات ضد عبد الناصر فى بلد عربى، بعد أن كانت تخرج لتؤيده ضد حكام الأردن أو لبنان.

وحين انسحب العراق من حلف بغداد قالت "الأخبار" أن ذلك تم بسبب "الحملة القوية التى وجهها جمال عبد الناصر"، فضلا عن أنه انسحاب شكلى حيث أن قاسم "عميل بروحين" لبريطانيا والشيوعية معا. وبعد قليل أضيفت إسرائيل للقوى

التى تسند قاسم، فـ"كل الشواهد تدل على أن حكام بغداد ليسوا إلا أداة تحركها الشيوعية الدولية والاستعمار البريطانى والصهيونية العالمية لتحقيق غرض مشترك... هو القضاء على القومية العربية". وتم سحب الولايات المتحدة من تحالف قوى الشر. ولكن الأهم من ذلك هو الميل إلى وضع كل أعداء النظام فى سلة واحدة، أيا كانت تناقضاتهم واختلافاتهم الجذرية، فبهذا وحده يوضع النظام فى البؤرة الإيديولوجية، فى صورة الضحية المحاطة بأعدائها، الذين هم فى الإيديولوجيا أعداء العرب جميعا، وتجرى محاولة استئناف احتكار تمثيل التحرر الوطنى العربى البطولى.

على هذا النحو كان طوق النجاة الإيديولوجى للنظام هو إلحاق نظام قاسم بطريقة أو بأخرى بالأعداء التقليديين الذين دشنت حركة التحرر الوطنى فى مواجهتهم. فاختلاف مصالح الدول المتحررة من الاستعمار كان مفهوما محظورا، ليس فقط لأنه يطعن فى زعامة عبد الناصر العربية، ولكن لأنه يضرب ضمنا أيضا إيديولوجية الشعب الموحد، وبالتالى فكرة "الزحف المقدس".

وتبنى عبد الناصر تدريجيا هذه الدعوى. فبدأ بالقول بأن

كل من إسرائيل والشرق والغرب ضد الجمهورية العربية و"سياستها المبنية على جمع العرب جميعا... ولهذا نجد التقاء بين الجميع فى محاولة للتأثير على شعب الجمهورية". وأضاف أن قاسم يتبع فى أحاديثه "الأساليب [الدعائية] القديمة التى اتبعتها إسرائيل"، و"عبد الكريم قاسم يعنى إذا ردد كلام بن جوريون يبقى إيه الفرق... لا استنتاج إلا أنه بيعمل لتحقيق أهداف الصهيونية، بيعمل لتحقيق أهداف الاستعمار". ثم جمع الشيوعية إلى الاستعمار: "انبرت القوى الأنجلو شيوعية... ليعملوا لإبادة القومية العربية فى العراق" (١٩٦٠).

وتعتمد هذه الطريقة فى تلويث المنافسين على أداة بسيطة، هى التسليم بأن النظام و"الشعب العربى" المطروح كقومية واحدة شىء واحد، فإذا هوجم النظام فإن هذا فى حد ذاته يعتبر دليلا على التحالف مع الصهيونية وبريطانيا، لأنهما بدوريهما يهاجمان النظام. وبهذه الطريقة يعتبر كل آخر عميلا بداهة. وفى الحد الأقصى، تفل قوة النظام استقطاب الحرب الباردة وتدفع لتحالف أنجلو شيوعى، كما رأينا، مناقض لبديهيات السياسة الدولية فى ذلك العصر. وقد

أجمل ممدوح رضا هذا المنطق وبسطه كالآتى: "فى المرحلة التى نخوضها اليوم **يجب أن تتوحد نظرتنا لكل من يعمل على تحطيمنا**" (١٩٦٢).

ومن نتائج هذا الشرخ الذى أصاب احتكار النظام للخطاب الوطنى المعادى للاستعمار تهديد جهوده لجذب الإنتليجنسيا العربية، التى تشكل الجمهور الرئيسى لفكرته ونظام حكمه الوطنى الاستبدادى. وكان الضباط قد سعوا منذ البداية لاجتذاب الإنتليجنسيا العربية، وخصوصا بإقامة معسكرات عديدة للطلبة العرب كان يخاطبهم فيها قادة النظام. وقد تظاهرت الإنتليجنسيا العربية بالفعل تأييدا لعبد الناصر فى الأردن عام ١٩٥٥ وفى لبنان عام ١٩٥٨. أما مع العراق فقد أحجمت القاهرة عن برنامج تبادل الطلبة، بحجة تباطؤ العراق فى اتخاذ الإجراءات. فالطرفان يملكان نفس السلاح، على طريقة الردع المتبادل.

وقد تعرض النظام لنفس الامتحان مجددا مع استيلاء البعث على السلطة فى ١٩٦٣ فى سوريا وتصفيته لأنصار "الناصرية" هناك. ومرة أخرى ظهر نفس الترياق الإيديولوجى، محاولة إلحاق حزب البعث بالاستعمار، فكتب

هيكل: "كل الدلائل تشير الآن إلى أن الحزب [:البعث] يبحث مضطرا عن سند غير قومى... والاستعمار اليوم على استعداد للقيام بنفس الدور الذى قام به الشيوعيون بالنسبة لعهد عبد الكريم قاسم". وألحق أحمد سعيد البعث بالأعداء التقليديين مباشرة: "الخوف الاستعمارى الرجعى البعثى والشيوعى أيضا من الحركة العربية الواحدة ألف بينهم فيما يشبه التنظيم الموحد" (١٩٦٣).

والخلاصة كما صاغها إحسان عبد القدوس أن النظام المصرى هو معيار الوطنية والثورية: فـ"الجمهورية العربية هى مركز القوة السياسية والعسكرية المضادة لإسرائيل والاستعمار... **فأى محاولة للانطلاق بعيدا عن المركز هى محاولة تضليل.. وهى محاولة لجذب الشعب العربى بعيدا عن معركته الحقيقية** ضد إسرائيل والاستعمار والرجعية والفقر والتأخر".. فبجرة قلم تم تعيين النظام معيارا للعروبة ومُثُلها وقضاياها ومستقبلها، بحيث تنتفى الحاجة للذم فى كل معارض للزعامة على حدة، تماما مثلما عين عبد الناصر نفسه ونظامه معيارا لمصالح الشعب. وكعادته، مد إحسان عبد القدوس الخطوط على استقامتها (١٩٦٢)، مستعينا بفكرة

الحتمية التاريخية:

التطور التاريخى فى منطقتنا تطور حتمى.. ومسئولية الجمهورية العربية المتحدة عن مساندة هذا التطور وحمايته، هى أيضا مسئولية حتمية.. وكما أن أحدا لا يستطيع أن ينكر حتمية التاريخ.. فإن أحدا لا يستطيع أن يعفى الجمهورية العربية من مسئولياتها.. **ولا الجمهورية العربية نفسها تستطيع أن تعفى نفسها**... [فهى] **مسئولة عن التاريخ**... ومقياس علاقة الجمهورية العربية بالحكومات هو مدى تمثيل هذه الحكومات لشعوبها.. كلما اقتربت حكومة من شعبها، اقتربت من خط الجمهورية العربية وحملت معها نفس المسئولية... ثم أن الجمهورية العربية لا تمثل حكومة فحسب... إنها تمثل ثورة... **تمثل تطور تاريخى حتمى يشمل المنطقة كلها**.. ومسئولياتها الثورية تتقدم على مسئولياتها كحكومة... فمسئولية الجمهورية العربية عن بناء مجتمعها هو جانب من مسئولياتها... ولكنه ليس كل مسئولياتها.

فالقدر ينادينا، بل يفرض علينا كل هذه النزاعات. والحال أن مجرد الاختلاف أصبح يعنى بالضرورة الإلحاق بمعسكر

الشر بطريقة أو بأخرى، مثلما انقسم المصريون فى الإيديولوجيا المحلية إلى "شعب"، و"أعداء شعب". ولهذا فإن الموقف الوسط أو المحايد أو المستقيل من الصراع على تمثيل العروبة مستحيل. فكما كتب إحسان عبد القدوس، "أنا لا أفهم كيف تقف دولة عربية موقف الحياد من قضية عربية... فالحكومات العربية... تنقسم إلى حكومات سلبية وحكومات إيجابية.. وإلى حكومات رجعية وحكومات متحررة.. وإلى حكومات تمثل شعوبها وحكومات لا تمثل شعوبها"، ولا وسط (١٩٦٣). وبهذه الأدوات الإيديولوجية المتكاملة تم ترسيخ مركزية الحكم المصرى كذات جامعة لصفات الخير العربى، بل وكمعيار له. ومن هنا فإن الذات إذا اتفقت مع الرجعية العربية فهذه سياسة حكيمة لصالح العروبة، أما اتفاق الآخرين فعمالة. وعلى هذا النحو تمت تربية مزاج عدوانى تبسيطى متعصب وجاهل، بمعنى أنه يجهل من حيث المبدأ معنى اختلاف المنطق والمصالح، ويروج لفكرة بطولية تقوم على الاستهانة بالأعداء وبالعواقب، وتعتبر خوض التحديات بشكل غير محسوب معيارا للوطنية.

وربما تجدر الإشارة مرة أخرى إلى أن التحليل السابق لإيديولوجية النظام الوطنية لا تعنى أنه كان يتحرك فى سياسته الخارجية بغير حساب، وإنما يوضح التحليل فحسب كيف بنى النظام وبلور هذا النمط الإيديولوجى، الذى تحول مع الوقت من سلاح يحقق به انتصارات على طول الخط إلى سلاح ذو حدين، وقوة يحسب حسابها، فرضت عليه قيودا، ودفعت به إلى خوض تحديات، ربما لم يكن ليختار أن يخوضها لو لم يكن قد أخرج المارد من القمقم، ورباه ليزيد طولا وعرضا. كان النظام وهو يحرج الآخرين يبنى محيطه الخاص، معبده الذى لا يستطيع أن يحطمه، ومن هنا لم يكن بمقدوره أن يفعل الكثير حين أخذت جدران المعبد تضيق وتنطبق على عنقه بالذات.

وسوف نرى فى الأحداث التى سبقت حرب يونيو ١٩٦٧ كيف لعبت فكرة الوطنية البطولية، والإحراج بها الذى مارسه النظام السورى وغيره من إذاعات المنطقة العربية دورا كبيرا فى دفع النظام إلى خوض الحرب برغم أنه لم يكن يستشعر كبير ثقة فى قدرته على الانتصار، الأمر الذى تدل عليه محاولاته الخجولة لوقف تطور الأزمة التى

أفضت إلى الحرب.

غير أن مركزية عبد الناصر فى هذه الإيديولوجية البطولية، وسنعرض لها حالا، كان لها دورها أيضا، فقد اتخذ منفردا قرارات التصعيد السياسى حين أُغلقت فى وجهه أبواب التراجع فى هيئة المنتصرين.. ولم يعد أمامه سوى انتظار ما ستأتى به المقادير.

*

البطل

اختصرت إيديولوجية "الزحف المقدس" الشعب بمجمله فى سلطة الضباط، وطرحت الاشتراكية هذه السلطة كسلطة الشعب الفقير ضد حكم الطبقة، وقدمت إيديولوجية الوطنية البطولية التحرر الوطنى تحت شعارات شعبوية جوهرها فكرة العزة والكرامة، المختزلة هى ذاتها فى النظام وسياساته الوطنية الشعبوية. وترسخ هذا كله بالسيطرة على وسائل الإنتاج الإيديولوجى. ونتناول الآن كيف تم اختزال هذه المنظومة نفسها فى فرد واحد، أصبح هو "القائد المعلم"، وبطل الفقراء، وبطل التحرر الوطنى؛ هو عبد الناصر.

نشأ نظام ٢٣ يوليو منسوبا للجيش، ولقائد، هو محمد نجيب، اكتسب شعبية واسعة، عمل على تنميتها بجولات وخطب فى طول البلاد وعرضها، واستطاع أن يثبت شعبيته حتى فى بلد مصطفى النحاس. وبخلاف محمد نجيب، كان يطلق على الحكام الجدد، على سبيل الذم، حكومة البكباشية. فبرغم بروز عبد الناصر على رأس مجلس قيادة الثورة وكرئيس للوزراء، فقد كان وضعه بين زملائه رسميا وضع

الأول بين الأنداد، فكانت القرارات تؤخذ عادة بالتصويت داخل المجلس. ومع ذلك، وكما لاحظ طارق البشرى، كانت قيادة عبد الناصر الفردية بارزة داخل تنظيم الضباط الأحرار منذ نشأته، وكثيرا ما كان زملائه يفوضونه فى اتخاذ القرارات فى اللحظات الحرجة، وكانت الأغلبية تنزل عن رأيها إذا تعارض مع رأيه. وكثيرا ما يقال أن عبد الناصر كان يستشير أعوانه والمختصين، غير أن "القيادة الفردية"، كما أوضح طارق البشرى، "ليست استبدادا بالرأى، بل هى استبداد بالقرار". وكانت فى الواقع بديلا "عن الوضوح الفكرى والسياسى" المفتقد، بسبب تعدد الميول الإيديولوجية لأعضاء مجلس القيادة، واجتماعهم على حد أدنى عام من التصورات، فكانت قيادته ضرورة تنظيمية، فضلا عن كونها موهبة شخصية.

وفى كل الأحوال من المعروف أن الأمر انتهى إلى أن مجلس قيادة الثورة حل نفسه بعد أن رشح عبد الناصر للاستفتاء عليه رئيسا للجمهورية عام ١٩٥٦، ليعلو بدرجات فوق زملائه، الذين ظلوا مع ذلك أقرب معاونيه، ويشغلون أهم المواقع معظم الفترة. وهكذا أصبح عبد الناصر عنوانا

للنظام فى عصره وبعد عصره، وأصبح العهد يعرف بالفترة "الناصرية"، واعتُبر الميثاق وفلسفة الثورة وخطب عبد الناصر مصادر فكرية لهذه الناصرية، التى صنفها البعض نظرية، أو منهجا سياسيا، أو رؤية للقومية العربية، أو نمطا من الاشتراكية.

ومن هنا اختُصرت إيديولوجية النظام فيما أصبح يعرف بـ"الفكر الناصرى"، وظهرت مقالات ودراسات عديدة عن هذا الفكر المنسوب لشخص قلما كتب بنفسه. وعلى سبيل المثال ظهرت دراسة ضخمة عن "نشأة وتطور الفكر الناصرى"(*)، جعلت من تطور أفكار عبد الناصر محور تاريخ الفترة، وانتهت بخلاصة عامة عن "الناصرية مفهوما وإطارا إيديولوجيا عاما". غير أن مركزية عبد الناصر ليست من نصيب المتعاطفين وحدهم. فمثلا قرر كاتب من التيار الإسلامى أن "الطابع المميز للحكم الناصرى... [هو] الوثنية السياسية.. الوثن هو ناصر"، و"لما أحس ناصر أن وثنيته كادت تُكشف كوثنية حاول أن يجعل لنفسه نظرية. وضع

(*) بثينة عبد الرحمن التكريتى، ط١ (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٠).

الميثاق.. ومكن له فى الأرض"، فاختزل الميثاق بكل ما دار بشأنه من صراعات إلى مجرد غطاء لسلطة فرد، اعتبره أساس النظام.

على هذا النحو اكتسب اسم عبد الناصر، أو ناصر، أو "الريس"، أهمية إيديولوجية خاصة، عكست بلا شك وضعه المركزى داخل النظام. وتطلق الأدبيات السياسية على هذه الظاهرة عادة مصطلح **الكاريزما** charisma، الذى صك ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤- ١٩٢٠)، عالم الاجتماع الألمانى، استعماله الحديث، ليعنى به نمطا من السلطة مختلف عن النمطين التقليدى والعقلانى، يقوم على حاكم أو قائد لا يعتمد على سلطة تقليدية موروثة أو نظام عقلانى له قواعد راسخة، وإنما على إيمان المحيطين به وثقتهم فيه، كصاحب رسالة، أى على أساس عاطفى. وهو يطلب منهم بالمقابل إخلاصا مطلقا لشخصه، ويمارس من خلال ذلك قدرا غير محدود من السلطة، لا تحد منه تقاليد سياسية أو قواعد أو سوابق. فالقائد الكاريزمى يقود بشخصه، وعلى أساس مواهبه الخاصة، ويعتمد على إيمان أتباعه برسالته وبأنه يجسدها. ولهذا كله اختار فيبر للظاهرة

مصطلحا دينيا. فالمصطلح فى أصله يشير إلى نعمة أسبغتها السماء على فرد.

وبهذا الشكل فإن الأمر يبدو وكأن فيبر يقول بأن الكاريزما نابعة من الشخص نفسه. غير أنه يشخص فى الواقع نمطا من السلطة، ولذا يقول فى نفس الوقت أنه يعتمد على بيروقراطية تتولى انتزاع السلطة من القادة التقليديين على مستويات مختلفة من المجتمع، وأن الكاريزما نمط انتقالى، ينتهى إما إلى النمط التقليدى أو العقلانى، من خلال "عقلنة الكاريزما"، بتجسيد سلطة هذا النبى فى مؤسسات.

غير أن سلطة يوليو لا يمكن اختزالها فى مصطلح الكاريزما. فهو من جهة مصطلح فضفاض، يجمع بين الأنبياء والسياسيين، ويسم نظما سياسية مختلفة تماما، من الفاشية والنازية، اللتان قامتا على أحزاب قوية، إلى قادة حركات جماهيرية واسعة كغاندى، إلى قائد مجموعة محدودة استولت على السلطة، مثل حالة عبد الناصر. وتجمع سلطة يوليو بين عدة سمات، منها سمة **الكوربوراتية** corporatism، وأعنى بها هنا النظام السياسى القائم على تمثيل الطبقات والفئات الاجتماعية من خلال منظماتها النقابية

والمحلية وما شابهها، وبالتالى صياغة سياسات وإيديولوجيا قائمة على المطالب النوعية. والتى تجسدت فى مبدأ توظيف الجماعات والطبقات الاجتماعية لصالح ما اعتبره الضباط "الصالح العام"، وقيام سياستهم الاجتماعية على فكرة التوازن الطبقى، فضلا عن إخضاع كافة مؤسسات المجتمع المدنى لقبضة الدولة، ورقابة الأجهزة الأمنية، بما أدى إلى قصر التعبير عن المصالح النوعية على القنوات البيروقراطية.

ويمكن أن يوصف نظام يوليو من جانب آخر بأنه **بونابرتى**. والبونابرتية تشير إلى ظاهرة استيلاء مجموعة، هى فى أساسها هامشية اجتماعيا، على السلطة بقيادة زعيم بارز بينها، فى ضوء حالة من العجز السياسى العام، أو توازن الضعف بين القوى السياسية المختلفة، بحيث لا يستطيع أحد الأطراف الأساسية المتنازعة أن يزيح الآخرين ويتولى السلطة. ويتجه البونابرت إلى تعليق الحياة السياسية، ويواصل سلطته من خلال الحفاظ على التوازن الاجتماعى الذى أنتجها، بإجراءات مباشرة، يتخذها بواسطة بيروقراطية كبيرة العدد. ولا شك أن الوضع فى مصر قبيل انقلاب الضباط كان يتسم بتوازن الضعف؛ ولا أدل على ذلك من

قدرة هذه المجموعة محدودة العدد من الضباط على أن تطيح بكل القوى السياسية بغير مقاومة عنيفة.

وهكذا لا يمكن فهم ما تعنيه الكاريزما تماما فى الوضع الملموس لمصر منتصف القرن العشرين وما بعده إلا بالاستناد إلى تحديد أوسع لطبيعة النظام السياسى. فبمقتضى البونابرتية السياسية، والكوربوراتية على مستوى السياسات الاجتماعية، واستنادا لبيروقراطية متضخمة، يمكن فهم احتفاظ زمرة محدودة من الضباط بالسلطة، ونجاحهم فى توسيعها من خلال الاعتماد على عدد متزايد من الكفاءات والموظفين الذين تحولوا إلى فهم القرار السياسى كمجرد عملية من نقل الأوامر وفقا للتسلسل الإدارى، تستند لإرادة زمرة من الحكام. فلم يكن كبار الموظفين، أو حتى الوزراء المدنيين، الأكفاء وغير الأكفاء، الذين استعان بهم النظام يشاركون فى تحديد وجهة النظام ككل وسياساته الكبرى. ولكى يتحرك هذا الجهاز الذى اختُزل إلى تسلسل من الأوامر الإدارية، يجب أن تركب فوقه رؤية ما توجهه. وكان هذا على وجه التحديد دور جمال عبد الناصر وزمرته من الضباط وكبار معاونيه، ومنهم هيكل، أى تحديد مصالح

النظام كنظام. فالبيروقراطية لا تستطيع أن تحكم بغير هذا الرأس، لأنها تفتقر إذا تُركت لذاتها إلى الإحساس بالوجهة أو الهدف.

غير أن كل سمات حكم الضباط هذه لا تُنتج تلقائيا الكاريزما. وسوف نتتبع هنا بروز ظاهرة البطل الفرد الذى يجسد بسلوكه وسماته الشخصية، بل وبشكل جسمه، معنى نظام وشرعيته.

يروى عبد اللـه الطوخى، الأديب والصحفى الماركسى، أنه فى أوائل الخمسينات كان يكن "الكراهية والحقد المقدس" لعبد الناصر، الذى وضعه مع زملائه الشيوعيين فى السجن بسبب رفضهم للنظام، وكان يطلق عليه لقب "ذو الأنف الكئيب"، ربما نقلا عن الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور، الذى غير موقفه بعد ذلك. وقد طال هذا التحول الطوخى بدوره: "بقدر ما تطرفت فى كراهيته فى تلك الأيام الأولى، بقدر ما تطرفت أيضا فى حبه فى الأيام الأخيرة... بلغ بى هذا الحب أنى بت أرى فى ضخامة الأنف نوعا من التميز والجلال". بل قال: "محال أن تكون صدفة.. [فـ]منطق التاريخ... أن يخرج من هنا [:الصعيد] أول محرر لمصر

فى تاريخها الحديث.. أسمر.. شاهق البنيان". فالسياق السياسى لا يغير المشاعر تجاه السياسات والتصرفات ونظم الحكم فحسب، بل يغير الحاسة الجمالية ورؤية الجسد.

غير أن التغيرات فى شعبية عبد الناصر أعم من أن تتعلق بالشيوعيين، أو حتى بالنخب السياسية عموما. فالضباط لم يكونوا مقبولين لدى قطاعات واسعة. ولا توجد استطلاعات رأى لمعرفة مدى قبول عبد الناصر على أساس إحصائى، ولكن ثمة شواهد على أنه لم يكن فى البداية محبوبا. فمن جهة كانت علاقاته المباشرة بالجماهير متوترة، برغم أنه كان يخطب فى سرادقات أعدها رجاله فى هيئة التحرير، فكان كثيرا ما يأمر الحضور بالصمت بشكل عصبى وحاد. فمثلا فى خطابه بمناسبة العيد الثانى للثورة استغرق وقتا طويلا فى "إسكات" الهتافات: "أيها المواطنون. يجب أن نتمسك بالنظام... ويجب أن نكف عن الهتاف... أقعد من فضلك... حد يقعد [:يجلس] الناس اللى واقفين هناك دول... أيها المواطنون: أحييكم وأرجو أن تعلموا أننا اليوم لا نريد هتافا ولا نريد تصفيقا؛ لأننا سنتحدث معكم عما قامت به الثورة وعما ستقوم به الثورة... إخوانا اللى واقفين

هناك. أقعد من فضلك... إخواننا اللى بيهتفوا هناك يقعدوا". وفى خطاب آخر: "أرجو أن نستمع بدون هتاف. أنا عايز نسمع الكلام اللى بيتقال ونفهم... جرى إيه يا أخينا انت [الخ]" (١٩٥٤). ومن جهة أخرى لدينا شهادة مهمة كتبها مصطفى أمين، وله مساهمات مهمة فى بناء شعبية عبد الناصر، وقت أن كان من أشد المتحمسين له. فقد كتب تعليقا على حادث المنشية (أكتوبر ١٩٥٤):

من كل قلبى أشكر الجانى الذى أطلق على جمال عبد الناصر ثمانى رصاصات! إنه صنع ما لم يستطع جميع أنصار 'عبد الناصر'... أن يصنعوه. إنه أزاح الستار عن جمال 'الإنسان'! ولقد كنت أعرف أناسا لا يحبون جمال عبد الناصر 'للـه فى للـه'!... وكان بعض الذين يعرفون جمال عبد الناصر... يحزنون لأنهم فشلوا فى إقناع الناس بحقيقة هذا الإنسان. هذا الرجل الخجول... تصوره الأوهام... بصورة الجزار!

أما الجانى، فقد جعل الناس "يتحدثون عنه كأسطورة... فوجئوا به **بطلا**"، لا جزارا. كان مصطفى أمين، قبل أسبوع واحد من الحادث، يحاول إقناع الناس بأن عبد الناصر حاكم

طيب، وليس ديكتاتورا، فكتب متجاهلا حالة غير مسبوقة من القمع المكثف والتسلط: "إن هذا القلب يتسع للناس جميعا... الذين أيدوه والذين حاربوه... ولكنه فى هذا حائر بين قلبه وبين مصلحة الوطن... لا يريد أن يفتح الأبواب التى قد يدخل منها أعداء الوطن فهو يعلم أن فترة العشرين شهرا القادمة [:حتى الجلاء] هى أخطر فترة فى تاريخنا". ولكن بدلا من صورة الرجل الطيب المحب لأعدائه وللشعب، التى ربما كانت تستوحى صورة محمد نجيب، كانت صورة عبد الناصر التى بدأ تدشينها بحادث المنشية هى صورة **البطل**. فبعد صوت الرصاص خطب فى الحضور، فخرجت الكلمات توحد بينه وبين الشعب، فى إطار فكرة العزة والكرامة. ولكن ليس على قدم المساواة:

أيها الأحرار. فليبق كل فى مكانه. دمى فداء لكم... أنا لست جبانا... فليقتلونى. فقد **وضعت فيكم الكرامة**. فليقتلونى. فقد أنبت فى هذا الوطن الحرية والعزة والكرامة من أجل مصر... إذا مات جمال عبد الناصر **فليكن كل منكم جمال عبد الناصر**... متمسكا بالمبادئ والمثل العليا... إذا كنت قد

نجوت اليوم فبعون اللـه لأزيدكم حرية ولأزيدكم عزة ولأزيدكم كرامة.

وبديهى أن إلقاء هذا النص فى تلك الظروف (ولا ندخل هنا فى مسألة المدبر الحقيقى لحادث المنشية) أخذ طابعا بطوليا واضحا.. ولكنها بطولة مقترنة بسيادة سيد يلخص معانى العزة والكرامة فى شخصه ويعلمها لشعب يجهلها، أو كان يجهلها حتى جاءه عبد الناصر. وهى مهمة لن تنتهى لأنه سيزيد الشعب حرية وعزة وكرامة بعد نجاته، فيما قال. وفوق ذلك فإنه لا يقبل ثمنا لقتله أقل من أن يجعل من الـ٢٣ مليون مصريا نسخا منه، أو بالأصح أتباعا.

ويبدو أن عبد الناصر تنبه للإهانة الفاجعة التى وجهها للشعب، متمثلة فى الصورة المتعجرفة للمانح الأعلى للعزة والكرامة، فأبرز بعد أيام جانبا مساواتيا: "إن كل فرد منكم يمثل أهداف جمال عبد الناصر، لأن جمال عبد الناصر لم يمثل إلا أهدافكم أنتم"، فاستعاد السيد وحدته مع الشعب، فى صورة ممثله. وتركيزا على معنى هذه الوحدة فى إطار إنجازات النظام ككل، كتب مصطفى أمين أن الرصاصات "كانت موجهة إلى مصر كلها... إلى ملايين الفلاحين الذين

أراد أن يحولهم من معدمين إلى ملاك... إلى سمعة مصر التى ارتفعت فى جميع أنحاء العالم وإلى أمانى العرب التى نادى بها". وهكذا كانت رصاصات المنشية مناسبة لتلخيص النظام ومصر كلها فى شخص، فارتفع عبد الناصر درجة فوق زملائه. فقد أصبح هو بذاته، لا النظام ولا الثورة، صانع العزة والكرامة، ومانح الأرض للفلاحين، وعنوان سمعة مصر وأهداف العرب. كانت هذه لغة جديدة وقتها.

غير أن بطولة المنشية كانت بطولة شخصية، كما أنها ارتبطت بقضية خلافية، هى عقد معاهدة الجلاء. أما الصورة الإيجابية فقد دعمها حضور مؤتمر باندونج باعتباره تحديا للقوى الاستعمارية. ولكن المؤتمر كان أيضا مناسبة أتاحت التركيز على المناقب الشخصية لعبد الناصر، ونسبة قدرات فائقة له، بداية بعبقريته الدبلوماسية. وكانت الأخبار هى البادئة بمانشيتاتها: "عبقرية ناصر الدولية/ عبد الناصر ينقذ المؤتمر من الفشل"؛ "نهرو [رئيس وزراء الهند] يقول: نجاح المؤتمر نجاح شخصى لجمال عبد الناصر/ لولا جمال عبد الناصر لفشل مؤتمر باندونج/ شواين لاى يطلب نسخة من فلسفة الثورة". وكتب هيكل بعد عودته مشيدا بشخص عبد

الناصر وصوره كأهم زعماء المؤتمر على الإطلاق، حتى أن شواين لاى، الزعيم الصينى، كان يجلس منتظرا حتى يفرغ له عبد الناصر من مشاغله، كما كانت الشعوب تهتف باسمه (مشيرا إلى تقاليد حشد السكان لاستقبال الزوار الأجانب فى بلاد العالم الثالث والتى طبقها النظام نفسه من بعد مع زواره).

وبرغم أن عبد الناصر قد استُقبل استقبالا جماهيريا عند عودته، أعدته له الأجهزة المعنية، فإن تحوله إلى بطل قومى لم يتحقق إلا بتأميم قناة السويس عام ١٩٥٦. وقد عكست الكتابات الصحفية هذا التحول، فكتب المعارض الليبرالى خالد محمد خالد مثلا: "إن هذا الرجل حدث تاريخى ضخم، هو الإطار الحى للمرحلة العظمى فى تطورنا"، إن "الرجل الذى يتحدث الآن باسمهم [:العرب] هو جواز مرورهم إلى المستقبل.. واسمه هو 'كلمة السر' بينهم وبين التاريخ... المفهوم التاريخى له أنه **الخلاصة المركزة لخمسة آلاف عام** بكل تجاربها". وهكذا انتقل خالد من موقف المعارضة لما يشبه التأليه.. أو الرغبة فى التوحد الكامل مع فرد، تم تتويجه لا كسياسى، ولا حتى كزعيم، وإنما كخلاصة تاريخ

شعب.

وبصرف النظر عن الصياغات، فقد فجر القرار بالفعل مشاعر عارمة بالفرحة والفخر والولاء لعبد الناصر بشخصه، بقدر ما كان قراره تعبيرا عن مفهوم العزة والكرامة الوطنية.. وقد ساهم فى شخصنة القرار انفراده بإعلانه بشكل مفاجئ فى مؤتمر جماهيرى مذاع، وبعد مداولات فى غرف مغلقة.. فصدر من البداية منسوبا لشخصه. وقد قدم هيكل وصفا لمشهد استقبال عبد الناصر فى ميدان التحرير، عائدا من الإسكندرية بعد إعلان التأميم:

بحرا من البشر، وأصوات الميكروفونات تهدر.. وأناشيد وطنية.. وهتافات منطلقة.. احتشد الناس صفين... كثيفين... وفجأة دوت الصفارة التى تسبق الموكب. وكان المنظر الذى لا أنساه طول عمرى... بدا الموكب من بعيد... ثم حدث شىء مهيب... النهر العريض المتدفق من هذه الناحية، والنهر العريض المتدفق من الناحية الأخرى انطبقا على بعضهما البعض... طوفان!.

كان ثمة إذن ترتيبات اتخذتها أجهزة الدعاية، بما فيها ميكروفونات لإشاعة الحماسة بين الناس وجمعهم، فلم تكن

المسألة عفوية تماما. ولكن الحماس الجماهيرى تجاوز الترتيبات والنظام. كان تحدى الاستعمار والثأر من إهاناته قاسما مشتركا وحد الناس مع عبد الناصر، وأثبت أن الطبعة البطولية للوطنية تلقى صدى خاصا عند قطاع واسع من المصريين. وبعد عام ونصف، حين أراد مجلس الأمة أن يكرم عبد الناصر، اختار له لقب "**محرر الوطن**". وهكذا ولدت كاريزما عبد الناصر مرتبطة بالبطولة الوطنية، وبتحويل إيديولوجى مهم فى رؤية تلك القضية التى كانت الشغل الشاغل للمصريين، ومعها قضية الدستور، منذ ثورة ١٩١٩. فإذا كان النظام قد أخفق فى القضية الثانية، فإنه حقق على الجبهة الأولى أملا قديما للناس.

ومنذ ذلك الحين أصبح عبد الناصر رمزا للتحرر الوطنى البطولى، ومصدرا لفخر مواطنيه، الذين أصبح بإمكانهم أن يشعروا بالعزة والكرامة فقط عن طريق التوحد معه، على نحو ما يتوحدون مع أبطال السير الشعبية، أى كمستمعين. وربما يقدم النص الآتى، المنشور فى الأخبار عام ١٩٥٦، صورة واضحة للفكرة السائدة:

هل هذا ممكن! هل كان يخطر ببال أحد أن يخرج مصرى من قرية بنى مر **ويهز العالم** فتسرع الدول الكبرى لعقد الاجتماعات وتحشد الأساطيل وتجهز الجيوش... وينطق بكلمة واحدة فتنهار أسهم البورصة فى نيويورك ولندن وباريس. ويؤمم شركة مصرية فيقال أنه **حكم على الإمبراطورية البريطانية بالإعدام وأنهى بجرة قلم إمبراطورية فرنسا وراء البحار**... لا نظن أن مصريا رأى فى المنام مثل هذا الحلم... لقد عشنا عشرات السنين نرى بلادنا يحكمها الأجنبى.

فعلى غرار أبطال السير الشعبية الذين يأتون بالمعجزات، أصبح عبد الناصر وكأنه يحكم العالم، ويأتى للشعب بحقوقه بقدراته الخاصة.

وفى المنطقة العربية، جعل نصر ١٩٥٦ السياسى من عبد الناصر الأسطورة العربية. ولعل أوضح تعبير عن صورته البطولية العربية ذلك الحماس المذهل الذى قوبل به فى سوريا عام ١٩٥٨. فبرغم شعبيته الكبرى فى مصر بعد تأميم القناة وحرب السويس، كان ما شهده فى سوريا مختلفا تماما. فاستقباله فى دمشق وفقا لهيكل كان:

ببساطة 'شيئا لم يحدث من قبل'. معناه أن هذه الأمة كانت تبحث عن 'بطل'، فلما عثرت عليه... تفجرت المشاعر المكبوتة فى أعماقها منذ قرون طويلة... لم يكن مجرد سياسى أو قائد أو زعيم، ذلك الذى كانت مئات الألوف يقفون فى ساحة الجلاء منذ الصباح الباكر إلى ما بعد منتصف الليل، ينتظرون أن يخرج إليهم لخمس دقائق أو عشر... لقد أحسست فى دمشق أن كل سجل جمال عبد الناصر من الأعمال لم يكن... انتصارات وطنية فحسب. وإنما كانت هذه كلها فى مشاعر الأمة العربية 'إشارات'. **إشارات معناها أن اليوم قد جاء. وأن 'البطل' قد ظهر.**

كان عبد الناصر هناك إذن، للمرة الأولى نبيا، أو مهديا منتظرا خالصا. فمن وجهى البطل والمستبد لم ير فيه السوريون الذين استقبلوه سوى الوجه الوطنى البطولى. فبويع هناك **كخليفة لصلاح الدين**، على قبره، لا كرئيس ولا كزعيم. وأعلن عبد الناصر للمصريين بعد عودته: "النهارده الشعوب هى اللى بتصنع مقدراتها... مش أنا اللى صنعت الوحدة بين مصر وسوريا... النهارده وأنا واقف بينكم وبعد عودتى من سوريا، وبعد ما شفت الشعب السورى، وبعد ما

حققنا الوحدة أقول أن **الزحف المقدس** بدأ... دور القيادة ليس إلا إزالة العقبات". وعلى النقيض من ضيقه بالحشود الهاتفة فى السرادقات المصرية، التى كان يعرف كيف جىء بها، أخذ عبد الناصر يتغنى بهتافات الشعب السورى وانفعالاته: "إن قوتكم أيها الأخوة المواطنون إنما تظهر من انفعالكم الدائم" (اللاذقية ١٩٦٠). فقد كان صعبا رفض طوفان العبادة. وعلى هذا النحو أصبح عبد الناصر رمزا عربيا، لا مصريا فحسب. وعلى هذا النحو ساهمت شعبيته العربية فى رفعه درجات فوق "الشعب العامل" المصرى.

وسنحاول الآن استكشاف السمات الإيديولوجية لهذا النمط من الزعامة الذى يجمع بين البطولة والاستبداد.

مدح عبد الناصر من نواح كثيرة، منها مدح شخصيته. وكان هيكل، كما رأينا، رائدا ومعه محمد التابعى فى صياغة صورة المهارات الخارقة لعبد الناصر. ولكن بصفة أعم من مسألة جهوده فى باندونج، اعتبره هيكل مثالا للرجل الذى "يؤمن بنفسه"، فـ"يؤثر فيمن حوله... وقد يمتد تأثيره ليشمل وطنه كله، وقد يمتد إلى العالم الواسع".

ولكن التابعى، وهو الصحفى الأقدر فى مصر آنذاك على صياغة المفاهيم الشعبوية للبطولة شبه الدينية، هو الذى وضع الفكرة الرئيسية هنا: إن عظمة عبد الناصر نابعة من نفسه، وبصرف النظر تماما عن سلطاته، أو حتى بلاده، فهو "رئيس دولة... لا تزال معدودة من الدول الصغرى... ولكنه – الرئيس ناصر – كبير وعظيم... لأنه هو نفسه كبير وعظيم.... وقال لى مرة دبلوماسى عراقى كبير: 'لو أن جمال عبد الناصر كان مواطنا عاديا... لما كان أقل هيبة واحتراما فى النفوس'" (١٩٥٨). ولهذا ليس صحيحا أن نجاحه يعكس بيئة وطنه، "ولو لم يوهب شجاعة غير عادية لما استطاع أن يفكر حتى فى مجرد تغيير الأوضاع... البيئة... لم تكن مستعدة استعدادا تاما لتقبله" (١٩٥٩). وهكذا تم فصل عبد الناصر عن النظام الذى أنتج سلطته، ليصبح النظام وسياساته، على العكس، نابعا من ذاته، على نحو ما قرر هو أنه مانح العزة والكرامة. وفى هذا التصور الأسطورى تُمحى قدرته على استثمار قدر هائل من موارد البلاد فى السياسة الخارجية بحكم سلطته، وكذا طبيعة النظام

الذى وضعه موضع الزعامة، ومجمل إيديولوجية التحرر الوطنى السابقة على الانقلاب.

وبالتالى أصبحت أهمية الشعب فرعا من أهمية رئيسه، فعلى لسان حسين الشافعى، فإن "الشعب أيضا [مثل الرئيس] موضع تبجيل واحترام لأنه هو الذى أنشا جمال عبد الناصر" (١٩٦٤). وسواء كان الشعب، مشكورا، هو صانع البطل، فيما قال الشافعى، أو أن البطل صنع ذاته ثم أخذ يصنع الشعب على صورته ومثاله، فإن الشعب يظل يتراجع بمسافات خلف البطل، الذى يصبح خلاصة تاريخ وعصارة أمة، ويكون دور الشعب هو الحمد والشكر والانبهار.

وكان الإخلاص للمبدأ على رأس الصفات التى قدمها عبد الناصر عن نفسه، وقدمها عنه أنصاره، كفرع من تقديم النظام نفسه بشكل أخلاقى. فقرر محمد التابعى أن جميع زعماء مصر قالوا "أنا"، وداهنوا الاستعمار أو السراى أو الإقطاع أو الفساد، "إلا رجلا واحدا... جمال عبد الناصر"، "ومن هنا سوف يقرر التاريخ الصادق الأمين أن هذا الرجل... الفلاح ابن الفلاح.. هو أكبر زعماء مصر شأنا". وأضاف إحسان عبد القدوس أن "مقياسه [:عبد الناصر] فى

كل كلمة يقولها هو: مبادئه... أكبر قوة تتساوى عنده بأصغر دولة فى ميزان المبادئ" (١٩٦٠). وبصفة عامة فإن "جمال عبد الناصر يستمد قوته من... المبادئ.. جمال ليس فردا، ولكنه مبدأ" (١٩٦٢). وهكذا أصبحت فكرة دولة المبادئ التى روج لها الضباط مجسدة فى شخصه.

وكان مؤتمر الاتحاد القومى عام ١٩٦٠، مناسبة لاكتشاف جانب آخر من قدرات الزعيم، حيث كانت المرة الأولى التى يدخل فيها فى مناقشات علنية. فقال أنيس منصور إن "عيناه بطاريتان تنطلقان بيننا تفتش عن شىء فى نفوسنا.. فى عقولنا.. شىء لا نعرفه... وعند الرئيس ناصر ذاكرة غير طبيعية". وقالت "روز اليوسف" أنه "كان ينتقل من لجنة إلى لجنة... وتُذهل كيف يستطيع الرئيس أن يحتفظ بكل هذه التفاصيل والأرقام فى ذاكرته... [و]يجد لكل مشكلة حلا". وقرر إحسان عبد القدوس أن عبد الناصر هو الذى يضع فلسفة "مبادئنا واتجاهاتنا السياسية ويشرحها ويحللها" (١٩٦١).

وبمناسبة مناقشات اللجنة التحضيرية عام ١٩٦١ أطلق عليه هيكل للمرة الأولى اللقب الذى سيلتصق به أكثر من

غيره: "**القائد المعلم**"، فقد "رأيناه من قبل فى دور القائد... ونحن نسمعه اليوم فى أروع أدواره جميعا وهو دور المعلم. إن أقصى ما يستطيع أن يرتفع إليه قائد... هو أن يصبح **معلما لشعبه**". وكتب آخر أن الناس ذُهلوا وهم يتابعون "حدة الذهن وصفاء التفكير والقدرة على الإفحام". وكأن هذا "الإفحام" منفصل عن سلطته، وناتج عن ارتفاع قدراته الفكرية فوق جموع المثقفين الذين حضروا المناقشات، ناهيك عمن "استُبعدوا" فى السجون أو غيرها.

وبهذه الصفات الخارقة كلها ارتفع عبد الناصر درجة أخرى فوق "شعبه"، ليصبح مبعوث العناية الإلهية؛ ففى قول حسن إبراهيم، أحد قادة الضباط الأحرار: "منحنا اللـه القائد الذى يحس بآلامنا وينفعل بمشاعرنا ويعبر عن رغبتنا وإرادتنا" (١٩٦٣). وتساءل التابعى: "ماذا كنا [سنصبح عليه] اليوم لولا أن بعث اللـه إلينا بهذا الرجل الذى رفع رءوسنا فى العالمين" (١٩٦٤).

وفى مجال الصفات الشخصية يمكن أن نلاحظ هنا أن عبد الناصر لم يكن يواجه بعد تصفية النظام القديم مشكلة حقيقية. فباستقرار السلطة للضباط كان منافسوه المحتملون

كوادر ليست لها تجربة سياسية مهمة، فصلاح سالم وكمال الدين حسين، مثلا، لم يسبق لأحد منهم أن شغل مكانة مهمة فى أى تنظيم سياسى، أو مر بخبرات سياسية تُذكر. وقد فقدوا أى نفوذ خاص بعد إبعادهم عن الجيش واقتسام عبد الناصر للسلطة الفعالة مع صديقه عبد الحكيم عامر.

وكان عبد الناصر غيورا على مكانته الإعلامية. وتحفل مذكرات الضباط الأحرار بتعليقات عبد الناصر السلبية عن كل من يبرز منهم فى الإعلام، مثل صلاح سالم عام ١٩٥٥. وبعد الاستفتاء عليه رئيسا للجمهورية وفقا لدستور ١٩٥٦، أصبح يطلب من رفاقه أن يخاطبوه رسميا بصفة "الريس"، لا باسمه كما اعتادوا. وقد فوجئ خالد محيى الدين الذى كان منفيا برتبة سفير بهذا التحول حين عاد عام ١٩٥٦، واضطر أن يخضع للتقاليد الجديدة فى النهاية(*). وبناء على هذا شهدنا تصريحات الضباط التى مرت بنا والتى تنسب البلاد كلها

(*) والطريف أن الموقف تكرر فى سياق مختلف تماما، حين كان الفنان أحمد زكى يستعد لأداء دور عبد الناصر فى فيلم "ناصر ١٩٥٦"، فقد طالب المحيطين به بنفس المطلب، أى أن ينادوه بصفة "الريس"، حتى يستطيع أن يتقمص دور الزعيم.

لعبد الناصر.

وتكاد تُجمع المصادر على ذكاء عبد الناصر ودهاءه. ولكن ينبغى أن نوضح هنا أنه ذكاء ومهارات تتعلق أساسا بإدارة صراعات داخل مجموعة ضيقة من الحكام، لا مهارات إدارة صراع سياسى مفتوح، وبرغم الإشارات الكثيرة إلى دور سياسى له فى فترة الدراسة الثانوية، فإنه لم يبرز كزعيم سياسى فى أى حزب. وفى واقع الأمر كان استمرار الضباط ككل فى السلطة، وبالتالى استمرار عبد الناصر زعيما لهم وللبلاد، رهنا أصلا بإغلاق المجال السياسى برمته، كما رأينا، تحت شعار "الاتحاد". ولكن ليس هذا فحسب، فعبد الناصر كان أيضا يتمثل بعمق الإيديولوجية الوطنية الاستبدادية.. فكان أكثر عناصر الضباط الأحرار إدراكا لمغزى الانقلاب العسكرى على النحو الذى جرى به، وما يفضى إليه من نظام سياسى. وكان بهذا كله الممثل الأهم للنظام الجديد، وقائده الأنسب.

* * *

وبصرف النظر عن كل هذه الاعتبارات، فإن طبيعة النظام السياسى أنتجت هذه الإيديولوجية التى جعلت "الثورة"

والشعب المصرى والعربى والتاريخ ملخصة فى شخص قائد الضباط الأحرار، الذى صور كمنحة قادمة من السماء.. وكمصدر متعالٍ لنظام ٢٣ يوليو بمجمله. وقد دشن بعض رفاق عبد الناصر هذه المقولة. فصرح حسين الشافعى بأن "الثورة نبتت ونضجت فى قلب جمال عبد الناصر فكانت ثورة الملايين.. أيها السادة: اللــه أعلم حيث يضع رسالته... فإنه تعالى هو الذى وضع أمانة هذا الوطن فى عنق هذا الرجل" (١٩٥٥). فالزعامة التى فرضها على رجاله تحولت فى أعينهم بعد أن ارتفع فوقهم درجات إلى تجل للعناية الإلهية. لقد خرج المارد من القمقم، ولم يعد الساحر قادرا على أن يعيده إليه، فوقف ينظر إليه مبهورا. وكتب مصطفى أمين أنه "لولاه هو لما كان الذى حدث يوم ٢٣ يوليو أكثر من انقلاب عسكرى... إن أمة فيها جمال عبد الناصر يجب أن تعرف كيف تحافظ عليه" (١٩٦٤).

وكتبت أقلام كثيرة أن مؤامرات الاستعمار هدفها "القضاء على عبد الناصر وزعامته وقيادته ونظام الحكم القائم فى مصر". وأضاف هيكل أن بريطانيا تستهدف "رجلا واحدا فى مصر"، هو عبد الناصر. وكان هذا كله يعكس

اختزال النظام فى حاكم فرد يحكم حكما مطلقا.. ولكنه من الناحية الإيديولوجية طُرح هنا باعتباره استهدافا لشخص بسبب مواهبه الخاصة.

غير أن المسألة لم تكن مجرد كتابات فى الصحف، فصور عبد الناصر كانت فى الشوارع، واسمه يتصدر أقواس النصر وسرادقات الاحتفالات، كما يتصدر نشرات الأخبار فى الإذاعة والتليفزيون والجريدة السينمائية. وبعد الاستفتاء عليه رئيسا أصبح قَسم "جيش التحرير"، الذى شُكل بعد تأميم القناة من المتطوعين بقيادة كمال الدين حسين تحسبا للحرب، قسما بتأييد عبد الناصر: "أقسم باللـه العظيم أن أكون مخلصا للـه والوطن مؤيدا للرئيس جمال عبد الناصر ومستعدا للتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الوطن". وشهدت فترة ما قبل الميثاق ترديد الشباب فى المهرجانات وغيرها للقسم التالى، الذى يعكس تعهدا مباشرا أمام الزعيم:

نعاهد اللـه القوى القاهر، ونعاهد الشعب العربى الثائر، ونعاهدك يا جمال. عهد الأحرار. عهد الثوار. أن نخوض معك معركة الحياة فى ظل "القومية العربية. لنحرر كل شبر من أرض العرب. ونطهرها من الاستعمار والصهيونية.

ومن الاستغلال والانتهازية... عهد الوفاء. وعهد الفداء. واللـه شاهد وناصر.

أما فى عام ١٩٦٣، أى بعد التأميمات، فقد اختتمت استعراضات الشباب بدلا منه بنشيد "دقت ساعة العمل الثورى"، "ليجددن [الطالبات] العهد والبيعة للرئيس". فالولاء للوطن أو للدولة، وللنظام فى مجموعه، يتجسد فى الولاء لعبد الناصر كفرد. وقد تمدد ذلك التبجيل والتشخيص للدولة فى فرد فى كل المجالات الإيديولوجية. فمثلا كان أطفال المدارس الابتدائية يحفظون ويغنون: "قناة السويس/ حفرها جدودى عيسى وعويس. جه [:جاء] دليسبس/ قال لنا هس [:أصمتوا]. إنتو النص [:النصف]/ واحنا النص. جانا جمال/ أبو الأبطال/ حرر بلادنا وخد [:أخذ] القنال. عاش جمال/ عاش جمال". فبينما كنا نتفرج عاجزين على ما فعله بنا دليسبس، "جانا" جمال، وحقق لنا كل ما عجزنا عنه. فسجلت الأغنية وهى تتغنى بكاريزما عبد الناصر الوجه الإيديولوجى المكمل لها: تحول الشعب إلى متفرج مستفيد وممتن. وهكذا دارت آلة الدعاية بكامل طاقتها فى إبراز الوجه البطولى لعبد الناصر، وإخفاء وجهه الاستبدادى.

ومع تضخم مركزية عبد الناصر أصبحت مؤسسات الدولة السياسية تُصور فى الإيديولوجيا إما كانبعاثات صادرة من نفس عبد الناصر أو كزوائد لا داعى لها. وفى كل الأحوال اختُصرت الدولة فى الرئيس. فمن بين تعريفات الاتحاد القومى، فيما قال سكرتيره العام أنور السادات، أنه "تجسيد لجمال عبد الناصر الرمز" (١٩٥٨). وفى ظل الاستقبالات الجماهيرية الكبرى لعبد الناصر فى سوريا، انهالت كتابات تدمج الدولة فى شخص عبد الناصر. فكتب فتحى غانم (١٩٦٠):

إننا أمام **حاكم علاقته مباشرة مع شعبه**... بل أنه من الصعب أن نقول أن هناك علاقة.. **إنهما شىء واحد**.. كيف تكون سياستنا فى هذا الوضع الاستثنائى؟ إن وجود برلمان يمثل الشعب ويعبر عن آرائه، لن يستطيع أن يقوم بنفس قوة التعبير التى يمثلها جمال عبد الناصر... **إن الشكل الأول لهذا النظام** [السياسى] **هو فى الوحدة القائمة بين البطل والشعب**: اللقاء بينهما هو البرلمان الحقيقى، وهو الاتحاد القومى... وهو باختصار الأسلوب الديمقراطى لسياستنا. **أما بقية الأجهزة والنظم السياسية الأخرى فهى فرع من هذا**

الأصل. إنها تابعة لهذه الصلة المباشرة بين جمال عبد الناصر وشعبه.

وهكذا تكونت صورة مقلوبة، فبدلا من فهم مركزية عبد الناصر فى المجال السياسى فى إطار وضعه داخل نظام سياسى ذو طبيعة خاصة، يشكل فى واقع الأمر كلا من الأصل الذى تنبثق منه صورة الزعيم، والوسيط الضرورى لإبرازها، والإنفاق من الموارد العامة على هذا الإبراز، جعلت الصورة الإيديولوجية صلة الرئيس "بشعبه" صلة شخصية مستقلة عن النظام السياسى، وحكما ومعيارا لأجهزته. وفى كل الأحوال لم تكن صورة عبد الناصر مفصولة عن الأجهزة الإيديولوجية المعنية التى جرى التحكم فيها على نحو ما رأينا منذ البداية، ولم تكن ثمة فى الواقع أية صلة مباشرة بخلاف خطب السرادقات، أو إذاعة الخطب والبيانات، وكلها نتاج جهود أجهزة متعددة تقع فى قبضة النظام، وتخضع لمحاذير أجهزته الأمنية.

على أية حال أصبح عبد الناصر بموجب تصورات كهذه الضمانة النهائية لأداء بقية الأجهزة السياسية. وقد أكد عبد الناصر بنفسه على دوره كرقيب أعلى على الهيئات السياسية

التى أقامها، بناء على صلته مباشرة بالشعب. فطالب الفلاحين بأن يكتبوا له "عن أى استغلال [من جانب أعضاء الاتحاد القومى]. ولا تخافوا من كتابة أسمائكم" (١٩٥٩). وفى رأى محمد الخفيف كان قيام عبد الناصر باختيار الأعضاء القياديين للاتحاد الاشتراكى بنفسه "هو صمام الأمن الوحيد ضد أى عبث" (١٩٦٢)، وهو عند عبد الملك عودة الوسيلة الوحيدة "ليكون بينهم من اليوم الأول الانسجام الفكرى الاشتراكى الحقيقى فى إطار الميثاق" (١٩٦٣). وفوق ذلك فإن من سيختارهم الرئيس من عناصر قيادية هم عند فتحى غانم "مجرد تلاميذ... يتعلمون فى الوقت نفسه من قائد الشعب جمال عبد الناصر الذى اكتسب خبرات وتجارب عميقة فى ممارسة القيادة الثورية".

وبنفس المنطق فإن ما اعتُبر فشل الاتحاد القومى إنما يرجع عند هيكل أولا إلى "أن عبد الناصر لم يعط بنفسه الكفاية من وقته لعملية التنظيم الشعبى"، وقادة هيئة التحرير والاتحاد القومى عناصر كانت تستطيع أن تفتح "مكتبا كل يوم. ولكن لم يكن فى مقدورها أن تضع فى هذا المكتب شرارة مقدسة تحوله إلى خلية ثورية نابضة بحركة الحياة"

(١٩٦٣).. فالأجهزة من الصلصال، أما الروح فمن عند الزعيم.

وإذا كان ثمة أمل فى الاتحاد الاشتراكى أو غيره، فهو أن يصبح امتدادا لعبد الناصر، لأن الزعيم بقى "حتى الآن مخزنا لكل الطاقات الثورية لأمته"، وحين حذر من الاعتماد على الفرد، أى شخصه، فى مجلس الأمة (١٩٦٤)، كان "يشعر أن قيام التنظيم الشعبى الديمقراطى هو التطور الطبيعى للدور الذى قام به هو شخصيا فى النضال العربى حتى الآن... **إن التنظيم السياسى الشعبى هو التطوير الضرورى والحتمى لدور البطل**".

واستكمال بناء الاتحاد الاشتراكى الهدف منه عند إحسان عبد القدوس أن ينظم الاتصال بين أفراده بحيث إذا تكلم عضو اللجنة التأسيسية فى آخر قرية فى مصر يصبح معبرا فى كلامه عن رأى القيادة العليا للثورة"، أى عبد الناصر، فلا نحتاج إلى خطاب منه يرد على كل إشاعة أو تساؤل ينطرح (١٩٦٤). فهو فى هذا التصور بمثابة امتداد لخطاب الزعيم، لا مؤسسة سياسية تخضع لأعضائها وتعبر عنهم. وقد أكد عبد الناصر الفكرة فى مناقشاته فى معسكر تدريب قيادات

منظمة الشباب. فالاتحاد الاشتراكى هو ضمانة أن يواكب التليفزيون المفاهيم الاشتراكية، بدلا من إن "أنا لازم الصبح أمسك التليفون وأكلم الدكتور حاتم [:وزير الإرشاد] كل يوم وأقول له إيه الكلام اللى بتقوله دا؟ وفى النهاية أنا أزهق وهو يزهق" (١٩٦٥). فالمأمول أن يصبح التنظيم السياسى امتدادا كفئا للتليفون الإدارى للرئيس.

والشعب نفسه يجب أن يصبح بالتوعية امتدادا لحواس عبد الناصر، ولكن ليس لسلطته: "واجبنا إن احنا نتسلح بالوعى... كل واحد من الشعب العامل يكون سياسى... ما تقعدش تقول... ألا ـه [:ما هذا؟!].. دا فيه استغلال. وجمال عبد الناصر ساب [:ترك] دا ليه؟ جمال عبد الناصر له عينين اتنين... عنده فى اليوم ٢٤ ساعة، ما يقدرش [:لا يستطيع] يشتغل أكتر من كده [:ذلك] ولا يشوف أكتر من كده. إحنا هنا ٣٠ مليون عندنا ٦٠ مليون عين..." (١٩٦٦).

* * *

وثمة جانبين، أحدهما تنظيمى والآخر إيديولوجى، لهذه المركزية الشديدة لوضع عبد الناصر. الأول يعود إلى مركزية بنية الدولة نفسها كما صاغها الضباط الأحرار.

فالجهاز الهرمى الإدارى المركزى بطبيعته أصبح يتولى رسم السياسات وتقريرها، كما أن رأس الدولة جمع فى يده فى معظم الفترة، بوسيلة أو بأخرى، سلطات "تقرير السياسات وتشريعها وتنفيذها". وحتى فى ظل مجلس الأمة الأخير (١٩٦٤)، الذى اعتُبر دليلا على الانتقال إلى "الحكم بالشعب"، ظل للرئيس سلطة تعيين كبار الموظفين ومتوسطيهم فى كل القطاعات، وفصلهم بغير الطريق التأديبى، واعتُبر هذا كله، كما أوضح طارق البشرى، "من أعمال 'السيادة، التى لا تخضع لرقابة القضاء". وكانت هذه القرارات الرئاسية تمتد إلى أدق التفاصيل، مثل الموافقة على شراء سيارات كبار الموظفين. كما كانت له سلطة إصدار اللوائح التنظيمية واللوائح التنفيذية للقوانين وإنشاء وإلغاء المؤسسات العامة، وإصدار القوانين فى غيبة المجلس، أو فى وجوده بتفويض.

كما أصدر عبد الناصر بنفسه دستورا ١٩٥٨ و١٩٦٤ بلا حاجة حتى إلى الاستفتاء الشكلى. كذلك فإن نظام الاستفتاء على مرشح وحيد للرئاسة، والذى ابتُدع عام ١٩٥٦، يستبعد نظام الانتخاب بين مرشحين أنداد، بل وفكرة

الندية ذاتها. وشهدت الفترة ثبات واستمرار "رئيس الجمهورية مع كثرة التعديلات الدستورية والوزارية، فضلا عن كثرة التعديلات فى المجلس النيابى وجودا وعدما". ويصف البشرى الوضع بأنه "مركزية بالغة الشدة، تفوق ما عرف عن الدولة المصرية من تمركز فى الفترة السابقة، منذ عهد محمد على".

أما بالنسبة لمجلس الأمة فكان مؤسسة أهم من "الاتحاد الاشتراكى" والتنظيمات المشابهة السابقة، لما له من صلاحيات دستورية. ولذا جرى الأمر على أن يتحكم عبد الناصر فى تشكيله بوسائل شتى، مثل الشطب والعزل السياسى. يضاف إلى ذلك أن حصانة أعضائه كانت خاضعة للمشيئة: "طبعا **إحنا كشعب** حنراقب هؤلاء الناس بعد أن ينجحوا، حنشوفهم، قد ينقلب بعض منهم إلى انتهازيين أو مستغلين. إحنا بهذا كشعب.. الشعب هو الرقيب.. **اللى يطلع انتهازى يجب أن يسقط.. الشعب يسقطه**" (١٩٥٦).

وفضلا عن ذلك كانت خطابات عبد الناصر – بعيدا عن كل الأجهزة السياسية، وفوق الدساتير – هى التى تقرر التحولات الإيديولوجية والسياسية الكبرى، والشعارات

المطروحة. وكان مؤتمر التعاونيين منبره المختار فى البداية. ففى خطاب عام ١٩٥٦ أعلن عبد الناصر أمامه الأهداف الستة للثورة، وبرنامجا كاملا لها. وبعد صدور دستور ١٩٥٦، أعلن أمامه شعار إقامة "المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى"، مع أن هذا الهدف لم يرد فى الدستور الذى لم يكن حبره قد جف بعد، كما لم يعرض على مجلس الأمة القائم آنذاك. وجاء مانشيت الأهرام عن الخطاب موحيا للغاية: "جمال عبد الناصر يعلن قيام المجتمع الجديد". "فالمجتمعات" تقوم بإرادته المنفردة ممثلة فى خطاباته. وتولى الرئيس فى خطاب آخر شرح معنى الاتحاد القومى (١٩٥٨)، وشرح فى خطاب ثالث "الصورة الكاملة للمجتمع الجديد" (١٩٥٩). وفى خطاب رابع أُعلن التغيير فى التوجه السياسى بعد انفصال سوريا بشعار "دقت ساعة العمل الثورى". هذا كله بخلاف إعلان تأميم القناة وتحولات السياسة الخارجية المتلاحقة. فلا غرابة أن بدت السلطة التنفيذية ذاتها باهتة من الناحية الإيديولوجية، منشغلة بالأضابير والملفات، كأدوات تنفذ إرادة الرئيس.

وبرغم محدودية دور البرلمان، وضمان ولائه، فقد

جرت العادة على تجنب عرض القوانين المهمة عليه. فقبل افتتاح مجلس عام ١٩٦٠ المعين بيوم واحد أصدر عبد الناصر قوانين خطة مضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات. ولم تعرض عليه قوانين التأميمات عام ١٩٦١، الأمر الذى برره هيكل لاحقا بأن المجلس "كان يمثل مرحلة الثورة السياسية وكان يمثل المهادنة التى فرضتها ظروف الوحدة مع سوريا"، مقرا بذلك أن المجلس الذى شكله النظام بالتعيين ضعيف الصلة بمخططات السلطة، وأن إرادته ليست عاملا فى تقرير السياسات. أما فى اللجنة التحضيرية التى شُكلت لبحث تفصيلات مسألة العزل السياسى وتشكيل المؤتمر الوطنى الذى سيقر الميثاق، فقد أوضح عبد الناصر، ردا على أستاذة جامعية استنكرت أن يستفتيهم فى الثورة الاجتماعية، ربما نفاقا منها، أن الثورة الاجتماعية "موضوع مفروغ منه، ولكن حنطبقه إزاى؟". فهى لجنة ذات مسئولية محدودة، تقررت الخطوط العامة لتفكيرها سلفا، وليس لها سوى دور شورى محدود.

وبعد صدور الميثاق تأجلت انتخابات مجلس الأمة من يوليو ١٩٦٣ إلى نوفمبر ١٩٦٣، ثم إلى مارس ١٩٦٤،

بقرارات إدارية.. نُشرت مقتضبة، بما يعنى أنه أمر لا صلة للرأى العام به. وقبل انعقاد المجلس عام ١٩٦٤ مباشرة أصدر عبد الناصر بضعة قوانين، منها تأميمات جديدة، وقانون بتخفيض ثمن الأراضى الزراعية التى ستوزع على المنتفعين بالإصلاح الزراعى، برغم أنه مجلس "تحالف قوى الشعب العامل"، ونسبة الـ ٥٠% عمال وفلاحين. وفى أغسطس ١٩٦٦ صدرت قوانين وقرارات مهمة أثناء عطلة المجلس.

ولما كان المجلس تابعا للرئيس، سواء بتعيينه مثل مجلس ١٩٦٠، أو بتبعيته للاتحاد الاشتراكى رسميا، بحيث تسقط عضوية عضو المجلس المنتخب إذا أصدر الاتحاد الاشتراكى قرارا إداريا برفته، جاز أن يشكر المجلس الرئيس "على إعلان ثقته بالمجلس" فى خطاب ألقاه (١٩٦٠).. فالخطاب أكثر أهمية من المجلس، والمجلس ليس له مصدر للشرعية غير رضا الرئيس. وبرغم أن الدستور خوله حق الرقابة على مصالح الحكومة ومؤسسات القطاع العام فإنه يقوم بذلك "استجابة عملية للتوجيه الذى أبداه السيد رئيس الجمهورية فى خطابه... [بأن] من حق أعضاء مجلس

الأمة... أن يمارسوا الرقابة" (١٩٦٤). فممارسة الحقوق الدستورية، حتى التى كتبها الرئيس فى الدستور الذى أصدره، رهن بإرادته. ولكن حتى فى مجال الرقابة كان الرئيس هو الرقيب الأعلى، فوق أجهزة الرقابة التنفيذية و"الشعبية" التابعة له جميعا، حيث كانت تعرض عليه الشكاوى بانتظام، وكان يولى اهتماما أكبر بشكاوى الجماعات.. فهو ضابط الإيقاع العام لكل مؤسسات النظام.

والمقصود من ذلك بيان أن محورية رئيس الجمهورية فى النظام السياسى قامت على احتكار مطلق للشرعية والسلطة، إلى حد أن أى مؤسسة منتخبة أو معينة كانت تنبثق وتستمر وتتحدد صلاحياتها وتتغير، أو يتم تجاهلها ببساطة، بناء على قراراته التى لا توجد جهة تراجعها أو تخاصمها قضائيا، أو حتى تبدى رأيا مخالفا. وهكذا كانت سلطة الرئيس المطلقة الدعامة الواقعية للصورة بالغة البروز لعبد الناصر فى النظام السياسى.

أما العامل الإيديولوجى فى هذا البروز، فكان "**الاتحاد**". فبناء عليه يستحيل الاعتراف بوجود قطاع من المصريين خارج الموافقة، وإلا كان ذلك إيذانا بأزمة مارس أخرى.

فوجود نسبة معتبرة خارج "الشرعية"، وغير معزولة سياسيا بوسيلة أو بأخرى، مثلا بالمعتقلات، يعنى أن الاتحاد غير قائم، وأن ثمة معارضة، ولو صغيرة، تستحق تمثيلا مضادا، وفقا لفكرة "الزحف المقدس". ومن هنا كان من أهم وظائف عبد الناصر فى النظام السياسى تمثيل هذا الاتحاد المفترض والمفروض. وقد استُفتى على عبد الناصر ثلاث مرات. وفى كل مرة كان عدد غير الموافقين يتناقص، ونسبة الموافقة تتزايد. وهى فى كل الأحوال نسبة تفوق ٩٩%. فى عام ١٩٥٦، قبل أزمة السويس التى دشنت شعبيته الجارفة، بدأت النسبة بـ٩٩,٩% وعدد الرافضين ٥ آلاف. وفى ١٩٥٧، وهو استفتاء دولة الوحدة، انخفض عددهم إلى ٢٤٧ صوتا، وارتفعت نسبة الموافقين إلى ٩٩,٩٩%. أما فى استفتاء ١٩٦٥ فبلغت النسبة ٩٩,٩٩٩%، وعدد غير الموافقين ٦٥ صوتا لا غير.

ويدل على الأهمية السياسية والإيديولوجية لهذه المسألة سعى البعض لتبرير هذه النسبة الضئيلة من غير الموافقين. فبمعيار "الاتحاد" كان رقم الآلاف الخمسة فى الاستفتاء الأول كبيرا فى نظر على أمين، فقال أنه تلقى عشرات الخطابات

من هؤلاء موقعة بإمضاءاتهم[!] برروا فيها قرارهم بأنهم "أرادوا أن يمتحنوا حرية الاستفتاء"، أو "ليخلقوا معارضة" تكون دليلا على ديمقراطية النظام، وبعضهم "اعترف" له "بأن حوادث شخصية هى التى أثرت فى اختيارهم". وفى كل الأحوال تنتفى فكرة وجود معارضة سياسية أصلا فى صفوف الرافضين أنفسهم. أما الخمسة والستين فردا فى استفتاء ١٩٦٥، فقد تصور صحفى آخر أن منهم "من انحرفت يده من غير قصد لحظة التصويت من الأحمر إلى الأسود. ومنهم المصاب بعمى الألوان... [أو] من أسئ معاملته يوم الاستفتاء... [ومنهم] 'الحدق' الذى أراد أن يتأكد من حرية الانتخابات.. رغم هذا شكرا لأنكم جعلتم للمعركة طعما... ودعواتى من أجلكم أن يلهمكم اللـه الصواب دائما، وخاصة بعد أن **عفا الرئيس عنكم**". فالخروج على الإجماع جريمة تستتبع عفوا، حتى لو كان ناتجا عن عمى الألوان. وبصرف النظر عن المبالغات، الدالة من حيث نوعيتها مع ذلك، فإن مغزى مثل هذه النتيجة كما كتب مصطفى أمين أنها "قاطعة بأن ليس فى بلادنا اليوم... مؤيدون ومعارضون... فعبد الناصر هو رمز للتحالف بين كل

طبقات هذا الشعب" (١٩٦٥).

وبصفة خاصة اعتُبر استفتاء ١٩٥٦ إعلانا بنجاح عملية "الاتحاد"، وبأن الرئيس رمزها ودليل تحققها. فقال عبد الناصر أن نتيجة الاستفتاء تعنى أن "مصر جميعا [أعلنت] أنها تسير **بزحف مقدس** نحو الأهداف الكبرى التى كانت تشعر بها على مر السنين. أعلنت مصر فى هذه الأيام أنها **تعى وتعرف وتفهم وتحس وتشعر**"، وهكذا فإن تأييد سلطة الضباط مجسدة فى شخصه سلوك يحسب للشعب، ومعيار لتقدمه الإنسانى.

ومن المهم أن نشير إلى أن ذلك الرافد الإيديولوجى سابق على بطولة عبد الناصر، ومؤسس لها. بل سابق على تحقيق الجلاء والاستفتاءات التى تناولناها. فمنذ عام ١٩٥٥ قال عبد الناصر أنه: "إذا كنت اليوم أيها المواطنون أنا جمال عبد الناصر رئيسا لكم [:رئيسا للوزراء] فإن هذا شرف لكل فرد منكم، فإن جمال عبد الناصر منكم وإليكم. إن جمال عبد الناصر إذا كان يمثل اليوم فإنه يمثل أبناء مصر ويمثل دم مصر ويمثل **روح مصر**... وليس جمال عبد الناصر وإخوان جمال عبد الناصر إلا شعارا لعودة حكم مصر إلى أبنائها".

معتبرا ضمنا حكام مصر المنتخبين فى ظل دستور ١٩٢٣ أقل مصرية وتعبيرا عن المصريين من قائد انقلاب عسكرى كان يفتقر وقتها لأى تاريخ بارز، حافظ على سلطته بحد السلاح عام ١٩٥٤. وبتحقيق الجلاء، أصبحت معاركه التى خاضها معارك الشعب، وأعدائه أعداء الشعب، لأن "الأهداف اللى أنا قلتها اللى هى بتعبر عن آمالكم واللى هى بتعبر عن آلامكم... كل المؤامرات اللى قامت لم تكن موجهة إلى جمال عبد الناصر. جمال عبد الناصر لا يساوى شىء مطلقا. ولكن كانت هذه المؤامرات موجهة إليكم. إلى هذا الشعب" (١٩٥٦). وهكذا أمم عبد الناصر فكرة الاتحاد لصالحه.

* * *

غير أن رئاسة عبد الناصر من حيث هى رمز لاتحاد الشعب أدت فى النهاية إلى طغيان صورته على أمته ذاتها.. سواء كانت هذه الأمة مصرية أو عربية. كان عبد الناصر يستطيع أن يقول أنه "لا يساوى شيئا مطلقا"، كما رأينا، وأن الشعب مسلوب السلطة هو كل شىء. ولكن فى واقع الأمر ظل عبد الناصر حتى فى هذه العبارة أعلى من عملية التقييم ذاتها، فهو الذى يقررها، وهو الذى يحدد من يساوى ماذا.

وكان الشعب كإرادة سياسية موجودا فقط بقدر ما يعلن عبد الناصر عن وجوده، فكان يريد بقدر ما يعلن عبد الناصر إرادته، وبقدر ما يخبره ماذا يريد. لقد أصبح عبد الناصر التمثيل الوحيد من الناحية الإيديولوجية للشعب. وأسفر ذلك عن الصورة الإيديولوجية الخاصة للغاية التى سنتناولها حالا، والتى تشكل قلب أسطورة عبد الناصر.

ولكن يجب أن نقرر أولا أن المبالغات غير المألوفة التى سنجدها فى النصوص التالية يجب ألا تُفهم كنوع من الدعاية الموجهة، أو مجرد النفاق.. وإنما كمحصلة لإيديولوجية البطولة المرتكزة على إيديولوجية "حكم الشعب"، وما صاحبها من تركيز السلطة فى يد الضباط وعلى رأسهم عبد الناصر وإلغاء المجال السياسى برمته؛ واحتكار الدعاية المدعوم بإرهاب الدولة. ويمكن القول بأن هذه النصوص فى مجموعها كانت ترصد مشاعر عامة سيدت، وسادت، أكثر منها أدوات توجيه. وهى فى النهاية، كما سنرى، لا تعدو أن تكون نقلا للعلاقة اللاهوتية بين النظام والشعب، التى مرت بنا من قبل تحت عنوان "الزحف المقدس"، لتنحصر فى الرئيس وحده، قائد الزحف.

كانت البداية أن كتب عبد الناصر فى "الأهرام" عن صلة خاصة تربط الشعب بالجيش، عموما، وبه خصوصا، وهى صلة شعورية: فـ"منذ سنوات لا تتجاوز أصابع اليدين سمعت أنينك الرهيب... حين قلت فى صوت يائس حزين 'من سيحمل عنى عبء القضاء على الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى؟'... ولم تعلم أيها المواطن أن الجيش يحس بإحساسك" (الأهرام ١٩٥٥). وهكذا يختزل الكفاح السياسى الطويل ضد الاحتلال والسراى، والذى تصاعد بصفة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، إلى علاقة بين عبد ومنقذه؛ عبد لم يكن يقاوم ولا حتى يصيح، فلم يصدر عنه سوى أنين متصل طويل عاجز يائس يبحث عن مغيث.. فسمعه الزعيم وأعوانه فجاءوا ولبوا النداء.

ولكن هذه الصورة تجعل عبد الناصر وجيشه منفصلين عن الشعب، فهما منقذان من الخارج لشعب يئن ويشكو. ويبدأ الالتحام بين عبد الناصر والشعب بفصل عبد الناصر لنفسه إيديولوجيا عن الجيش. وأمام الجيش كان أول ظهور له كممثل للشعب: "أدى الشعب واجبه... وحصل على ما يريد من السلاح... [و]دفع عن طيب خاطر ثمن هذا السلاح"

(١٩٥٦).

كان هذا تمهيدا ضروريا لوظيفة عبد الناصر الإيديولوجية الأساسية: **الوساطة بين الشعب ونفسه**، وهى محور إيديولوجية عبادة عبد الناصر على ما سنرى فورا. فإذا كانت الثورة قد قامت "على مبادئ... تنبعث من إحساس هذا الشعب"، فإن عبد الناصر سيستمر "فى كل كلمة أقولها أفكركم بيها وأثبتها وأؤكدها، حتى تنطبع فى عقولكم وفى نفوسكم وفى صدوركم" (١٩٥٦). فإحساس الشعب هو مصدر المبادئ، غير أن الشعب لن يعى بإحساسه، أو بمبادئه المنبعثة من إحساسه، إلا من خلاله كوسيط يذكرهم بها و"يطبعها" فى نفوسهم.

وقد تضخمت هذه الفكرة المحورية ككرة الثلج. فى البداية رددت بعض المقالات الصحفية صورة مبسطة من الفكرة. فتساءل التابعى، لماذا لم يحقق الشعب بقيادة زعمائه السابقين ما حققه عبد الناصر؟ السبب أن "واحدا من هؤلاء الزعماء لم يقل للشعب 'إن كل قوتى منك وبك ولك'، وأنت وحدك أيها الشعب صاحب السلطان دون شريك"، فأدرك الشعب أنه وحده من سيستفيد من النهضة (١٩٥٦).

والمغزى هنا هو أن الشعب يحقق بعبد الناصر ما لا يستطيع أن يحققه بغيره بسبب رابطة خاصة بين الشعب والزعيم.

ولكن المسألة أعمق من ذلك، فالشعب وقائده كيان واحد تقريبا، فثمة قنوات غير منظورة للمشاعر بينهما، فيما قال مصطفى أمين، ففى حرب ١٩٥٦ "لم يكن الشعب فى حاجة إلى أن يسمع أوامر القائد قبل أن يتحرك.. كان الشعب يحس بخلجات قائده.. بشعوره... لم يشهد التاريخ مثل هذا التجاوب العجيب... وهذا الاندماج العاطفى هو الذى حقق الانتصار". وبالمقابل فإن عبد الناصر كان متأكدا وقتها أن بورسعيد لن تسلم، برغم إعلان الإذاعات المعادية استسلامها، ليس لأنه يعتمد على مصادر خاصة للمعلومات، وإنما لأنه كان "يتلقى فى قلبه وروحه إشارات مجهولة بأن بورسعيد لن تسلم" (١٩٥٧). وهكذا فإن مصطفى أمين يتمتع بالملكية الفكرية للفكرة الأساسية فى الباب الأول للميثاق، والمصاغة بأسلوب هيكل، وهى وجود صلة خفية بين الشعب و"الطليعة"، أساسها "الوحى"، بمقتضاها يوحى لها بآماله ورغباته، التى سبق أن ناقشناها. ولكن بدلا من لفظ "الطليعة" الموارب، ركز

مصطفى أمين عملية الاستلهام اللاهوتية صراحة فى شخص عبد الناصر.

وهنا تجب الإشارة، قبل أن نتناول نصوصا ربما كانت أكثر إثارة للدهشة، إلى ضرورة أخذ هذه الصياغات بجدية. فالقول بأنها نوع من أنواع النفاق مثلا لا يستطيع أن يفسر لنا لماذا اتخذ النفاق هذه الصورة بالذات: **صورة العلاقة الروحية بين الشعب والزعيم**، التى بمقتضاها يستلهم آمال الشعب، ثم يعيد غرسها فى وعيه بخطبه وسياساته. على العكس، يمكن القول بأن هذه الصياغات مستوحاة هى نفسها من الاستقبالات الشعبية الحاشدة لعبد الناصر، والتى مر بنا وصف هيكل لواحد من أهمها، ومرتبطة بسيادته الإعلامية، وبطريقته فى الإعلان عن القرارات الكبرى، كقرارات فردية لا تنبع إلا من ذاته، ثم صياغة هذا الوضع كله فى ظل شعور طاغ بهيمنة صورة الزعيم وتركز السلطة فى يده، وقبل ذلك كله كتفسير إيديولوجى وحيد ممكن لفكرة تعبير النظام عن الشعب بغير آليات تمثيل ديمقراطية.. أى كمكمل ضرورى لإيديولوجية "الزحف المقدس" كما مر بنا.

فى عام ١٩٥٨ أضيف رافد آخر لفكرة العلاقة المباشرة

بين الزعيم والشعب، هى فكرة "الصراحة". فهو "لا 'يخطب' ولا يحاول اصطناع أساليب الخطباء... بل يخاطب الشعب ويتحدث إليه من القلب إلى القلب... وهو ينجح دائما فى نقل إيمانه إلى الصدور". وفى مؤتمر التعاونيين الرابع "صارح الشعب بكل شىء. أحست الملايين... أنه يأخذها معه إلى مجلس الوزراء ويصحبها إلى الاجتماعات السرية"(١٩٥٨). وكانت بداية هذه المسألة مع خطاب تأميم القناة، بقصة الإنذار الذى أحبطه عبد الناصر، ولكنها صيغت صياغة إيديولوجية بعد سنتين.

وأخيرا وصل على أمين إلى فكرة وساطة عبد الناصر بين الشعب ونفسه. فهو "يحقق حلما غامضا كان فى صدر كل مصرى وكل عربى... كل واحد شعر أنها ثورته... قامت لتحقق الأمنية التى فى صدره... وجاء جمال عبد الناصر وحددها ونسقها وحولها من أحلام ساذجة إلى سياسة عملية مدروسة" (١٩٥٩). غير أن إحسان عبد القدوس هو الذى مد كل الخيوط السابقة على استقامتها.. ووضع خلاصة الفكرة واضحة مركزة (١٩٦٠):

جمال عبد الناصر... يمثل حقيقة. حقيقة هذه الجموع التى تسعى من سفح جبل طوروس [بسوريا] إلى ضفاف النيل... إننا عندما يجلس أحدنا إلى الآخر، نحس بأنفسنا كأفراد.. **وعندما نلتف حول جمال عبد الناصر نحس بأنفسنا كشعب.** فالحقيقة تنبثق منا نحن.. من الشعب.. ولكن جمال عبد الناصر يجسمها.

فالشعب يصبح شعبا، أو يتحقق كشعب، فقط من خلال الرئيس، بل ويمكن القول أنه لا يوجد كشعب إلا به. وليس فى صيغة إحسان أية مبالغة. فمركزية السلطة واستبدادها كما مر بنا جعلت الكيان الجماعى يتحقق فقط بفضل هذا الفرد ومن خلاله. فالشعب يعرف مستقبله من خطب عبد الناصر، ويصدر الدساتير حين يقف فى السرادق والرئيس يتلوها عليه، ويثأر من الاستعمار حين يفاجئه الرئيس بتأميم القنال، ويحصل فقراؤه على المكاسب التى يمنحها له الرئيس بقرارات عليا. ويجد نفسه فى تحالف عالمى ضد الاستعمار حين يسافر الرئيس إلى باندونج. وبصفة عامة يتعرف الشعب على إرادته من الإذاعة والصحف، وبصفة خاصة من خطب الرئيس فيهما، وتعليقات أنصار النظام. وبهذا كله

أصبح جمال عبد الناصر الفرد روح الأمة كلها.. ومثل تحققها الأعلى. فالشعب فى الإيديولوجيا هو مصدر كل شىء يفعله عبد الناصر، هو مصدر "الحقيقة" بتعبير إحسان، ولكن هذا المصدر الكامن لا يصل إلى التحقق إلا من خلاله. وبغير هذا الوسيط الأعلى، الذى يمثل فى نفس الوقت شرط تحقق الشعب، يتوقف الكائن الجماعى عن الوجود، فهو بتعببر مصطفى محمود (١٩٦٠):

روح.. إنه أكثر من شخص.. لأنه يحتوى على معنى وجودنا كلنا.. على آمالنا.. وإرادتنا.. وقوتنا وحبنا.. ومستقبلنا... **إنه نحن**.. نحن نتنفس من رئتيه.. ونرى من عينيه.. ونحس من قلبه.. ونتكلم من لسانه.. ونطل من شرفات عقله على الدنيا.. **إنه كلمتنا**.. وطريقنا.. إنه صبرنا... إنه زعيمنا.. لأن **فيه تتجسد قوانا الروحية جميعا**.. أنا أؤمن به.. ومن خلاله أؤمن باللـه... **أنا بعبد الناصر أشعر بأشرف ما فى وجودى**.. روحى.. وأعلم واثقا.. أن الغد لى.

فكما كانت الدولة حقيقة الفرد فى فلسفة الحق عند هيجل، كان عبد الناصر حقيقة المصرى، أو العربى. وما ينطبق

على حالة مصطفى محمود ينطبق على المجموع؛ فعبد الناصر عند فتحى غانم "يعبر عن الشعب، ويسبق الشعب فى التعبير.. إنه ينتبه إلى ما يجيش فى عقول الناس الباطنة.. قبل أن يصل إلى عقولهم الواعية" (١٩٦٠). فنحن لسنا أمام ممثل للشعب، وإنما أمام الصورة الحقيقية له. وانطلقت الفكرة فى السرادقات، فقال كمال الدين حسين: "أيها الأخوة المواطنون: إنكم حينما تقابلون الرئيس جمال عبد الناصر... فإنكم تقابلون **الصورة الحية لهذا الشعب**" [الميت؟] (١٩٦٠). فحياة الشعب قد تجسدت فى فرد، انفصلت عنه وأصبحت تتنفس فى جسد الزعيم، وبالتالى فإن "بطولته ومثاليته هى رمز لبطولتنا ومثاليتنا.. تمسكه بالمبادئ هو الدليل على أننا نتمسك بالمبادئ"، فيما قال فتحى غانم. ليست المسألة أن الشعب قد مات، المسألة هى أنه لا يحيا إلا من خلال فرد بعينه.

وعلى هذا النحو يكون عبد الناصر هو روح الشعب متجسدة.. وبالتالى، حسب فلسفة أولوية الروح على المادة، الملازمة على كل حال لفكرة البطولة، فإنه هو الذى يتولى صياغة الشعب وترقيته. وقد سبق ورأينا كيف أنه عليه

يتوقف نفخ الروح فى الاتحاد الاشتراكى. وبصفة أعم فإن عبد الناصر فى قول ممدوح رضا قد "غير... كل شىء.. غير تاريخنا.. غير بناءنا.. غير نظرتنا للحياة.. غير طباعنا.. لقد أمدنا جميعا.. صغيرنا وكبيرنا، بروح جديدة، روح ثائرة.. روح مؤمنة.. روح مخلصة.. روحه" (١٩٦١). فمنذ عام ١٩٥٥ أو ١٩٥٦ أصبح هو الشارح السياسى الوحيد فى المجتمع بأكمله، "القائد المعلم" كما صاغها هيكل.. المصدر الوحيد للقرارات، والمتحدى الوحيد للاستعمار، معلن تشكيل المجتمع من جديد بين حين وآخر.. وسلطة مطلقة لا تُرد ولا معقب عليها.

أصبح عبد الناصر إذن كائنا متساميا فوق الكيان الذى يحكمه، لأنه أصبح حقيقته أو جوهره. ولكن ثمة عنصر آخر أبرزه انفصال سوريا عن دولة الوحدة.. هو نوع من الرعاية أو الحنان البنوى تجاه القائد. فهو لم يكن أبا للشعب فحسب، وإنما كان أبا محبوبا أيضا. فى بيان الانفصال ردد عبد الناصر فيما يتعلق بعلاقته بالشعب فكرة الاستلهام التى مرت بنا، ولكن مجسدة إلى أقصى حد: "لقد قضيت الأيام الأخيرة كلها أفكر. وكنت بمشاعرى مع شعبنا العظيم فى كل

مكان... **كانت أصابعى على نبض هذه الأمة** صانعة الحضارة... وكانت أذناى على دقات قلبها الذى نبض دائما بالحق والخير والسلام. **كنت أريد أن يكون اختيارى صدى لاختيارها**، وكنت أريد أن يكون موقفى تعبيرا عن ضميرها". وبناء على هذا الذى يمكن أن نسميه "استخارة": "لقد اخترت باسم اللـه، باسم هذه الأمة... أن طريق الثورة هو طريقنا". وهكذا فإن استشارة الأمة تتم داخل قلب زعيمها.. بقدرة خاصة، قدرة نبى بالمعنى اللغوى للكلمة، فهى لا تستشار من خلال آليات تمثيل.

أما من الجانب الآخر، جانب الأمة ذات النبض، فكتب صلاح عبد الصبور: "نحن أبناؤك العرب، نقول لك فى هذه اللحظة القاسية من تاريخ أمتنا: إن كل ما يهمنا الآن هو أنت! إننا نخشى عليك من الحزن... إن مصباحى عينيك البراقتين هما نور مستقبلنا.. إنك مستقبلنا.. فابتسم يا أبا العرب". وكتب عبد السلام داود: "لا – يا أبى – لا ينفطرن قلبك الكبير هكذا... ليس غيرك يمكن أن تستكين له قلوبنا.. أنت أب أحلامنا، وأمجادنا، وأستاذنا وقائدنا وكبيرنا... لا تخف علينا بعد الآن... وتأكد أننا – على قدر ما أعطيتنا –

نحبك.. أيها الرجل". لم تكن المحاسبة على أخطاء واردة، له أو للنظام. لقد أصبح هو الشعب، وهو النظام، وأصبح المطلوب هو أن يستمر، حتى تستمر حياتنا من خلاله. نحن فقط نطمئنه على أننا كبرنا حتى لا يشتد جزعه علينا. كانت هذه بروفة أولى لـ ٩ و١٠ يونيو عام ١٩٦٧.

على كل حال أصبح الحب علاقة أساسية بين الشعب والزعيم، وهكذا طالب أنور السادات الحاضرين فى مؤتمر شعبى بـ"أن تحبوه [:عبد الناصر] أكثر. فهو فى حاجة إلى حبنا.. كما قلت لكم.. لأنه بالحب تتجدد طاقته كل يوم. ونحن نريده متجددا صلبا قويا دائما من أجلنا" (١٩٦٥). وكتب إحسان عبد القدوس أن شخصيته، "شخصية البطل"، أوسع من أن تكون شخصية ثائر أو قائد، فقد "استطاعت أن تستوعب كل الناس.. وتعطى من نفسها لكل الناس.. **أصبحنا كلنا نعيش فى جمال عبد الناصر... إنه حب.. حب كبير**" (١٩٦٢).

وبهذا كله أصبحت شخصية عبد الناصر تشمل البلاد بتاريخها وأبطالها، الذين كانوا مسودة أولية له: "هذه الأرض الطيبة حاولت أن تلد جمال مرة بعد مرة... مرة فى

عرابى.... مصطفى كامل... سعد زغلول... [رجال] الاغتيالات السياسية... انتظرته الأمة **آلاف** السنين ليأتى فيضع الثورة الاشتراكية"، فى قول بنت الشاطئ (١٩٦١). وفى نص جامع وشامل فإن عبد الناصر هو فى نفس الوقت: "القائد الذى يرى الشعب كل صفاته ومميزاته مجسدة فيه.... [و]الوالد والمعلم"، وهو "وإن يكن أعظم رجل حكم مصر فى كل تاريخها – يقف بين الشعب موقف الابن البار... سعى دائما إلى العثور على كل الذى تنبض به أعماق مصر كلها. إنه ليس قائدنا، وإنما هو مندوبنا لتحقيق أحلامنا" (١٩٦٥).

وقد تجمعت هذه التطورات الإيديولوجية المهمة فى حملة الاستفتاء عليه عام ١٩٦٥. وكان عبد الناصر قد أجل الاستفتاء عاما بموجب نص فى دستور ١٩٦٤ الذى أصدره، بسبب "ارتباطات دولية لا تتعلق بشخصى" (١٩٦٤). وبرغم أن الرئيس يتحكم هكذا تماما فى مسألة ترشيحه، بدءا بموعده، فإن أجهزة التعبئة أخرجت الأمر وكأن الشعب يقاتل ضد قوة مجهولة تريد أن تحول دون اختياره. والواقع أن عبد الناصر قد أعلن قبل الترشيح أنه يفكر فى أن يخصص جهده للاتحاد الاشتراكى. فكان الترشيح لمنصب الرئاسة

يبدو كانتصار للشعب على عبد الناصر نفسه، لا على المجلس وحده: "لقد نزل جمال عبد الناصر على إرادة الشعب.. قبل الترشيح لرئاسة الجمهورية": كان ذلك تعليق "الأخبار".

ومنذ منتصف يناير ١٩٦٥ بدأت تخرج مظاهرات تنظمها هيئات مختلفة مثل الاتحاد الاشتراكى والنقابات والهيئات النسائية والأزهر والجمعيات التعاونية الزراعية (باعتبار أنها تمثل الفلاحين)، "تطالب" مجلس الأمة بترشيح عبد الناصر. وأسفر ذلك كله عن مظاهرة كبرى أمام المجلس يوم الترشيح، حدد موعدها مسبقا. فنشرت "الأخبار" أن "الشعب يزحف يوم الأربعاء [:بعد يومين]/ ويحيط بمجلس الأمة حتى يصدر قرار ترشيح عبد الناصر". وجاء اليوم بالفعل "زحفا عظيما" لكتلة بشرية هائلة – بمصطلحات الفترة – حول المجلس. وكان تعليق الأهرام على المظاهرة أن الشعب رأى أن ترشيح عبد الناصر "مهمة لا تجوز فيها الوكالة حتى ولو كان الوكيل شرعيا ومنتخبا وممثلا لإرادته"، "لقد رأى الشعب أن تكون له الكلمة الأولى فى الترشيح".

كان الترشيح إجراء دستوريا قصد به أن يكون لبنة فى سد الفراغ السياسى، ولكنه فى ضوء إيديولوجية عبادة عبد الناصر لم يكن مناسبا. فالإجراء الدستورى، والدستور نفسه، أقل مقاما من الزعيم الذى قررهما ويستطيع نظريا وعمليا إلغائهما وقتما يرى. وبالتالى كان المنطق الإيديولوجى نفسه يطالب بتغطية هذا الهبوط فى المكانة، وهو ما تحقق تلقائيا بوضع الإجراء **داخل منطق العلاقة الخاصة بين الشعب والزعيم.** وكان التابعى هو الذى أمسك بجوهر الموقف. فجلسة مجلس الأمة:

إجراء لا لزوم له، فقد أبدى الشعب – لا فى مصر وحدها... – رأيه، وأعلن أنه لا رئيس سوى عبد الناصر... كان إجماع الشعب وممثلى الشعب مفروغا منه، أى أنه لم تكن هناك ضرورة ولا حاجة إلى استفتاء الناخبين وإلى عملية الترشيح.

وقبل الاستفتاء قام عبد الناصر بجولة فى بعض المحافظات فى أوائل مارس، قرر بنفسه أنها غير ضرورية: "لقد كان حرصى شديدا على أن ألتقى بجماهير شعبنا العظيم فى الفترة السابقة على الاستفتاء... برغم مشاغل لا تنتهى

ومسئوليات يجر بعضها بعضا". فكانت جولته اختيارا منه، ردا لمظاهرات الحب فى عملية الترشيح، ولا يمكن فهمها إلا بهذا المنطق. فهو لم يكن مواجها بمنافسين، ولم يكن ثمة أى مبرر للظن بأن الاستفتاء قد يأتى سلبيا. أما الاستفتاء ذاته، فقد اعتبره التابعى، متسقا مع الوضع العام:

استفتاء للشعب... **'امتحان للشعب'**. امتحان **يكشف فيه الشعب عن حقيقة معدنه..** وأصالته.. وهل هو شعب نافذ البصيرة صادق الحكم بعيد النظر.. يعرف لجمال عبد الناصر قدره وقيمته... [فهو] لم يعد زعيما ورائدا لمصر... أو الأمة العربية وحدها.. بل أصبح الرائد والقائد المرشد لكل الشعوب المناضلة فى أفريقيا وآسيا.. والأب الروحى لكل ثورة تحررية تقدمية... [وبالتالى] لو تخلفت جماعة أو جماعات عن الإدلاء بأصواتها... فسوف تقوم علينا قيامة الدنيا.

فالشعب هو المستفتى على وعيه، أما الزعيم فمكانته فوق كل الشعوب. وهى كلمات، على غرابتها بالنسبة لقارئ معاصر، تعبر بطريقتها عن غرابة الاستفتاء على حاكم مطلق السلطة، مطروح فوق ذلك باعتباره الممثل الوحيد

لروح الشعب ووعيه وإرادته على مدى تاريخه.

ومع الهبوط المتزايد لمكانة الشعب أمام بطله العملاق، أصبح مدينا لأبيه عبد الناصر – مثل الابن البار – لا بالاستفتاء عليه فحسب، بل بالنجاح فيما كلفه به الأب: "نعاهدك بأن نعمل بحماس أكبر لكى ننفذ الخطة الخمسية الثانية... لكى نحقق أملك فى أن نتجاوز عصر الكهرباء إلى عصر الذرة والفضاء". **وهكذا أصبحت آمال الشعب الرسمية مطروحة كالتزام عليه إزاء زعيمه**، حاملها، وهو بالطبع واجب إزاء نفسه أيضا، ولكن بتوسط زعيمه، ومن أجل خاطره. فالأب يفرح بنجاح ابنه، ويحزن لفشله. فى هذا الجو الأسطورى وحده يمكن أن نفهم هذا النص:

بارك اللـه فى شعبنا الوفى المخلص... وكافة الكتل البشرية التى خرجت أمس لاستقبال حبيبها وقائدها.. تعبيرا عن **وفائها** وحبها... التى ردت بأبلغ أسلوب على ما يروج له الاستعمار والرجعية من مزاعم وأكاذيب.

لسنا هنا بإزاء سياسة.. وليس عبد الناصر هنا ممثلا للشعب، يكتسب مشروعيته من هذا التمثيل المرهون بإرادة الشعب المعنى، وإنما هو عدو الاستعمار بذاته، أى أمل الأمة

الوحيد فى التحرر متجسدا. والكاتب الذى يحب عبد الناصر ويكره الاستعمار يشعر بولاء شخصى مباشر لعبد الناصر، بصرف النظر عن مسألة التمثيل بمجملها، ومن هنا شعر بهذا الامتنان للشعب، باعتباره طرفا خارجيا عن العلاقة، اختار أن يشرف الزعيم، أى التحرر، أى الأمة، فى مواجهة الاستعمار. وهكذا تنقلب العلاقة، فيصبح الشعب وكأنه فرد له صوت، يتخذ موقفا من قضايا الأمة المجسدة فى الزعيم. وهو انعكاس شفاف، لأنه غير مقصود، لانحدار وضع السكان الفعلى إلى وضع المتفرجين على تحررهم الخاص المفترض.

لقد كان "الزحف المقدس" يمثل إيديولوجية الاستبداد.. أما "الوسيط الروحى"، أو "البطل"، فكان يمثل وعدا بالعدل والمساواة والتحرر والكرامة. ومن خلال أجهزة الدعاية بالغة الجبروت، أمكن الدمج بين الجانبين فى الوعى العام، بحيث أصبحت الوطنية لا تنفك عن النظام الاستبدادى. لقد رأينا كيف حول تأميم القناة وما تلاه من أحداث عبد الناصر إلى زعيم كاريزمى.. فحقق له ما لم تحققه أجهزة الدعاية الواقعة فى قبضته منذ ١٩٥٢. وهكذا ملأ المحتوى الوطنى المصاغ

بشكل بطولى وشعبوى قبضة السلطة الاستبدادية. وقد طرح السادات القول بهذا الربط الضرورى صراحة؛ فردا على منتقدى "الاتحاد القومى" المطالبين بالديمقراطية قال (١٩٥٨): "إنهم يريدون فى الواقع أن يحرفوا معركتنا... فالاستقلال إذا حصلنا عليه بغير طريق الأحزاب والحزبية يصبح [عندهم] استقلالا زائفا... إنهم بهذه الطريقة يقيمون تناقضا صناعيا بين أهداف شعبنا وبين وسائله التى... جربت ونجحت وأتت بخير الثمار... ربما لأنهم ضد هذه الأهداف". فالوسيلة، أى الحكم الاستبدادى، لا تنفك عن الوطنية البطولية، وبالتالى يحمل رفضها شبهة انعدام الوطنية.. وكان عبد الناصر التجسيد الأنقى لمثل هذا الاتحاد بينهما، ورمزه. فباختزال الشعب بأكمله فى شخصه، فى صورة بطولية براقة، أصبح فى نفس الوقت مستبدا مرهوبا، وبطلا محبوبا، ومصدر الحياة.

لا شك أن الفساد الذى كان يتخلل النظام معروفا على نطاق واسع، وعبرت عنه حتى بعض الأعمال الأدبية، ورصد نجيب محفوظ التحلل المستشرى فى رواية "ثرثرة فوق النيل"، المنشورة عام ١٩٦٦.. قبل الهزيمة، حتى قيل

لاحقا أنها تنبأت بها. غير أن صورة الزعيم ظلت فوق كل هذه المفاسد، فى عهده وبعده. ووصل البعض إلى القول بأنه كان جاهلا بعمليات التعذيب والقتل البشعة فى معتقلاته. وبهذا حصل "الزحف المقدس" بكل ما شابه من فساد واستبداد ووحشية على غطاء إيديولوجى بطولى شعبى مساواتى منحاز للطبقات الشعبية، يتجاوز بكثير سياسات النظام الاجتماعية الفعلية، تجسد فى شخص واحد، هو عبد الناصر. وأصبح الزعيم بهذا كله لا غنى عنه للنظام نفسه، بقدر ما كان نتيجة ومحصلة له ولأجهزته. وفى تقسيم العمل هذا حكم الناس على النظام بالاستبداد، ولعبد الناصر بالبطولة والعدل. ولهذا جاز أن يتمتع الزعيم بشعبية طاغية، بينما تلقى أجهزته، وعلى رأسها "السلطة الشعبية"، أى الاتحاد الاشتراكى، إعراضا ونفورا.

غير أن الهزيمة كانت علامة فاصلة، حيث خلقت شرخا بين الإيديولوجيتين، أو بين "الوسيلة والهدف"، وتركت "الزحف المقدس" معلقا فى انتظار شرعية تنقذه. فلننتقل الآن إلى ما حدث فى ٩ و١٠ يونيو.

التنحى

من الناحية الإيديولوجية كانت حرب يونيو وتنحى عبد الناصر ثم عودته للسلطة، محمولا على مظاهرات هائلة، محصلة وذروة لإيديولوجية البطولة. وكانت فى كل الأحوال نقطة النهاية لمرحلة بأكملها من تاريخ مصر عامة، ومن تاريخها الإيديولوجى بالذات، فبعدها احتل الصراع العربى الإسرائيلى بؤرة المشهد، وأصبحت الحرب القضية الرئيسية على الساحة الإيديولوجية. وأيا كان فإننا سنجد فى تلك اللحظات الفاصلة إعادة إنتاج وتتويج لما مر بنا من مقولات وقيم إيديولوجية فى هذا الكتاب، يضاف إليها مسألة رؤية إسرائيل والقوة العسكرية، اللتان سيتم تناولهما الآن على سبيل التمهيد.

* * *

كانت الرؤية الغالبة لإسرائيل فى ذلك العهد هى أنها أداة للاستعمار الغربى، أو أثر من آثاره، أكثر منها مشروعا قائما على دوافعه الخاصة، برغم أن عبد الناصر أشار للعاملَين معا: "خُلقت إسرائيل مش بس علشان وطن قومى

لليهود، ولكن... لكى تكون عامل من عوامل القضاء على القومية العربية الموجودة فى هذه المنطقة من العالم". وهى تندرج ضمن "المؤامرة على القومية العربية... [التى] بدأت مع وعد بلفور واستمرت حتى أضاعت فلسطين، ولا زالت تتآمر على باقى المنطقة العربية" (١٩٥٦). وهكذا فإن قضية وجود إسرائيل اعتُبرت أساسا جزءا من قضية مواجهة الاستعمار، لأنها جزء من المؤامرة الاستعمارية.

وقد أكد الميثاق هذا المعنى، وأدرج القضية ضمن إيديولوجية العزة والكرامة البطولية، فتحدث عن "مرارة التجربة"، عام ١٩٤٨، التى خرجت منها الأمة العربية "بإصرار عميق على كراهية الاستعمار وعلى هزيمته... [وبـ]أن الاستعمار ليس مجرد نهب لموارد الشعوب، وإنما هو عدوان على كرامتها وعلى كبريائها".

ومن جهة أخرى كان للشعور بالفخر والعظمة والبطولة انعكاساته فى المجال العسكرى. فشهدت الفترة استعراضات عسكرية كثيرة وفخرا متكررا بالجيش. وساد اعتقاد بأن الجيش المصرى بالغ القوة. وقد تم ترويج الفكرة فى الصحف، اعتمادا على أية أنباء مناسبة، أو إشاعات. فسفر

بن جوريون (رئيس وزراء إسرائيل) إلى الولايات المتحدة طلبا للسلاح اعتُبر دليلا على أننا الأقوى، كما كان مصدرا لفخر التابعى: "أكرم لنا ألف مرة أن تقول عنا صحافة العالم أننا اعتدينا من أن تقول عنا – كما كانت تقول بالأمس – أن إسرائيل قد اعتدت وأننا سكتنا ولم نرد العدوان" (١٩٦٠).

وكانت الصحف تحتفى بالاستعراضات العسكرية وبتصريحات المشير field marshal عامر(*): "المشير يعلن فى العرض العسكرى/ الجيش ينتظر أوامر الشعب/ النفاثة العربية 'القاهرة' تقوم باستعراض على سطح النيل/ المشير عامر يقول/ قواتنا لا تقهر" (١٩٦٠).

كما كانت الصحف تحتفى بالمانشيتات العريضة بأى إشاعة بشأن قوة النظام العسكرية: "شيخ [:عضو كونجرس]

(*) رقى عبد الحكيم عامر من رتبة صاغ (رائد)، إلى رتبة لواء مباشرة فى يونيو ١٩٥٣، وتولى منصب القائد العام للقوات المسلحة. ورقاه عبد = الناصر لاحقا إلى رتبة المشير. وفى الجيوش النظامية تُمنح هذه الرتبة للقادة الذين يقودون جيوشا فى معارك كبرى إلى النصر.. ولهذا يعرف كل field marshal بالمعركة التى دخلها: مونتجومرى ومعركة العلمين، جوكوف ومعركة ستالينجراد، وهكذا.

أمريكى صهيونى يقول: عبد الناصر يستطيع/ محو إسرائيل فى ساعة". و"أسلحة ذرية مصرية/ جريدة بريطانية كبرى تؤكد أن مصر أصبحت خامس دولة ذرية فى العالم" (١٩٦٤). فبينما كانت هذه التصريحات تهدف على الأرجح إلى التهويل من القدرات العسكرية المصرية وحشد العداء ضدها، أفادت هنا فى غرض آخر تماما. وأيضا: "تطور جديد للنفاثة المصرية الحديثة/ التطوير يضع الطائرة 'القاهرة ٣٠٠' فى مقدمة الطائرات النفاثة فى العالم"، وكانت فى طور التجارب، ولم تدخل أبدا طور التصنيع.

على هذا النحو تشكل لدى الجمهور انطباع خادع بأن الجيش أصبح بالفعل على حد قول المشير قوة لا تقهر، خاصة مع التأكيد على تصنيع صواريخ يبلغ مداها مئات الكيلومترات، أُطلق عليها "القاهر" و"الظافر"، وكان مداهما فى واقع الأمر محدودا للغاية. بالإضافة إلى هذه القوة الجبارة أعلن عبد الناصر أننا "نستطيع بالقوة البشرية أن نبنى جيشا عربيا من ٢ مليون أو ٣ مليون ولن تستطيع أمريكا أن تعطى إسرائيل ٢ مليون أو ٣ مليون... وندخل نحرر فلسطين ولا نلقى بالا للضحايا. هذا – أيها الأخوة –

هو السبيل إلى تحرير فلسطين" (١٩٦٦). فالشعب العربى البطل ليس فى حاجة إلى أسلحة أصلا. ولا شك أن هذه الدعاية النارية جعلت الجمهور متحرقا لخوض المعركة الفاصلة ضد إسرائيل، طالما أن المهمة بهذه البساطة.

وقد وصلت الثقة بقدرة النظام الجديد فى هذا الشأن إلى حد اعتبار كل ما أدى إلى قيامه مباركا، بما فى ذلك، بل وعلى رأسه، هزيمة ١٩٤٨، فكتبت الأخبار (١٩٥٩): "رب ضارة نافعة، فإن هذا الاعتداء... كان بداية النهضة والقوة... شكرا للمحنة... خلقتنا خلقا جديدا... أما عصابات الصهيونية... فإن استعادة فلسطين [بعد يقظتنا] هى مسألة وقت". وكتب إحسان عبد القدوس (١٩٦١): "لا أعتبر أن إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين نكبة.. النكبة الحقيقية كانت فى استمرار الأوضاع التى كانت قائمة قبل ظهور إسرائيل... لقد نبهتنا التجربة إلى الأسس التى يقوم عليها حاضرنا... وعرفنا... أن كل شىء يجب أن يتغير"، وكل ما فعلناه من ٢٣ يوليو هو "معارك فى طريق [تحرير] فلسطين". ففى ظل إيديولوجية البطولة بدت مشكلة إسرائيل عقبة صغيرة يمكن تخطيها.. بل تم تخطيها بالفعل بمجرد

ميلاد العصر البطولى، والتنفيذ مسألة وقت.

ومن جهة ثالثة أصبحت إسرائيل سلاحا فى المعارك الكلامية بين النظم العربية، مما مهد لابتزاز النظام كما سنرى. فانقلاب الشواف الفاشل الموالى لعبد الناصر فى العراق (١٩٥٩) خير للعرب، والدليل "أن الذين يريدون أن يعرفوا ما فعله الشواف للعرب عليهم أن يسمعوا راديو إسرائيل! إنه يهاجمه ويسبه ويحاربه وينتصر لقاتليه". والاشتراكية أيضا خير بشهادة إسرائيل: فـ"إسرائيل تفزع فزعا مهووسا لأن جمال عبد الناصر يسير بمجتمعه إلى الاشتراكية... لأن المواطن السعيد هو خير جندى حين يدافع عن وطنه"، فيما قال كامل زهيرى (١٩٦٣). كما كان طرفا النزاع العربى الكبيران آنذاك، نظاما مصر والسعودية، يتنازعان شرعية العداء لإسرائيل وعداء إسرائيل لها. وهكذا أكد عبد الناصر أن الحلف الإسلامى الذى كانت ترعاه السعودية "لا يمكن أن يضرب إسرائيل لأن إسرائيل هى ربيبة الاستعمار، والرجعية فى البلاد العربية هى ربيبة الاستعمار" (١٩٦٦).

ولكن هذا السلاح ذو حدين. فإذا أتقن المنافسون

استخدامه يتعذر على النظام حماية نفسه من الابتزاز. وفى الواقع كان هذا السلاح يعمل بشكل أفضل ضد عبد الناصر بالذات، لأنه اعتُبر منذ وحدة سوريا أمل تحرير فلسطين. وحين استقبله الناس فى سوريا كخليفة لصلاح الدين كان بديهيا بالنسبة لهم أن يهتفوا له: "أنقذ فلسطين" (١٩٥٨). وكلما مر الوقت ولم يتم هذا الإنقاذ ازداد الضغط، خصوصا فى ظل التغنى بالقوة العسكرية التى لا تقهر.

من وراء المانشيتات، كان عبد الناصر أعلم بأحوال الجيش، فأخذ يدافع: "اللى طبعا بيقول إنت مستنى إيه يا عبد الناصر؟ ما تدخل تحارب إسرائيل. هو عايز طبعا عملية نتصدى فيها لإسرائيل علشان يدينا طعنة فى ظهرنا... إحنا علينا إن احنا نقوى أنفسنا" (١٩٦١). وكتب هيكل أنه "حينما يقف هؤلاء [أكرم حورانى والملكين سعود وحسين] لاتهام جمال عبد الناصر بالتواطؤ مع أمريكا لحل مشكلة فلسطين لصالح إسرائيل، فإن الأمر لا يكون فى حاجة إلى رد" (١٩٦٢). ولكن هذا الرد المنشور يدل على أن ثمة حاجة للرد، ولو بهذا الاستعلاء. ولذلك أمسك عبد الناصر الميكروفون ليرد: "يمكن كتير منكم سمعوا من راديو

دمشق... قالوا دا جمال عبد الناصر متفق مع 'بن جوريون' وفيه اتفاق بين مصر وإسرائيل. وليه ما اتقفلش خليج العقبة؟ دا دليل على إن فيه اتفاق... اشترينا قمح من أمريكا قالوا دول اتفقوا مع أمريكا على [:بشأن] إسرائيل" (١٩٦٣). وبعد عامين، أشار إلى نكسة عربية تتمثل فى:

السياسة الانتهازية ومحاولة اللعب بقضايا المصير. وطبعا كلكم فاهمين إن أنا باقصد بهذا سياسة البعثيين... خرجت صحفهم تهاجمنا... **وإن احنا لا بد... نعمل عمل فورى لتحرير فلسطين**... الحملة إن احنا [:السوريين] حصل عدوان علينا [:قصف مدفعى إسرائيلى]... يبقى لازم مصر تهجم، هل هذا الكلام فيه إخلاص؟... [إنه] محاولة لعب بقضايا المصير.

ولكن عبد الناصر بنفسه هو الذى دشن هذه اللغة فى الهجوم على أعدائه، كما أن هذا بالضبط هو المتوقع بالفعل من البطل، الذى سبق وأن استهزأ بالولايات المتحدة، وأرسلها لتشرب من بحرين. وهكذا سقط النظام فريسة للشعبوية التى ابتكرها، ووجد نفسه يواجه تحدِيا يفوق قدراته الحقيقية.

غير أن الأمر الجدير بالملاحظة هنا أن هذه الابتزازات قد أثارت كل العناصر التى ستظهر مجددا فى أزمة ١٩٦٧: الدفاع عن سوريا، إغلاق خليج العقبة، تحرير فلسطين.

* * *

كانت أزمة مايو ١٩٦٧ التى انتهت بحرب يونيو تكثيفا لكل هذه العناصر الإيديولوجية. وقد تمثلت الأزمة باختصار فى تصريحات استفزازية لإسرائيل ضد سوريا، صحبتها شكوى سورية من وجود حشود على حدودها.. مما جعل عبد الناصر مطالبا بالاستعداد لدخول الحرب دفاعا عنها. ولا ندخل هنا فى ملابسات الحرب وما واكبها من اتصالات دبلوماسية مكثفة روتها مصادر عديدة. ولكن باختصار طلب عبد الناصر من الأمم المتحدة أن تزيل قواتها من الشريط الحدودى مع إسرائيل فقط حتى يمكن دخول الحرب إلى جانب سوريا إذا هاجمتها إسرائيل، وإبقائها فى قطاع غزة وشرم الشيخ، ليتجنب استرداد سيادته على مضيق تيران ويصبح مطالبا أمام جماهيره بإغلاقه أمام الملاحة الإسرائيلية إلى ميناء إيلات. غير أن الأمين العام للأمم المتحدة رفض على أساس أن مهمة القوات واحدة لا تتجزأ، فإما أن تُسحب

جميعا أو تبقى. وهنا لعب العامل الإيديولوجى دوره الحاسم. فلإنقاذ ماء الوجه، إنقاذ دور البطل العربى، طلب سحبها جميعا، ثم أعلن وقف الملاحة الإسرائيلية فى مضيق تيران. ومع ذلك يبدو أنه ظل يأمل فى إمكانية احتواء الأزمة، وروى المعاصرون أنه كان راغبا عن دخول الحرب، بما يعنى فى النهاية أنه استُدرج لها بالإحراج الأدبى وتداعيات الأحداث.

وتتضح محاولة التهدئة، حتى على المستوى الإعلامى، فى خطاب معلن أرسله عبد الناصر لمؤتمر الطلبة العرب فى لندن فى ١٤ مايو، فبرغم أنه هاجم الولايات المتحدة وقال أنها تقود التآمر على قوى التحرر العربية، وأشار لتحرير فلسطين، فإنه إشارته كانت كالآتى: "واجبنا أيها الأخوة أن نستعد للمعركة الفاصلة فى فلسطين **وفى غير فلسطين**.. واستعدادنا **بتدعيم قوتنا**.. **بمضاعفة إنتاجنا**.. **بمواجهة الضغط**". بل وقرر أن ثمة محاولة "لاستفزاز القوة العربية لتتورط فى معركة لم تحدد هى وقتها ولا مكانها".

غير أن عجلة الأحداث دفعت إلى إرسال حشود عسكرية إلى سيناء، وبدأت وسائل الدعاية تعد الناس لمعركة قادمة.

وتعطينا مانشيتات "الأخبار" المتتالية فكرة عن طبيعة التعبئة النفسية التى جرت وقتها: "سندخل المعركة بأكبر قوة من النيران/ تحركت قوات الجمهورية العربية المتحدة/ طبقا للخطة العسكرية الموضوعة" (١٧ مايو). ثم: "التعبئة الكاملة للقوات المسلحة/ قوات الطوارئ الدولية انسحبت من خط الهدنة" (١٨ مايو). وبعد أيام أعلن عبد الناصر أن "القوات المسلحة احتلت امبارح [:٢١ مايو] شرم الشيخ... ولا يمكن بأى حال من الأحوال إن احنا نسمح للعلم الإسرائيلى أن يمر فى خليج العقبة. بيهددوا بالحرب اليهود. بنقول لهم الجيش معبأ... والشعب كله معبأ". وهكذا كان عبد الناصر يرسل رسالة مزدوجة: للخارج أنه سيكتفى بمنع العلم الإسرائيلى، لا السفن المتجهة لإسرائيل، بينما يوحى للداخل بأنه منع الملاحة إلى إسرائيل تماما. وكان هذا الازدواج كاشفا عن عمق تورطه فى شعاراته الخاصة. وهكذا أصبح المصريون فى انتظار الحرب الفاصلة. وصرح عبد الناصر (٢٦ مايو) بما يوحى بأننا مقدمون عليها عن وعى، مع وعد بالانتصار:

إحنا **أخيرا شعرنا بإن احنا قواتنا كافية** وإن احنا فى دخولنا فى أى معركة مع إسرائيل – بعون اللـه – **نستطيع**

أن ننتصر... ناس كتير جدا كانوا بيعايرونا بقوة الطوارئ الدولية... [ولكن الاستيلاء على] شرم الشيخ معناها فعلا مواجهة مع إسرائيل... ماهياش [:ليست] عملية [يمكن القيام بها] لوحدها... حتكون [بالضرورة] معركة شاملة. **وحيكون هدفنا الأساسى هو تدمير إسرائيل.** هذا الكلام... ما كنتش أقدر أقوله من ٣ سنين.

وهكذا وعد عبد الناصر، بطل تأميم القناة، بتدمير إسرائيل. كانت كلمات الرجل الذى يمثل "حقيقة" الأمة كما قال إحسان فوق الشك. ولكن على الصعيد الدولى أصبح المخرج الوحيد يتمثل فى أن تتجنب إسرائيل نفسها الحرب، وهو ما لم يحدث. لم يعد التراجع ممكنا، وبالتالى أصبح التعبئة: حتمية، فأعيد إنتاج مشاعر المهانة والعزة والكرامة والبطولة، فى الداخل وفى الخارج عبر إذاعة صوت العرب. وعبر عبد الناصر عن هذا الشعب العربى الذى كان من أحد الجوانب محصلة سياسات النظام البطولية ودعايته الأكثر بطولة.. فخاطب جمهوره بلغته وهو ينزلق فى هوة وضع انعدمت سيطرته السياسية عليه:

إن الفورة العربية والثورة العربية وهياج الجماهير العربية الذى نراه اليوم فى كل بلد عربى... ليس فقط لأننا عدنا إلى خليج العقبة.... لا. إنه من أجل **عودة الشرف العربى**.. من أجل عودة الأمل العربى. فقد كانت إسرائيل تتبجح دائما وزادت فى تبجحها، وكانت الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا وبريطانيا أيضا **تتجاهلنا، بل تحتقرنا**، وتعتبر ألا قيمة لنا، ولكن حينما آن الأوان... **علينا أن نستعد لننتصر، لا لنعيد مهازل سنة ١٩٤٨**... إن الدول الغربية إذا تنكرت لنا واستهزأت بنا واحتقرتنا – نحن العرب – فعلينا أن **نعلمهم أن يحترمونا**، ويعملوا لنا الحساب، وإلا فيكون كلامنا عن فلسطين... كلاما أجوف.

وهكذا نكأ عبد الناصر الجراح الإيديولوجية التى كان البادئ بحفرها وتحويلها إلى خطاب شعبوى، ووعد فى نفس الوقت بشفاء كامل وناجز. وبعد يومين أذاع بيانا صحفيا، عبر عنه المانشيت كالآتى: "عبد الناصر يعلن للعالم/ لن أتزحزح.. ولن أقبل أى مساومة/ نحن على استعداد كامل.. إذا تطورت الأمور إلى صراع شامل فى الشرق الأوسط/ إننى أتوقع هجوم إسرائيل فى أى لحظة" (٢٩ مايو). وفى

صبيحة يوم المعركة: "العراق ينضم إلى اتفاق الدفاع المشترك مع الأردن/ إننا ننتظر المعركة على أحر من الجمر" (٥ يونيو)...... وقد كان.

وترافق مع هذا التصعيد، وقبل الهزيمة/ النكسة، تعبئة عكست خصائص النظام وإيديولوجيته، فسارعت كل الهيئات للاشتراك على عجل والإعراب عن حماس بلا حدود لنصر مؤزر يفضى إلى تل أبيب، ستحاول السطور التالية أن تعكسه.

أعلن الأزهريون فى مؤتمر ضخم "الجهاد المقدس من أجل الإسلام والعروبة"، وخطب فيهم شيخ الأزهر قائلا إن "التاريخ يفتح لنا اليوم أوسع أبوابه لندخله خلف زعيمنا عبد الناصر مسطرين صفحات من نور فى سجل الخالدين"، وقرر المؤتمر "الوقوف صفا واحدا وراء معلم الوطنية الأول، الرئيس جمال عبد الناصر... فى كل ما يراه لمصلحة الأمة العربية... وفتح باب التدريب العسكرى لجميع العاملين بالأزهر، وفتح جميع المعاهد الأزهرية للتدريب العسكرى".

وقادت أمانة القاهرة للاتحاد الاشتراكى فى نفس اليوم مسيرة شعبية من عشرة آلاف شخص؛ وانعقد مؤتمر طلابى

فى قاعة المؤتمرات الكبرى بالجامعة أعلن تأييد عبد الناصر؛ واستُدعى ٣٠ ألف شاب لمعسكرات الحرس الوطنى؛ وتدفق المتطوعون فى طول البلاد وعرضها يطلبون التدريب على السلاح؛ وخطب رئيس الوزراء فى ١٥ ألف عامل بالسكك الحديدية؛ ودعا مجمع البحوث الإسلامية للجهاد المقدس؛ وانعقد مؤتمر شعبى ضخم ببولاق شهده أمين الاتحاد الاشتراكى بالقاهرة؛ وانعقدت مؤتمرات حاشدة أخرى فى ميادين مختلفة. ثم انعقد مؤتمر ضم ٥٠ ألف مواطن بميدان سراى القبة بالقاهرة؛ وآخر لشباب الفتوة، حيث تقرر تدريب شباب الجامعة عسكريا؛ كما انعقد مؤتمر ضخم للتجار والصناع والحرفيين تحت مسمى الرأسمالية الوطنية بميدان الجمهورية؛ وآخر للقيادات النسائية بالمطرية؛ وثالث للمهن العلمية؛ وتم إنشاء ٥٢ مركزا للتدريب على المقاومة الشعبية وتنظيم كتائب للمعلمين فى الجبهة؛ وتخرج ٥٤ ألف متطوع من شباب الفتوة بالقاهرة على وجه السرعة، للعمل فى مختلف جوانب الدفاع المدنى؛ وأقسم المتخرجون على الإخلاص للوطن و"لرئيسى وزعيمى **البطل** جمال عبد الناصر".

وقد شارك الاتحاد الاشتراكى فى كثير من الأنشطة، عرضتها نشرته: "الاشتراكى". وسارع الفنانون، والمطربون خصوصا، للمساهمة، فبدأ تلحين أغان جديدة وشارك فى الكتابة كثيرون، منهم أحمد شفيق كامل ومأمون الشناوى وفاروق شوشة، وبالطبع صلاح جاهين؛ وفى الغناء أم كلثوم وعبد الحليم ونجاة الصغيرة وفايزة أحمد وغيرهم. واندفعت استوديوهات السينما لتعد على وجه السرعة أفلاما تسجيلية للمناسبة، تطوع الفنانون للعمل فيها.

كانت هذه أكبر حشود جماهيرية منظمة منذ استفتاء ١٩٦٥، وفوق ذلك لم تكن حشود الهتافات المعتادة، وإنما تطوع جزء منها للقيام بمهام، أو التدريب عليها، مهما كانت صورية، فانضم عشرات الآلاف للدفاع المدنى أو التمريض أو التدريب على السلاح أو التبرع بالدم، فكانت المرة الأولى التى يستدعى فيها الشعب لفعل، لا لمجرد الهتاف، منذ حرب ١٩٥٦.

واندلعت الحرب. أثناء المعركة قيل فى اليوم الأول أن "قواتنا توغلت **داخل إسرائيل** بعد معارك عنيفة/ أسقطنا ٨٦ طائرة للعدو". ومنذ ذلك الحين بدأت الدعاية تتراجع تدريجيا:

"قواتنا تطارد فى عنف وشجاعة مقاتلات أمريكا وبريطانيا/ معارك ضارية مستمرة عند **العريش** وأبو عجيلة والقسيمة". أصبحنا إذن داخل سيناء. ثم: "تمركزت قواتنا فى خط دفاعى فى سيناء/ أسقطنا ٢٥ طائرة للعدو فى سيناء **والسويس** وشرم الشيخ/ الطائرات الأمريكية تتدفق على إسرائيل". وهكذا يزداد إبراز الولايات المتحدة مع التراجع من إسرائيل إلى العريش ثم السويس. وأخيرا: "دليل دامغ يؤكد اشتراك أمريكا بقواتها فى القتال/ وقف إطلاق النار/ حاربت قواتنا فى جميع المواقع معارك لم يسبق لها مثيل فى عنفها وضراوتها". كان ذلك مانشيت الأخبار فى التاسع من يونيو، يوم إلقاء بيان التنحى، وكان القول بالمعارك الضارية والدليل الدامغ على التدخل العسكرى الأمريكى هو الاعتذار الأخير.. ومع ذلك لا توجد أية إشارة صريحة إلى احتلال سيناء، ناهيك عن الجولان والضفة الغربية. وهكذا خيمت رائحة الهزيمة الثقيلة خلال أربعة أيام فقط، برغم التهوين والتهويل، لتحل محل آمال نصر قيل أنه مؤكد، فسقط الناس صرعى صدمة مروعة سريعة عاصفة.. بينما كان الجنود المصريون يزحفون سيرا على الأقدام غربا، وتدخل طلائعهم القاهرة من

الناحية الشرقية، وقد ربطوا أقدامهم بملابسهم بعد أن بليت أحذيتهم.

* * *

فى التاسع من يونيو أعلن عبد الناصر فى بيان أذيع فى الإذاعة والتليفزيون أنه يتنحى عن السلطة. وسوف يكون تحليل هذا البيان، الذى لم يحظ بأى فحص مدقق من قبل، هو النقطة الأخيرة فى التفسير الذى حاولنا أن نقدمه لمظاهرات ٩ و١٠ يونيو. كان رد الفعل العام هو اندفاع الناس إلى الشوارع تطالب عبد الناصر بالبقاء فى السلطة، بعد أن فقدها نظريا بإعلان بيان التنحى، ولم تتدخل أى سلطة قائمة فى الدولة لإبقائه. وهكذا فإن بقائه لا سند له سوى رد فعل عفوى لا يمكن تفسيره إلا بأنه **غريزة سياسية جماعية اعتمدت على ثوابت تم ترسيخها قبل هذه اللحظة بكثير.** وتكمن مهارة بيان التنحى فى استدعائه وتكثيفه للمقولات الإيديولوجية التى تشكل عماد النظام، وعماد مكانة عبد الناصر الخاصة للغاية التى وصفناها، أى بصفته الشعب مشخصا، وقد حل محل شعب انتقل إلى مقاعد المتفرجين فى الشئون السياسية قبل ١٣ سنة.

هنا يجب أن نتذكر ما أمكن عناصر الوطنية البطولية. كان الوصف الذى استخدمه القسم بالإخلاص لعبد الناصر، كما مر بنا حالا، هو وصف "الزعيم البطل". كان عبد الناصر قد أصبح، قبل هذه اللحظة بكثير، رمز التحرر الوطنى، ورمز الصورة البطولية له، تلك الصورة المصحوبة دائما بشعور عميق بإهانة واحتقار الآخرين لنا. وكان عبد الناصر قد أصبح أيضا وسيطا بين الشعب ونفسه، أى أصبح الرمز الوحيد القائم للشعب، كما أصبح فى موقع الأب.. وكان هنا، للمرة الثانية (الأولى مع انفصال سوريا)، الأب المكلوم. وكان عبد الناصر فى كل الأحوال شرطا لوجود الشعب. فالشعب بغير أية آليات تمثيل سياسية، وفى ظل احتكار الزعيم المطلق للسلطة، لا يصبح شعبا إلا حين يستمع إلى جمال عبد الناصر وهو يتكلم عنه وعن آماله وبرامجه ومواقفه.. فيصبح له برنامج وموقف وأعداء وأصدقاء. ويفعل حين يطلب منه الرئيس أن يفعل، وحين يطلب تأييده لمواقف. وكان إذن رمز وجود البلاد السياسى، بل أداته الوحيدة، وأصبح القوة المقدسة التى تلد الشعب وتمنحه معناه وأهدافه، بل شعوره بالوجود.

والآن فإن أول ما يلاحظ أن شيئا لم يحدث بعد الهزيمة قبل أن يظهر عبد الناصر على الشاشة ويتنحى.. فلم تتحرك أية جهة لمساءلته، أو لمساءلة أى مسئول عسكرى أو مدنى.. بل ولم تعلن أية جهة، بما فى ذلك قيادة الجيش أو الحكومة، أبعاد الهزيمة، ناهيك عما يجب عمله فى المستقبل، أو حتى ماذا يعنى "وقف إطلاق النار". كان الشلل كاملا. لم يتحرك أحد سوى عبد الناصر الذى اجتمع بهيكل بعد أن كلفه بصياغة بيان التنحى، وتولى تعديله.. فكان ذلك هو **الفعل السياسى الأوحد** فى البلاد فى تلك اللحظة وبعدها، قام به الشخص الوحيد الذى يحتكر القرار السياسى. وهكذا كان الفراغ السياسى هو الشريك الوحيد لعبد الناصر على الساحة، فراغ من اللا مسئولية الشاملة، التى صنعها النظام بالقضاء على السياسة. تحرك عبد الناصر وحده، تماما مثلما حدث واتخذ وحده قرارات التصعيد نحو الحرب(*).

(*) تشير شهادات مختلفة إلى أن الكثيرين من المسئولين، مدنيين وعسكريين، لم يؤيدوا التصعيد مع إسرائيل، وعلى رأسهم رئيس الوزراء صدقى سليمان، ولكنهم لم يجرؤوا على الاعتراض، فالأمر كان خارج اختصاصهم، لأنهم بلا شرعية فى حد ذاتهم، فهم أدوات الرئيس لا غير.

فالحقيقة الأساسية الأعمق بشأن البيان، والأهم من ذكاء صياغته، هى أنه **القشة الوحيدة** التى أُلقيت للناس فى موقف من الذهول الشامل، والضياع.. بصرف النظر عن أى مضمون أتى به. بل كان البعض ينتظر من البطل أن يرد على الضربة فى خطابه على نحو ما رد قبل ذلك على سحب تمويل مشروع السد العالى بتأميم القناة عام ١٩٥٦. كانوا ينتظرون الخطاب راجين رجاء يائسا أن يتحفهم زعيمهم البطل بمعجزة من المعجزات التى عودهم عليها؛ كانت الهزيمة فى ضوء الدعاية السابقة أصعب من أن تصدق، وأصابت الهزيمة التى عرفوا بها، دون أن يعرفوا أبعادها، كبرياءهم وكرامتهم فى الصميم.. فبديل النصر كما سبق وأوضح لهم عبد الناصر هو إهانة الآخرين واحتقارهم. كان الناس معبأين بالفعل بهذه الرؤية، وكانوا على استعداد لعمل أى شىء للثأر مما حدث، حتى قبل التفكير فى المسئول عنه.. ولم يواجههم قبل بيان التنحى سوى صمت شامل ومطبق. كانت المشاعر الجياشة الحزينة تبحث عن متنفس، ولم يكن ثمة متنفس قبل البيان.

على ضوء هذه الخلفية نتناول البيان بالتحليل. والفكرة

الأساسية هنا هى أن البيان خاطب الموقف بطريقة، لا تؤدى بالضرورة إلى المظاهرات التى تلته، ولكنه صيغ بطريقة تشجع عليها بقوة، بأن خاطب بذكاء، يحسب لهيكل ولعبد الناصر، كل التراث الإيديولوجى المتراكم الذى استحضرنا بعضه.

ولعل مما يرجح التعويل على رد فعل من هذا النوع محاولة عبد الحكيم عامر وهو يستمع للبيان أن يخطر عبد الناصر بأنه سيستقيل أيضا، ولكن لم يعلن عبد الناصر استقالته، ولم يسمح للمشير بإذاعة استقالته بنفسه، فأرسلها إلى وكالات الأنباء لتذاع. فكأن التنحى غنيمة.. أو المدخل الطبيعى لاستعادة السلطة، فلم يكن عبد الحكيم عامر زاهدا فيها بعد الهزيمة، بل حاول أن يحتفظ بها حتى "انتحاره" الغامض. كيف يكون التنحى طريقا ملكيا إلى السلطة التى نملكها بالفعل؟ يتطلب الأمر أن نظرة فاحصة إلى البيان.

وبداية فإن أول ما يلاحظ أن البيان **موجه للشعب**، مستعيدا ومؤكدا بذلك على العلاقة الخاصة بين الزعيم وشعبه. فى حين أن الاستقالة نقل للسلطة، ويجب دستوريا أن توجه لمجلس الأمة وفقا للمادة ١١١ من دستور ١٩٦٤

المعمول به آنذاك: "إذا قدم الرئيس استقالته من منصبه، وجه كتاب الاستقالة إلى مجلس الأمة". فهل كانت صيغة "التنحى" الغامضة التى وردت فى البيان تهدف لتجنب هذه التعقيدات الدستورية، فضلا عن مزاياها البلاغية؟ غير أن المهم هنا هو أن الرئيس تخطى، للمرة الألف، المؤسسات الدستورية التى شكلها بإرادته المنفردة أصلا، ليقيم محلها تلك العلاقة الخاصة بينه وبين "الشعب"، المفتقر إلى أية مؤسسات مستقلة من أى نوع، وواضعا بذلك كل مؤسسات الدولة بين قوسين فى حالة شلل كامل فى انتظار "كلمة الشعب"، ومحييا بهذا الموقف فى حد ذاته ذلك التراث الذى تناولناه بشأن العلاقة الخاصة بين البطل وشعبه..

ولهذا، ثانيا، كان البيان طويلا نسبيا، ولا يناسب شكلا ولا مضمونا هدف الاستقالة. فالاستقالة ربما لا تحتاج إلى أكثر من شرح أبعاد الهزيمة وحدود المسئولية عنها، بعبارات قليلة واضحة، وإعلان الاستقالة، ليتولى المجلس مهمته فى نقل السلطة دستوريا. غير أن البيان لم يصغ على هذا النحو، وكانت فقرة "التنحى"، المليئة بالحيل البلاغية على ما سنرى، مجرد فقرة فى سياق طويل كُتب ببراعة ليلعب

على أوتار إيديولوجية بعينها.

ومع ذلك تجب الإشارة إلى أن المقصود بتحليل البيان ليس القول بأن كل ما ورد فيه دار بالضرورة فى ذهن كاتبه، هيكل، أو الرئيس. فليس الغرض هنا التفتيش فى النوايا، وإنما، على العكس، تناول البيان من الخارج، من حيث علاقته بمتلقيه. ذلك المتلقى الذى لم يكن يستمع إلى البيان خالى الذهن، وكأنه ولد توا، وإنما استمع إليه بعد حياة ممتدة فى ظل نظام سياسى وتعليمى ودعائى واجتماعى.. وفى ظل بنية إيديولوجية، حاول الكتاب أن يوضح أسسها، ويرمى تحليل البيان إلى توضيح علاقته بها.

بدأ البيان بإعلان الرغبة فى المصارحة، ولكنها كانت مصارحة ناقصة: "لا نستطيع أن نخفى على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة". فالمصارحة لم تحدد أبعاد النكسة المقصودة، سواء من حيث احتلال سيناء أو ضياع الجيش بالكامل، فضلا عن باقى الهزائم العربية. وواصل: "**ولكنى واثق أننا جميعا نستطيع – وفى مدة قصيرة – أن نجتاز موقفنا الصعب**". فبعد "النكسة" المبهمة يأتى فورا وعد بتجاوزها. فقدم البيان فورا الأمل الوحيد

الذى أتيح للناس، وعلى لسان الشخصية السياسية الوحيدة التى عرفوها على مدى ١٣ عاما.. ومؤكدا سيطرته السياسية بإعلان نفسه ضمنا مصدرا للثقة بشأن المستقبل. وهكذا لم يكن المدخل يبشر بأى حال بـ"التنحى" اللاحق.

بعد الوعد تطرق الزعيم إلى تطور الاتصالات الدبلوماسية قبل الحرب، فأغفل فيها مسئوليته عن تصعيد النزاع، وانتهى إلى إلصاق الهزيمة بتدخل عسكرى استعمارى، على أساس أن الضربة العسكرية "أكبر مما يملكه العدو الإسرائيلى"، وجزم بأن ثمة مساعدات قدمتها حاملات طائرات أمريكية وبريطانية، بل وأن "العدو كان يعمل بقوة جوية تزيد ثلاث مرات عن قوته العادية". فليست إسرائيل هى التى هزمتنا، وإنما قوة لا قبل لنا بها. وبالنسبة للمسئولية لم يتطرق البيان لأية أخطاء عسكرية ارتُكبت، فادحة أو غير فادحة، بل أكد خلافا للواقع أن قواتنا "حاربت معارك رهيبة بالدبابات والطائرات على خط الدفاع الثانى". وهكذا بدأت المصارحة بسلسلة من الادعاءات، لا يعتمد تصديقها سوى على التعتيم الإعلامى المطلق.

غير أن النقطة المهمة فى البيان ليست هنا. إنها النقطة

التالية. فالقائد الذى سيتنحى وينتقل بعد دقائق، فيما يفترض، إلى وضع المواطن العادى يبادر برسم طريق المستقبل: "**أمامنا الآن عدة مهام عاجلة**. المهمة الأولى أن **نزيل آثار العدوان** علينا".. وهذه العبارة المبهمة تتجنب بمهارة القول بتحرير سيناء (والجولان والضفة)، كما تخفف تصوير الكارثة. أما المهمة الثانية فتتعلق بالتضامن العربى. وهكذا قدم القائد المستقيل، أو "المتنحى"، **البرنامج الوحيد للمستقبل**، مصريا وعربيا، الذى أتيح للجمهور المذهول فى مواجهة الهزيمة. أما التنحى فكانت صيغته كالتالى:

نصل الآن إلى نقطة هامة فى هذه المكاشفة بسؤال أنفسنا: هل معنى ذلك أننا لا نتحمل مسئولية فى تبعات هذه النكسة؟ وأقول لكم بصدق- وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفى فى الأزمة- فإننى **على استعداد لتحمل المسئولية كلها**، ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدونى عليه؛ لقد **قررت أن أتنحى تماماً ونهائياً عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى، وأن أعود إلى صفوف الجماهير**، أؤدى واجبى معها كأى مواطن آخر. إن قوى الاستعمار تتصور

أن جمال عبد الناصر هو عدوها، **وأريد أن يكون واضحاً أمامهم أنها الأمة العربية كلها وليس جمال عبد الناصر.**

فالتنحى، مبنى أولا على التساؤل عن المسئولية بشأن النكسة، المطروح بدوره كمجرد نقطة، وإن كانت "هامة"، فى المكاشفة، فهى ليست جوهر الأمر، حتى أنها أتت بعد وضع برنامج المستقبل. وثانيا فإن المسئولية التى يدور الكلام عليها ليست مسئولية عن الهزيمة، وإنما عن "تبعاتها"، أى آثارها، التى وضع عبد الناصر إزالتها على رأس برنامج ما بعد تنحيه. والتنحى ثالثا ليس استقالة رسمية، وإنما تنح، إفساح للطريق، لشىء سيعلنه بعد جملة واحدة. أما تحمل المسئولية فكان مخففا بعبارة "برغم العوامل...الخ"، فثمة إذن عوامل يوحى السياق بأنها "معقولة" بنى عليها موقفه. ولكن الصياغة تقول أيضا أن الزعيم لن يتنازل إلى حد أن يدافع عنها ويعرض مبرراته، أو "عوامله". وإنما بكل الكبرياء يعفى نفسه من المناقشة، ويقدم ثمن إعفائه فورا: التنحى. فالزعيم لا يضع نفسه محل محاسبة أصلا، بل يطرح تنحيه بكل كبرياء، كما استطاعت الصياغة أن تمرر النقطة الأساسية التى تبرر التنحى، وهى مسئوليته السياسية، خلسة.

وأخيرا، ولكن ليس آخرا بحال، فإن الزعيم لم يعلن مسئوليته عن "النكسة"، وإنما عن **استعداده** لتحمل المسئولية عنها.. وهى صياغة، خصوصا فى ضوء ما سبق، تدخل فى باب الشهامة، لا فى باب تحديد المسئوليات. ولأنها شهامة، ولأنه ربما يكون قد أخطأ فقط فى حساب العوامل، وهو ما لم يقله صراحة، ولأن المطروح هو تحمل تبعات الهزيمة، لا المسئولية عن وقوعها، فلا محاسبة ولا مساءلة. ومن هنا لن يسلم عبد الناصر نفسه للسلطة الجديدة، أيا كانت، لترى رأيها فى شأن مدى مسئوليته عن الهزيمة الفادحة، وإنما هو "يتنازل" باختياره الهبوط إلى وضع "**أى مواطن آخر**"، وهو بالفعل وضع سيء تماما. فهو لا يتنحى بسبب ذنب ارتكبه، ولا لأنه يتحمل المسئولية عما حدث.

غير أن هذا "التنحى" المترفع، والمحدود، ليس مطروحا بروح التعالى والتجبر.. وإنما شفعه هيكل فى صياغته باستثارة العلاقة الأبوية الخاصة التى ربطت عبد الناصر بالشعب. وهكذا يطلب الزعيم من الشعب **أن يساعده على تنفيذ قراره هذا.** ولما كان الزعيم يعلن تنحيه، فلا يبقى مفهوما من الصياغة سوى أنها تناشد الشعب ألا يتمسك

بالرئيس، وأن يفسح له، أو أن "يتنحى" من طريق التنحى الذى رسمه لنفسه. وبعبارة أخرى فإنه يقول للشعب أنه يتوقع منه أن يتمسك به، ولكنه يرفض ويريد من الشعب أن يقبل قراره، بل يرجوه أن يقبل.. فالإيحاء قوى للغاية بشأن ما يتوقع أن يكون عليه موقف الشعب.

ولهذا كله لم يكن الغرض من التنحى، فى صياغة البيان، إتاحة فرصة لقيادة أفضل، فالرئيس لم يعلن أصلا فشله السياسى. ولكن الأغرب أنه لم يربط التنحى بمسألة "الاستعداد لتحمل المسئولية كلها"، وإنما برغبته فى: أن يبين للأعداء أن الأمة كلها تؤيد مواقفه، وأنه ليس العدو الوحيد للاستعمار. وبعبارة أخرى فإن الزعيم قد طرح تنحيه **لمجرد البرهنة على الرابطة العميقة التى تربطه بالشعب**، متمثلة فى الموقف ضد الاستعمار. فالتنحى بصورته هذه لا يفك الصلة بين الحاكم والمحكوم، بل يعمقها. غير أن البيان لم يطرح هذا السبب الغريب لـ [عدم؟] التنحى كسبب بشكل صريح، وإنما أتى به بعده مباشرة فى جملة مستقلة، بحيث لا يتبين صراحة هل هو سبب أم نتيجة أم أثر جانبى.

وهكذا أعلن عبد الناصر فى بيان تنحيه، وبشكل غير

مباشر، أنه الأفضل، بل أنه فى الواقع البديل الوحيد الذى يملك برنامجا للمستقبل وشهامة، وأنه العنوان الصحيح للموقف البطولى من الاستعمار، فضلا عن أنه غير مسئول أصلا، لا هو ولا جيشه، الذى ادعى أنه حارب "معارك رهيبة.....الخ".

ويروى هيكل أن التعديل الوحيد الذى أدخله عبد الناصر على صياغته كانت رفض القول بأنه "على استعداد لتحمل نصيبى من المسئولية"، مصرا على تعبير "المسئولية كاملة". وفى هذا كان عبد الناصر الأبعد نظرا. فتحمل نصيب معين من المسئولية لا يتسق أولا مع توجيهه الخطاب منفردا إلى الشعب، كما أن تقسيم الأنصبة، ثانيا، يعنى أنه يتحمل بالفعل مسئولية معينة، فى حين أن صيغة "المسئولية كلها"، عامة، وتتسق مع أسلوب الشهامة الذى ميز هذه الفقرة بمجملها.. كان الزعيم هنا على حق.

بعد هذا التنحى الخاص منح عبد الناصر نفسه سلطة تعيين خلفه، ومن داخل النظام القائم، فخلع السلطة على

زكريا محيى الدين(*). فهو نفسه سوف يعود إلى صفوف الجماهير، **أما السلطة فلن تعود**، ولم تعد حتى الآن.

وبالفعل، كان تحديد المرشح حقا افترض عبد الناصر من البداية أنه يخصه وحده، وكان نتيجة مترتبة على تخطيه مجلس الأمة، المخول دستوريا باتخاذ الإجراءات بشأن استدعاء المستحق لتولى السلطة، وعلى توليه تحديد استراتيجيات مرحلة ما بعد تنحيه. ولسبب ما كان عبد الناصر ينوى أن يسمى فى خطابه شمس بدران (مدير مكتب المشير) ثم انتهى إلى زكريا محيى الدين. وكان الأخير أخلص رجال قيادة الضباط الأحرار لعبد الناصر كشخص، ومن هنا أوكل له وزارة الداخلية، التى كانت أول وزارة تولاها عبد الناصر، وأبقاه فيها معظم الفترة. ولم يكن يخشى من شعبيته، لا هو ولا شمس بدران بالطبع. غير أن المسألة

(*) تم تبرير ترشيح زكريا بأن الثورة ليست حكرا على جيل واحد من الثوار، مع أن زكريا محيى الدين من جيل عبد الناصر وأقدم منه فى الرتبة. والسبب فى ذلك أن اسم المرشح تغير بعد كتابة النص، وكان فى الأصل وزير الحربية شمس بدران. وكان عدم تغيير الصياغة بحيث تتفق مع تغيير المرشح نقطة الضعف الظاهرة فى البيان.

المهمة هنا هى أن أيا منهما لم يستشر فيما نعلم فى نقل السلطة له، فكأن دور الخليفة هنا ثانوى، لدرجة أن الرئيس لم يجد ضرورة لإخطاره بالمسئوليات السياسية التى "كلفه" بها. ويؤكد أحمد حمروش أن "زكريا محيى الدين فوجئ تماما بتنازل عبد الناصر له"، ولامه لاحقا على ذلك.

انتقل البيان بعد ذلك إلى استعراض ما حققه "جيل" عبد الناصر من استقلال وثورة اجتماعية وتأميم القناة والسد العالى، فأنعش ذاكرة الناس بالماضى المجيد، دون نواقصه وعيوبه، بل وكوارثه. وحالت نسبة الإنجازات للجيل دون أن يفخر الرئيس المتنحى بنفسه صراحة فى هذا الموقف الصعب. بعد ذلك أعلن الزعيم – بإرادة ملكية إن جاز التعبير – ثقته بتحالف قوى الشعب العامل، طارحا نفسه، وهو يتنحى مصدرا أعلى للثقة بالشعب. وهى ثقة المضمون الوحيد المفترض بشأنها هو ثقة بقدرتها على مواصلة المسيرة التى رسمها. فالسلطة أصلا لن تتغير جوهريا، حتى بفرض "نجاح" التنحى. ثم انثنى مكرما بكلماته التالية الجيش والشعب، مطلا بنظرته الأبوية عليهما معا. وختم بأن أعلن "أن هذه ساعة **للعمل** وليست ساعة للحزن" – وهى عبارة

تتجنب التداعى الساخر لعبارة "دقت ساعة **العمل** الثورى" فى تلك الظروف، وتستثير فى نفس الوقت روائح عصر الأمجاد. ثم ختم متوحدا بالشعب فى علاقة محبة متبادلة خالصة تحت المظلة الإلهية: "قلبى كله معكم، وأريد أن تكون **قلوبكم كلها معى،** وليكن اللـه معنا جميعا"، متوحدا بالشعب فى مأساة مشتركة، وطالبا مواساته.

وباختصار فإن الرئيس المتنحى خفف من حجم الهزيمة، وألصقها بقوى عظمى لا قبل بمواجهتها، ولم يتطرق لأية أخطاء عسكرية أو سياسية، ووضع مهام المرحلة القادمة، وعين خليفته بدون علمه، ونوه بمنجزاته، وطالب الشعب بالمحبة، وأعلن أنه يتنحى وهو عنه راض، وأنه فعل ذلك فقط من أجل أن يثبت للأعداء أن الشعب لا يقل عنه عداء للاستعمار، وأنه من باب الشهامة على استعداد لتحمل المسئولية كلها، وطلب مساعدته على العودة إلى صفوف الشعب، وأن تكون قلوبهم كلها معه.

روى هيكل أنه قضى بضع ساعات فى صياغة هذه الصفحات، وأنها كانت من أصعب مهامه، وهى بالفعل تشهد بكل حرف فيها بحرفية عالية. غير أننا حين نقيس أثر

الخطاب، ربما تبدو هذه القطعة الإيديولوجية المكثفة من قبيل الفن للفن، ولم تكن بذاتها لتحول دون نتيجة عكسية لو كان ثمة أية قوى سياسية أخرى فى الساحة قادرة على تقديم نفسها كبديل. لم يطرح البيان على الناس فى النهاية أكثر من نقل السلطة من ناصر لزكريا، مجرد انقلاب قصر يعلنه الزعيم بذاته، يقطع الطريق على انقلاب قد يفرض عليه، وعلى انفجار الغضب فى المستقبل، إذا أخذ الناس يستوعبون فى أسابيع أو شهور حجم الهزيمة، بغير أن يكونوا قد أخرجوا طاقتهم الانفعالية المكبوتة فى عمل كبير. ففى النهاية كان الأمر يتعلق بهزيمة فى حجم "التل الكبير" عسكريا، وفى حجم أكبر من ذلك إيديولوجيا، لأنها هزيمة نظام طال افتخاره بقدرات غير مسبوقة؛ متسلط، وبالتالى مسئول وحده عن كل صغيرة وكبيرة.

على العكس، كان توقيت البيان وطبيعته، على نحو ما أوضحنا، قبل مناقشة نصه، وما استند إليه من أوضاع سياسية وإيديولوجية العامل الأكثر حسما فى نجاحه.

ومع ذلك كانت النتيجة المتحققة للبيان غير حتمية. كان يمكن أن يكون رد فعل الشارع تخريبيا ينصب على أجهزة

الدولة ورموزها وكل ما يتصل بها. وقد مر هذا الخاطر بالفعل فى أذهان الحكام وقتها. فأثناء المظاهرات انطلقت المدافع المضادة للطائرات فى الهواء، فأوحت بهجوم جوى إسرائيلى على القاهرة وألقت الرعب فى القلوب، وقال أحمد حمروش أن الهدف من إطلاقها كان إشعار الناس "بخطر ما يمكن أن يقدموا عليه من أعمال مرتجلة غير محسوبة"، خصوصا أن تحترق القاهرة مرة أخرى فى غياب المسئولين.

ومن الواضح أن البيان، بطرح برنامج مستقبلى، وبلهجته الهادئة الأبوية الحزينة، وبتخفيفه من هول الكارثة، وبألفاظ الحب التى توحد الزعيم بالشعب، كان من شأنه التقليل من هذا الاحتمال. وفى ظل هذا الوضع كان تدخلا سافرا من أجهزة الاتحاد الاشتراكى كفيلا بتدمير كل شىء. كان يمكن لعناصر مختارة أن تقوم بعمليات تنشيط بصفة مواطنين، ولكن لم يكن بمقدور الاتحاد أن يجرى تجربة "استدعاء" تصبح بمثابة الفضيحة، وتمهد لسنوات من الاضطرابات ضد السلطة المحتقرة، أو حتى تقلب اتجاه المظاهرات فى التو واللحظة.

لقد أثار البيان المشاعر الأكثر مناسبة لإقامة تعاطف بين النظام الفاشل والشعب، غير أنه لم يكن يملك التأكد من اتجاه الآلة التى أدارها. ومع ذلك، على صعيد النوايا هذه المرة، يمكن القول بأن أسلوب عبد الناصر فى المغامرة لصيق الصلة بشخصيته. فبحسبة مماثلة تقريبا أمم قناة السويس، وبحسبة أخرى أقدم على سحب قوات الطوارئ الدولية من سيناء، متوقعا أن يحول المجتمع الدولى دون نشوب الحرب فى النهاية. فشلت هذه الحسبة، أما حسبتنا هذه فنجحت، وكانت عناصر نجاحها متوفرة تماما. أما بالنسبة للمدافع المضادة للطائرات، فقد سبق لعبد الناصر أن فجر بضع قنابل أثناء أزمة مارس ١٩٥٤ بهدف إشعار الناس بالحاجة إلى الأمان فى ظل الجيش، وبالتالى خطورة "الاضطرابات" التى قاموا بها من أجل الديمقراطية. والحال أن الأثر المتحقق للمدافع كان أيضا الذعر الذى يدفع إلى أحضان الأب المحبوب المرهوب، والوحيد القادر على اتخاذ قرار، أى قرار من أى نوع.

فى ظل التفريغ السياسى الشامل فى عهد الضباط، اندفع الناس إلى الشارع لا يحملون هم أنفسهم أى برنامج سوى

إبقاء الرئيس فى السلطة.. مطالبين فوق ذلك بمواصلة المعركة كما حدد الرئيس، وثأرا لكرامتهم. وهم فى ذلك اندفعوا أفرادا، لا يربط بينهم أى تنسيق، سوى ربما روابط القرابة أو الجيرة، يدفعهم فزع إضافى نجم عن أصوات وأضواء المدافع المضادة للطائرات.. هل إسرائيل قادمة إلى القاهرة؟ هل سيقصفوننا؟... كانوا قطيعا مذعورا يرغب فى أن يعود شعبا. **فقط بعبد الناصر** يمكن أن يعودوا شعبا مرة أخرى.. كان كما سبق القول مرارا "إرادتهم".. فقد كان هو الشعب الفعلى الفاعل، أما هم فليسوا سوى مصدر إلهامه، ثم متفرجيه ومشجعيه. لقد تحطمت منذ زمن كل نخبة سياسية أخرى.. ولم تكن ثمة خيارات متاحة. كان الشعب الذى نزل الشوارع هو الشعب كما بنته إيديولوجية "الزحف المقدس"، أفرادا تحولوا إلى ذرات متفرقة، تفتقر لأى قدرة على الفعل الجماعى، وبلا زعماء، لا يملكون سوى أن يسيروا فى "الزحف..." حين تستدعيهم السلطة. هنا لم تستدعهم السلطة، ولكنهم حين أصبحوا فى الشارع، كانوا يتامى حائرين، يبحثون عن حضن الأب الوحيد الذى يعرفونه. والأرجح أنهم حين هتفوا "حنحارب" كانوا يعدون الزعيم بالتضامن معه؛

يقولون له عد إلى السلطة ونعدك بأننا سوف نعاونك على إزالة آثار العدوان، تحت قيادتك.

حققت الجماهير هدفها الوحيد الذى كانت تستطيع أن تتخيله، ومن ثم انسحبت مرة أخرى إلى حياتها اليومية، ولم يعد لها شأن بالسلطة. لم تكن لها مجالس منتخبة حقيقية، لا قبلها، ولا انبثقت لحظتها، ولم يكن لها برنامج. كانت الجماهير التى قيل أنها انتصرت على الاستعمار بنزولها إلى الشارع جماهير منهكة من فرط الإفقار السياسى الطويل. ولم يكن لديها أى أفق، فلا مطالبة بالمشاركة بنصيب فى السلطة، ولا حتى أبسط الحريات الاجتماعية والنقابية.. ولم يطالبوا بالأحرى بمحاسبة المسئولين عن الكارثة، أيا كانوا. وهكذا فوضت الجماهير، جماهير "**الزحف المقدس**"، عبد الناصر، كما جرت العادة، وعادت إلى قواعدها، وعليه هو أن يزيل آثار العدوان.

على هذا النحو انتهت قضية مساءلة عبد الناصر، فكالعادة أيضا ناب عنهم وسأل نفسه وأجاب وانتهى الأمر.. وعلى كلٍ لم يدر مثل هذا المطلب فى خلد الناس أصلا.. فبقدر ما كانت المظاهرات دلالة على تعمق تراث عبادة

البطل، بقدر ما كانت دليلا بينًا على أنه لا يوجد، ولا فى الخيال، أى تصور مختلف عن السلطة بخلاف "الزحف...".

* * *

أعاد مجلس الأمة السلطة لعبد الناصر بناء على رغبة الشعب، مشفوعة بالولاء المطلق، بل والشكر والعرفان، فوقف السادات يخطب:

باسمكم [:أعضاء المجلس] وباسم الملايين من قوى الشعب العاملة أتقدم إلى رئيس جمهوريتنا، الرئيس جمال عبد الناصر، بآيات **الشكر والعرفان بالجميل**. وباسمكم جميعا أعلنها مدوية. سنسير يا جمال فى طريق الحرية، فى طريق الاشتراكية، وإلى الأمام **ونحن وراءك**، وإلى الأمام ونحن على ثقة من نصر اللـه وتأييده **ما دمنا وراءك**.

فالنظام باق، والشعارات باقية، والاصطفاف **خلف** الزعيم معصوبى الأعين سيتواصل، واللـه أيضا معنا، بشرط أن نظل خلف الزعيم. وسيتحمل الرئيس المسئولية كاملة، لا عن العدوان، ولكن عن إزالة آثاره، كما قال وحدد. أما المحاسبة والمساءلة، أو المسئولية بتعبير عبد الناصر، فعفى اللـه عما سلف، فقد حصل بدلا منهما على "الشكر والعرفان بالجميل".

هذا ما قاله رئيس مجلس الأمة.. الذى رقص أحد أعضائه فرحا بعودة الرئيس، وحظى بصورة نشرت فى حينها فى الصحف العالمية. وكان إحسان عبد القدوس، كالعادة، هو الذى لخص المعزى الإيديولوجى:

كل خطوة خطاها عبد الناصر خلال الخمسة عشر عاما... كانت تعبر عن إرادة الشعب العربى كله... نحن الذين نتحمل المسئولية.. نحن الشعب... فإذا كان عبد الناصر قد أراد... أن يتنحى فإنه لا يستطيع.. **لأنه إرادة الشعب، والشعب لا يستطيع أن يتنحى عن مسئوليته**.. **إن عبد الناصر سلاحنا.. قوتنا.. إرادتنا.** فإذا تنازلنا عن سلاحنا، وقوتنا، وإرادتنا.. فكأننا استسلمنا للعدو... ولن نجعل من النكسة نكستين.

فالشعب بلا زعيمه لا سلاح له ولا قوة ولا إرادة، ولما كان الشعب لا يتنحى بطبيعة الحال، فإن تنحى الزعيم يصبح مستحيلا بالتبعية.

كان الأثر المباشر للمظاهرات هو اكتساب النظام، الذى لم يكن مهددا بالسقوط على أية حال، شرعية جديدة جزئيا، اعتمادا فحسب على مكانة زعيمه. وفى ظل هذا الوضع تم

تصوير العملية ككل كنصر، لا هزيمة.. نصر تمثل فى بقاء النظام. وهو ما يفسر وضع النائب الراقص. وكما كتبت "الطليعة":

[برغم النكسة] إلا أن قضية الثورة ليست – ولن تكون – قضية موقعة عسكرية واحدة ولن يعرقل مسارها محنة عارضة، وإنما هى أولا وقبل أى شىء آخر **قضية وجود الثورة واستمرارها**، حيويتها المتجددة وقدرتها على تحويل النكسات إلى انتصارات محققة.

ولما كانت السلطة مستمرة تحت عنوان الثورة، فإن ٩ و١٠ يونيو أصبح انتصارا، وبهذا المنطق اعتبر أبو سيف يوسف، القائد، ثم الكاتب، الماركسى الحدث "انتفاضة":

أفشلت... هدف الإمبرياليين والإسرائيليين فى إبعاد قيادة عبد الناصر وإسقاط النظام الثورى فى مصر... [و]أفشلت.. خطة الثورة المضادة فى فرض الهزيمة والاستسلام على الجماهير الشعبية... [و]أفشلت... خطط المستعمرين والصهيونيين فى عزل الشعب العربى فى مصر عن بقية الشعوب العربية [بتظاهر الجماهير فى مدن عربية أخرى].

ففى مقابل الأعداء الواقعيين الذين انتصروا، تم تصور

مخططات، بغير تقديم أى دليل على صحتها، تم إحباطها والانتصار عليها. وبدلا من فهم واقعة التنحى والمظاهرات فى إطار طبيعة النظام السياسى والإيديولوجى، تم تقديمها بصورة بطولية.. فيها انتصر الشعب البطل بإعادة الرئيس البطل، تماما كما انتصر من قبل حين "حاصر" مجلس الأمة حتى يرشح عبد الناصر لرئاسة الجمهورية، وانتصر على الزعيم ذاته بإرغامه على قبول الترشيح عام ١٩٦٥.

وعلى غرار إصدار المراسيم والدساتير باسم الشعب، أنطقت الإيديولوجيا المظاهرات بما لم تقله. فالشعب الغاضب من الهزيمة التى أهانت كرامته، والمذعور الذى تُرك فجأة فى العراء بهزيمة مجهولة الأبعاد والنتائج وبتنحى البطل، عرضة، فيما تصور، لطائرات الأعداء، أصبح فى الإيديولوجيا شعبا سياسيا واعيا تحرك عن سابق عزم وتصميم بمطالب سياسية محددة، وواجه قوى ومخططات وأفشلها. وحفاظا على "التحليل السياسى" الذى طُرح آنذاك، قيل فيما بعد أن زكريا محيى الدين تم تقديمه لأنه أقرب للأمريكان.. وكأنه الممثل الرسمى لخط الاستسلام، برغم أن الدليل الوحيد على هذا، ربما، أنه أثناء رئاسته للوزارة رفع

الأسعار ونفذ خطة تقشفية، كانت العاقبة الضرورية لفشل الخطة الخمسية "الثورية".

وفى كل الأحوال لم يكن ثمة مخرج آخر، ولا بدايات أخرى. أما الناس فكان موقفهم حصيلة لكل البنية الإيديولوجية التى أقيمت فى هذا العهد.. تجسدت شعاراتها فى فرد معبود، جسد أيضا الأمة والدولة.. ولذلك أصبحت أية بداية جديدة لا بد أن تنبع منه أولا. فعودته للسلطة هى الأمان الوحيد المتصور، وهى مناط العزة والكرامة. **وحتى الثورة عليه، كانت تتطلب أن يعود أولا.**

* * *

كانت هزيمة ١٩٦٧ لحظة فاصلة فى توزيعات السلطة داخل النخبة الحاكمة.. فقد عاد عبد الناصر وحده، كما "تنحى" وحده. وكان على المشير عامر أن "يتنحى" بالفعل، وكان قد قدم استقالته وأذيعت. وبمقتضى المظاهرات تم التخلص من شلة عبد الحكيم عامر، الذى كان يطلق عليه فى مصر الرجل الأول بشَرطة. فنفوذه لم يقتصر على الجيش وحده، بل امتد إلى العديد من الأجهزة المدنية التى كان يعين الضباط لرئاستها. بل وتغلغل داخل بعض تنظيمات الاتحاد

الاشتراكى. غير أن الرجلين لم يكونا متساويين كما قد يوحى اللقب. كان عبد الناصر، فوق كونه زعيما جماهيريا، رئيسا أعلى لكل الشلل التى يتكون منها النظام، والتى يخشى بعضها البعض، وتعتمد فى بقائها على التوازنات التى يجريها الرئيس. أما عامر فكان رئيس شلة واحدة، وإن كانت أقواها جميعا: الشلة العسكرية. وبالهزيمة فقدت هذه الشلة ماء وجهها، وأصبح الجيش، الممزق بعد هزيمة ثقيلة، معتمدا فى كل شىء على ما يقرره الرئيس العائد، الذى تولى بنفسه بعد أن استتبت له الأمور حماية الجيش، مطالبا الناس بالكف عن إطلاق النكات اللاذعة عليه. وبالحفاظ على امتيازاته. ومع الاستعانة بمجموعة أخرى من كبار الضباط، تقلص نفوذ المشير إلى مجموعة صغيرة من الضباط الموالين له شخصيا، بما أتاحه لهم من مناصب وموارد، فتحلقوا حوله يحرسوه فى بيته.. فى منظر بائس كان هو نفسه عنوان هزيمته. كان التخلص منه مسألة وقت.. وكانت كل المناورات بهذا الشأن تهدف فحسب إلى التخلص منه بهدوء.. بلا معارك دموية. وبانتحاره، أيا كانت حقيقته، أُغلقت صفحته نهائيا. غير أنه، بانتحاره أو بمقاومته، حرم

عبد الناصر من طريقته المفضلة التى اتبعها مع نجيب، ثم مع البغدادى وكمال الدين حسين، أى عزله بلا إعلان وتحديد إقامته فى صمت.

ولكن ليس معنى ذلك أن الأمور استقامت لعبد الناصر فى السلطة بلا مشاكل. فالهزيمة قد قوضت الأحلام التى روجها النظام عن نفسه. وعرف الناس بعد زمن أن الجيش قد تمزق وأن سيناء قد ضاعت، وأن الهزيمة طالت ثلاث دول عربية فى أيام. والأهم أن الناس، وإن كانوا قد لجأوا إلى رمزهم الوحيد فى ذروة الضياع، لم يعودوا يثقون به وبمؤسسات دولته ثقة مطلقة، وإنما مشروطة. وهكذا انطلقت النكات اللاذعة تتناول العديد من جوانب النظام، بل وشملت تحويرا لاذعا لهتافات ٩ و١٠ يونيو نفسها: "أ..، أ..، لا تتنحى" (والنقاط تشير إلى لفظ احتجاج عامى جرى العرف على عدم كتابته)، بمعنى أننا إنما ثبتناك فى السلطة لأننا نرفض أن تُغرقنا وتمضى، فعليك أن تنتشلنا مما أوقعتنا فيه. ولكن السخرية المريرة من الذات لم تكن إلا تعليقا على ما سبق إعلانه من تأييد، بغير مشروع بديل.

كانت مظاهرات التنحى ذروة وتتويج ودليل تحقق

مشروع "الزحف المقدس"، ولكنه كان أيضا فى ضوء الظروف المأسوية التى اكتمل فيها، كان علامة بداية أفوفله التدريجى. وهكذا اندلعت فى فبراير ١٩٦٨ أول مظاهرات لا توجهها الحكومة، بسبب صدور الأحكام القضائية بشأن "المسئولية" عن ٥ يونيو، والتى كانت مخففة إلى حد مذر، بدأت بعمال حلوان ثم طلبة الجامعة. وللمرة الأولى يطالب قطاع من "الشعب العامل" بلقاء الرئيس، مبقيا بذلك قدرا من الثقة به، ولكنه مع ذلك يستدعيه ليحتج على شئون دولته التى يديرها.. فكان هذا السلوك بمثابة إرهاص أولى للغاية بسقوط نظرية التمثيل اللاهوتية التى مرت بنا، والتى جسدت "الزحف...." فى البيروقراطية الحاكمة بقيادة جماعة الضباط الأحرار، ثم اختزلتها فى الرئيس الذى يتلقى الوحى الشعبى. فقد سبقت هذه المظاهرات قدرة الرئيس على "تحسس نبض" الأمة بأصابعه، وتلقى "الوحى الشعبى"، فوقفت تعلن بنفسها مطالبها ورؤاها.

خاتمة

يدور الحوار بشأن ٩ و١٠ يونيو بين قائلين بأنها مظاهرات مدبرة، ومؤكدين على تلقائيتها. ويرتب الرأى الأول على ذلك الطعن فى شرعية نظام ٢٣ يوليو وشعبيته، بينما يعتبر الرأى الثانى التلقائية دليلا دامغا على إن نظام يوليو يعبر حقا وصدقا عن الشعب ويمثل اختيارات الجماهير الحقيقية، بدليل تمسكها به برغم الهزيمة.

والحال أن ما يجمع طرفى الحوار أهم وأعمق مما يفرقهما. فكلاهما يفترض أن "التلقائية" تعبير صافٍ عما يسمى "ضمير" أو "روح" الشعب، بينما التدبير تزييف لهذه الروح أو الضمير يلبس لباسها. والأهم أنهما بناء على ذلك يشتركان فى افتراض انقسام السكان بشكل طبيعى إلى "حكومة وأهالى"، أو "طليعة وشعب"، إذا استخدمنا تعبيرات الميثاق (مع استبعاد "أعداء الشعب"). وعندهم فإن الشعب، أو الأهالى، كجمهرة، هم المصدر الطبيعى للسلطة، و"مستودع" ما يمكن أن يسمى "الوعى السليم" للأمة، تماما كما كان الشعب مصدر الوحى فى إيديولوجية "حكم الشعب" كما مر

بنا، أو بعبارة أكثر شاعرية: "صوت الشعب من صوت اللـه". ويكون صوت هذا النبع الصافى للسلطة بمثابة مرجعية عليا، تمارس سلطتها إما بتأكيد الثقة التلقائية للحكام، أو طرح الثقة بهم، حتى إذا لم يكن لهم دور فى تشكيل النظام نفسه. فالطرفان يعبران فى السؤال الذى يدور حوله خلافهما بالذات عن استمرار هيمنة المقولات التى تبلورت فى عهد نظام يوليو ١٩٥٢؛ وهو أمر طبيعى بقدر استمرار أساسها المتمثل فى تسريح السكان سياسيا حتى وقتنا هذا.

وفوق هذا التقارب، فإن التناقض بين التدبير والتلقائية سطحى وغير منتج علميا. فسواء كانت المظاهرات مدبرة باسم سكان البلاد بغير أن تكون لهم قدرة على الاحتجاج أو انفجارا تلقائيا بلا إعداد ولا تنظيم، تكون درجة تنظيم السكان ووعيهم فى الحد الأدنى. فالحالة الأولى تفترض بداهة سلبية وعجزا مطلقين، بينما تفترض الحالة الثانية أفرادا متناثرين يتحركون بفعل "لا شعور سياسى" جماعى، إن جاز التعبير، تم تكوينه سلفا، بغير إمكانية لتكوين مواقف يتدبرونها من خلال مشاوراتهم فى تنظيمات سياسية واجتماعية تخصهم، وتعبر عن ثقل طبقاتهم وتوجهاتهم السياسية المختلفة. ومن

هنا فإن حركتهم العفوية لا يكون لها ثقل حاسم فى تعديل موازين السلطة وإعادة توجيه السياسات. ولا أدل على ذلك من مظاهرات ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ الحاشدة، التى، برغم تعبيرها عن رفضها للنظام، لا تأييده، عجزت أيضا عن تحقيق ما هو أبعد من مطالبها العاجلة فى التراجع عن رفع أسعار السلع المفاجئ.

ولأن طرفا حوار التلقائية والتدبير على هذا الحال من العجز عن رؤية **العفوية كظاهرة تعبر عن العجز السياسى،** لأنها فى نظرهم معيار أعلى للشرعية، فإن أفق النقاش لا يتسع لتفسير طبيعة العلاقة بين "الشعب" و"الطليعة" كما تبدت فى المظاهرات، أو كيف تحققت مركزية عبد الناصر فى النظام السياسى وفى الوعى العام.

بالمقابل اختار هذا الكتاب أن يطرح تفسيرا لـ٩ و١٠ يونيو تضافر عمل التعبئة الطويلة واستنهاض العفوية، بفعل ظروف وطبيعة خطاب التنحى قبل مضمونه. كما حاول فى تفسير هذه العفوية أن يوضح أنها ليست انبعاثا تلقائيا لجوهر أصيل كامن تسميه الأدبيات الرومانسية "روح الشعب"، وإنما منتَج تاريخى مترتب على إفقار سياسى من نوع مميز.

فالعفوية **بوصفها أدنى درجات الوعى العام** كانت نتاج تحلل الروابط السياسية بين السكان، والتى حال النظام السياسى دون عقدها، حتى تحت لوائه الخاص. فجاء رد الفعل العام غير المنظم يعكس بالدرجة الأولى ما ترسب فى وعي السكان من أفكار مجردة، عامة وشاملة، صيغ بموجبها شعب واحد موحد، يمنح السلطة للزمرة الحاكمة سرا، إذ يبثها وحيه، ويتلقاها منها على لحمه الحى علنا فى مقاعد المتفرجين، كطرف غير سياسى بالتعريف؛ هذا إذا افترضنا أن السياسة ممارسة للسلطة، والوعى السياسى نشاطا، لا ترديدا لشعارات صحيحة أو خاطئة أو حتى "عظيمة".

ومثل إيديولوجية نظام يوليو، يعتبر الطرفان ضمنا أن الشعب فى حالته التلقائية، أى كأفراد يفتقرون للنشاط السياسى الخاص، يمثل فى هذه الحالة بالذات النبع الصافى الخام والتعبير الأكثر أصالة عن روح الشعب الأصلية المفترضة. وبالتالى فإن الشعب المنظم فى أحزاب وجمعيات وخلافه مستقلة عن السلطة، لا يكون بهذا الصفاء، إذ "لوثته" النخب السياسية وغير السياسية المختلفة وذهبت به مذاهب شتى، على نحو ما رأينا نقد نظام يوليو للحزبية. وبالتالى

ينطلق الطرفان من عداء أصلى للسياسة، بتراتبيتها بين قادة ونخبة وكوادر وجمهور مشارك وآخر سلبى، وتعدديتها بين مشارب ومصالح وتيارات. فالوعى العفوى هو الوعى البكر.. النقى.. حالة الطبيعة التى لم تلوثها أفعال النُخب "المغرضة".

وهكذا يمكن القول أن الاستبداد والرومانتيكية، ممثلة فى الشعبوية، يسيران براحة جنبا إلى جنب ويتآزران. فالرومانتيكية تفترض أن الذات، شخصية أو مجردة، أى ذات جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم، هى معيار الحقيقة ومصدر المعرفة ومعنى الوجود. وهى دائما ذات مصمتة، وحدة أولية لا تنقسم، لا تجرى بداخلها صراعات، وإنما تعانى فحسب من بشاعة الخارج أو الأعداء.. وتُرجع ما قد تستشعره بداخلها من صراع إلى تأثيرات الوسط المعادى الذى يرمى إلى هدم نقائها الخاص. وبالتالى فإنها تعجز عن إدراك أن تشكلها بهذه الصورة، أى كجوهر نقى مفترض، إنما هو نتاج تاريخ وشبكة من الأفعال التى تتموضع هى فيها وتتشكل. ولما كان تطابق الذات مع نفسها هو المعيار الأعلى لحقيقيتها فى نظر نفسها فإن انفعالها التلقائى يعتبر التجلى

الأعلى للحقيقة. وبقدر ما تتصور نفسها خالية من تأثيرات القوى والتاريخ، بقدر ما تكون "هى هى"، أى تجليها العظيم الصافى والنهائى.

ويمكن تفسير محاولات الضباط لتحويل السكان إلى "زحف مقدس"، بأنه رؤية رومانتيكية ترمى لاستدعاء الروح الأصلية للشعب واستخلاصها من "براثن" التشوهات الحزبية والاستعمارية، فتقيم شعبا واحدا موحدا، يسير بلا استثناء خلف قيادته، التى هى روحه ومفهومه لأنها تحمل مغزى وجوده ومستقبله. ولا يعدو تقديس العفوية على لسان المتناظرين حول تلقائية وتدبير ٩ و١٠ يونيو أن يكون امتدادا بسيطا، ولكن غير واع، لهذه الرؤية.

ووفقا لهذا التصور تكون السلطة شرعية حين تكون تجليا بسيطا نقيا مباشرا لهذا الوعى الأصلى، وتصبح الشر مجسدا حين تمثل دور هذا التجلى البسيط، فتخترع المظاهرات باسمه. وبالتالى يصبح هذا الكتاب بمجمله غير مفهوم عند أصحاب هذا التصور. فعندهم ليس معقولا أن تكون المظاهرات المؤيدة عفوية ونتاج نظام استبدادى فى نفس الوقت.. وبالتالى فإن المقدمات التى تشكل الفصول

الأربع الأولى من هذا الكتاب لا تؤدى فى نظرهم إلى قيام مظاهرات ٩ و١٠ يونيو، بل إلى عدم قيامها. وتكون المظاهرات نتيجة لشىء آخر، نقى وطاهر وعظيم مثل الشعب النقى، لم يورده الكاتب.

بالمقابل حاول هذا الكتاب أن يبين أن **العفوية هى بنت التعبئة** وليست بلورا صافيا نقيا يشكل نقيضا لها؛ فهى نتيجة تحطيم طويل المدى للحياة السياسية. وهو يفترض، مثل فوكو وماركس، أن السلطة تُنتج الوعى وتشكله، وأن السلطة المطلقة هى الأقدر على ذلك. لقد استدعت الهزيمة وخطاب التنحى ترسبات عمليات تعبئة شاملة، حققها الاحتكار المطلق لأدوات إنتاج الإيديولوجيا، وإخضاع السياسات الاجتماعية نفسها لهذه الإيديولوجيا، التى مثلت بذلك مرتكزا أساسيا للنظام. ليس الاستبداد والبطولة، أو القمع والعدالة الأبوية، أو القهر والحب، نقيضان كما تفترض الرومانسية، لا عند القاهر ولا المقهور.. وآخر ما يريده هذا الكتاب أن يصدر القارئ حكما أخلاقيا على "الناصرية"، أو على "الشعب" الذى قام لاستبقاء حاكم ونظام قاما على هذا المزيج، وإنما ببساطة تسليط الضوء على آليات إنتاج مثل هذه الظواهر التى

تعتبرها النظرة الرومانسية غير مفهومة ولا متسقة، تستبعد بعضها بعضا بحكم التعريف.

في سبتمبر ١٩٧٠، تكرر مشهد الحشود الهائلة، على نطاق أوسع بكثير، حين خرج الناس يودعون عبد الناصر إلى مثواه الأخير، في مشاهد حزن مروعة، عاجزين عن تصور أن تعيش مصر دونه. وفي تلك المناسبة قالت لطيفة الزيات: "**لا يحق لفرد أيا كان أن ييتم شعبا**".. وهو ما يذكرنا بمقولة برتولد برخت التي افتتحنا بها الكتاب. ولكن لكي ييتم فرد شعبا، يجب أولا أن يفرض نفسه عليه كأب؛ كان عبد الناصر أبا بطريركيا قويا وباطشا ومانحا أيضا... وكان فوق ذلك بطلا للعدالة والوطنية والثورة، فأصبح بهذا كله أبا ونبيا معا، أو، كما قيل، مخزنا لطاقات "شعبه" وحامل إرادته ومحتكرها.. تلك كانت أسس ذلك اليتم.

لنلق نظرة أخيرة على الجذور. بينما كان نظام دستور ١٩٢٣ يترنح تحت وطأة العجز السياسي الشامل الذي تبدى في "حريق القاهرة"، أيا كانت القوى التي صنعته، تصاعدت الدعوة في "أخبار اليوم" بالذات، الوثيقة الصلة بالسراي وأحزاب الأقلية، تناشد بحرارة ظهور "المستبد العادل"،

مخرجا من الأزمة. وحتى إحسان عبد القدوس كتب فى "روز اليوسف" ذات التوجه الليبرالى عن الحاجة إلى "رجل قوى"، وتساءل: هل هو على ماهر؟ وكانت جماعة الإخوان قد فقدت "مستبدها العادل" حسن البنا، بينما أُلصقت تهمة حرق القاهرة بزعيم منظمة "مصر الفتاة" (واسمها آنذاك الحزب الاشتراكى)، وبقى معبود تنظيم "الراية" الشيوعى، الملقب بـ"خالد العظيم" (فؤاد مرسى) أسير الحياة السياسية السرية وحدها. أما الملك نفسه فقد انتهت سمعته السياسية، فلم يبق له سوى استبداد عاجز، بغير سمعة "العدل" أو "الوطنية". فكانت صيحة المستبد العادل أملا ضالا للاتجاهات الاستبدادية يبحث عن تجسيد حى.. اتجه أولا إلى على ماهر، ثم محمد نجيب، وأخيرا استقر به المطاف فى القبضة القوية لجمال عبد الناصر.

كان نمو التيار الاستبدادى داخل الإنتليجنسيا المصرية، الراغب فى التحرر من هيمنة الوفد والنظام القديم، والتحرر من الشراكة مع متوسطى الملاك، لبناء نظام مثالى نابع من سلطة الدولة مباشرة، ويقوم على عبادتها وتقديس أوامرها الإدارية، ويؤمن بقدرتها على الترفع والارتفاع فوق

الصراعات الاجتماعية جميعا، من أجل صالح عام خالص من "أهواء" الجماعات المختلفة، أى خال من حياة السكان الصراعية الحية، هو الأساس الذى غذى أفكار ومشاعر عبد الناصر وتنظيم الضباط الأحرار، ومنحهم القدرة على رؤية استبدادهم خيرا وبركة تحل على شعب موحد يسير فى "زحف مقدس" ليحقق أهدافه بلا صراعات. وكان صعود هذه الأحلام من جانب هذه الفئة الاجتماعية التى تشكل عماد الجهاز الإدارى للدولة الجذر الأعمق لإيديولوجية البطل، التى تجسد عبادة الدولة، التى تابعنا أسسها فى هذا الكتاب، واستخدمناها فى تفسير حشد ٩ و١٠ يونيو.

وبصرف النظر عن قضية الحق الأخلاقى للفرد فى أن "ييتم شعبا"، التى طرحتها لطيفة الزيات، حاول هذا الكتاب أن يفسر، ولو إلى حد: كيف حدث ذلك، وحاولت هذه الخاتمة أن تبين لماذا ظل تفسير الحدث يدور فى فلك إيديولوجية نظام يوليو وأسلافه الاستبداديين حتى يومنا هذا. يصعب أن يرى الكاتب، أى كاتب، أبعد من لحظته التاريخية؛ فالتاريخ كما قال ماركس "يخيم فوق رؤوس الأحياء كالكابوس"، لا فكاك منه. فهل تعكس بدايات التحرر

الملموسة فى كل مكان من أسر قضايا الماضى ومناقشاته بداية شىء مختلف؟ "إن بومة مينرفا لا تحلق إلا عند الغسق"، هكذا قال هيجل.. فهل هو غسق نظام ٢٣ يوليو؟